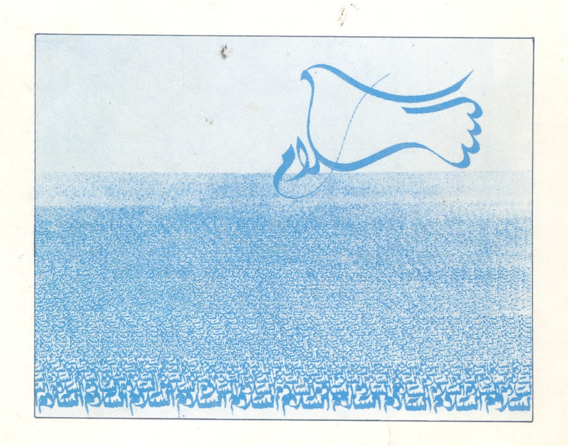
الثقافة الجديدة



217





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

217

العدد ٣ السنة ٣٧ كانون ثان ١٩٩٠

فهرست

■ آراء ومناقشات

■ ذكرى الانتفاضة

■ قضايا راهنة

■ التقارير

■ أدب وفن

■ وثائق

لوحة الغلاف ـ للفنان حسن المسعود



مناقشات لاطروحات كريم مروّة

في المسألة القومية والوحدة العربية واسسهما الموضوعية

عامر عبد الله

لمحة من ذكريات :

اتيح لي بمناسبة الذكرى الستين لتأسيس الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ان اتحدث باسم الرفاق العرب في حفلين كبيرين نظما في هذه المناسبة، في موسكو. وكان من بين ما قلته بحق الحزب الشيوعي اللبناني، انه يتميز بحيوية فكرية وبنهج انتقادي بعيد عن النصوص الجامدة والمسلمات المألوفة.

ولم اكن لدى عرضي لهذا الحكم والانطباع اتقصد الاطراء المفتعل أو المطلوب عادة في مثل هذه المناسبات الاحتفالية، وانما كنت اركن الى متابعة جادة للنهج الذي التزمه هذا الحزب في العقدين الاخيرين خصوصاً، ونزوعه المثابر لطرح العديد من المعضلات والحلول والمقترحات، قيد المناقشة والحوار. وكانت في ذهني فضلاً عن ذلك احاديث ولقاءات شخصية مع الصديق العزيز كريم مروة، وآخرين من رفاقه، ومنها ما يرجع الى عشرين عاماً خلت.

ففي امسية كنا نقضيها معاً على شرفة فندق «الكازار» المطل على البحر في منطقة الزيتونة ببيروت، تطرقنا الى موضوعة «التطور اللارأسمالي» التي اعتمدت آنذاك نصاً في برامج الحزب الشيوعي اللبناني. واذ كنا نطل على مرج العمارات الشاهقة المتوهجة بالنور، ونتابع اقلاع الطائرات كل بضع دقائق، ونتأمل واجهات المتاجر والمصارف

والشـركات المضاءة بالالوان، توصلنا الى ان كل ذلك، بل وغيره من مرافق الخدمات المرتبطة بهذه المؤسسات من فنادق ومطاعم ومرافىء ومطارات، انما هي قبل كل شيء من متطلبات رأس المال والاستثمار. وبالتالي فالبلد يسير باندفاع لا سابق له في طريق التطور الرأسمالي لا التطور اللارأسمالي. وبمضي عام أو عامين على ما اذكر، عرفت ان الرفاق اللبنانيين قد توقفوا، وفق منهجهم، بواقعية وجرأة امام هذه الموضوعة التي اخذت طريقها الى برامج العديد من الاحزاب، وتخلوا عنها بيسر وبساطة. فذلك هو واقع لبنان الذي تحول فيما بعد الى اكبر مركز مالي وتجاري في حوض البحر المتوسط بالارتباط مع التدفقات النقدية الضخمة التي توجهت الى مركز المال والتجارة والخدمات والنقل في لبنان، في فترة الازدهار النفطي اوائل واواسط السبعينات.

كان لبنان اذ ذاك ينطلق في طريق الازدهار والتطور الرأسمالي السريع في ظروف الاستقرار السياسي الذي كان ينعم به وهو شرط لا غنى عنه لاستقرار واستثمار رأس المال.

وكان لبنان وهو يجتذب رأس المال العربي وبعض القوى العاملة العربية، يغتني ويزدهر ويتطور.. وكان يمكن للاموال العربية الفائضة التي بدأت تتدفق على مصارف لبنان ان تتحول الى استثمارات كبرى في لبنان والبلدان العربية الاخرى. ولما كانت حركة المقاومة الفلسطينية قد اختارت لبنان آنذاك موقعاً لتواجدها الكثيف ونشاطها السياسي والعسكـري، واذ استمـر لبنـان كعهده تلك البوابة المشرعة للحرية والثقافة في العالم العربي، فقد انتاب الفزع دوائر المال والاقتصاد والاوساط السياسية والعسكرية في الغرب واسرائيل.. وارتسم في الافق ذلك السؤال الخطير: هل ستسمح هذه الدوائر والاوساط بتركز الفائض من الموارد العربية في سوق لبنان ام ينبغي تحويلها الى سوق المال في المراكز الرأسمالية في الغرب؟ وهل يمكن لاسرائيل (ومعها حلفاؤها في الغرب) ان تغض الطرف عما يوجد على تخومها من قوى فلسطينية منظمة ومسلحة وتحظى بدعم القوى الوطنية اللبنانية؟

كان بانتظار لبنان اذن، ذلك البلد المزدهر، المستقر والحاضن للمقاومة الفلسطينية والفصائل الثورية العربية ـ عقاب كبير. وهذا ما اذكر اننا (أي كريم مروة وانا) قد تطرقنا اليه؛ بل هو ما تحدثت به نصاً مع الرفاق في الجبهة الشعبية في دار الشهيد غسان كنفاني وبحضور الرفيق الدكتور جورج حبش وغسان كنفاني، وتيسير قبعة وبسام ابو شريف وغيرهم من قادة الجبهة الشعبية.

كان مشهد بيروت من شرفة ذلك الفندق الذي استضافني فيه الرفاق اللبنانيون، قبل عشرين عاماً، اخاذاً، ساحراً، وفي الوقت نفسه، مثيراً مقلقاً: فقد كان بانتظار لبنان كما

قلت عقاب كبير.

وهذا ما وقع. ويا لهول ما وقع!

* * *

وبعد،

فقد قرأت اطروحات الصديق العزيز كريم مروة وما انتظمته من مفاهيم واستنتاجات ومواقف وحلول ومقترحات وافكار. وهي بمجموعها عصية على المعالجة في مقالة واحدة.

ومن هنا جاءت بعض التعقيبات عليها من جانب بعض الكتّاب والمفكرين موجزة متعجلة أو مرتجلة، بل كانت في اغلبها ردوداً انفعالية اكثر منها مناقشة موضوعية. ومن هنا أيضاً كان اختياري لعنوان هذه المقالة. فلا احد يستطيع ان يحل محل فريق كامل من الفلاسفة والساسة والاقتصاديين والمؤرخين وعلماء الاجتماع.. الذين بمقدورهم وحدهم ان يعالجوا برصانة علمية وبدقة وشمول، وبالركون الى معرفة موسوعية عميقة، كل ما تقتضيه مناقشة القضايا الكبرى الثلاث التي اثارها كريم مروة ومجموعة الافكار والمفاهيم المرتبطة بها.

ولذا، فسأتناول هذه القضايا بأكبر قدر من الايجاز والتركيز، ومن خلال منهج ينطلق من عنوانين:

الاول ـ وقفة مع النص وبعض الردود عليه.

والثاني ـ اقتراح بديل عن عناوين هذه المعالجة

لنأخذ اولاً، المسألة القومية من حيث المفهوم والمضمون والموقف.. وحسب التسلسل الذي عرضت فيه:

● يتساءل الاستاذ كريم مروة:

«هل نحن كعرب نشكل قومية واحدة؟ وهل تتوفر فينا كل العناصر التي تتكوّن منها الامة..؟ واذا كان ثمة وجود لامة مكوّنة أو هي في طور التكوين فهل هناك ضرورة لان تتجسد هذه الامة في دولة واحدة»؟

بديهيّ ان الاجابة على هذه التساؤلات ميسورة باستثناء العملية المعقدة بل والبالغة التعقيد المرتبطة بتكوين الدولة العربية الواحدة. والواقع ان النقاش حول الامة ومكوّنات الامة، (وفق الشروط الاربعة التي صاغها ستالين) انما هو نقاش عقيم ولا يتمتع بأية قيمة عملية. وكنت منذ عام ١٩٦٥ قد ضمنت هذه الفكرة في كراس بعنوان (مشاكل الوحدة

العربيــة) الذي عالجت فيه مظاهر التفاوت الحاد في توزيع الثروة والسكان، والتطور المتناقض للاقطار العربية، وكذلك التعارض في تراكيب وسياسات الانظمة العربية، وقضايا الاقتصاد والسوق والترابطات مع السوق العالمي للرأسمالية؛ وقيام اسرائيل في العالم العربي كحاجز بين المشرق العربي ومغربه. . . الخ.

إلا انني اتوقف عرضاً لدى بعض ما لفت نظري من التداخل في مفهوم القومية، والحركة القومية، وبين الوحدة القومية والامة، وبين الامة والدولة. وهي ما تتطلّب في اعتقادي تحديداً لمعانيها بدقة اكبر مما ورد في طروحات كريم مروة حول هذه المسائل.

فالقـوميــة (Nationalism) ـ ليست ايديولوجيا أو منهجاً سياسياً كما يجري تناولها احياناً، ولكنها مفهوم فلسفي واجتماعي وسياسي وسلالي (Ethnic)، وبالتالي فهي كما يقـول الكـاتب «هـوية، وانتماء، وحاجة حيوية». . ولكنها ايضاً لغة، وثقافة، وتراث وتاريخ ـ أي تكوين سيكولوجي أو طبع قومي متميز (National Character) من حيث اللغة والآداب والفنون والجماليات والموروثات من العادات والتقاليد والاحاسيس والعواطف والمألوفـات البيئية والعقائد الدينية، والكثير مما يرتبط بالحياة الروحية والسايكولوجيا الاجتماعية للشعب والامة.

اما العروبة (Arabism) فهي باعتقادي تركيز حاد لمحتوى القومية. وقد تحمل احياناً طابعاً سلبياً أو شوفينياً ازاء الامم والشعوب والاقوام الاخرى، كما تتخذ احياناً طابعاً مخففاً يقوم على الاستجارة بالماضي في محاولة لمعافاة أو تزيين الحاضر.

اما الحركة القومية (National Movement) فهي مفهوم سياسي ينطوي على كثرة من الامور، وخاصة ما يتعلق منها بالكفاح التحرري، وحق تقرير المصير، وقضايا الاستقلال والسياسة الوطنية والتمسك أو الدفاع عن كافة الحقوق الاخرى الآنف ذكرها والمرتبطة بمفهوم القومية فضلاً عن قضية السلطة السياسية والطبقة الحاكمة، والموقف من مجمل القضايا والمواقف السياسية والاجتماعية والفكرية في مقدمتها قضية الطبقات ومفهوم الاممية.

اما الامة (Nation) فهي تكوين اجتماعي يتم عادة عبر عملية من الاندماج التاريخي لاقـوام أو قوميـات (Nationalitys) متقـاربـة ومتشـاركـة في الموقع الجغرافي، واللغة، والثقافة، ونمط العيش والطبع القومي، والروابط الاقتصادية (التي لا تشترط بالضرورة نوعاً من التكامل أو السوق المشتركة بعد ان خرجت الرأسمالية من مراكزها واصبحت نظاماً كونياً من العلاقات التي شملت جميع الاقوام والشعوب والامم).

واما الدولة (State) ـ فهي مفهوم حقوقي وتكوين سياسي قد يضم امة واحدة، أو امماً عديدة، مختلفة، وذلك على اسس قومية أو سياسية أو جغرافية. كما يمكن للدولة

ان تتحقق على اساس ديني او عسكري كما تم عبر التاريخ بالنسبة للدولة المثيولوجية المركزية في وادي النيل ووادي الرافدين والهند وكما تم بالنسبة لدول الفتوحات كالدولة الرومانية ودولة المغول وكذلك الدولة الاموية والدولة العباسية والدولة الاموية في الاندلس. . . الخ.

اعتقد ان هذه التعريفات الاولية غير وافية. وقد تحتاج الى تدقيق وتصويب. ولكني اذ اتوقف عندها، فلأني اجد ان الخلط بينها غالباً ما يشوش رؤية المواطن، أو يخل بمضمون المنهج والهدف، وهو امر غير مألوف في اللغات الاخرى، ولاني أرى ايضاً ان الحزب الشيوعي اللبناني، كما يقول الرفيق كريم مروة، يضع بشكل تعسفي طائفة من المعضلات الاساسية وحلولها، تحت عنوان اسمه «المسألة القومية». .

فما هي هذه المسألة القومية التي يندرج تحتها مثلاً ـ الى جانب قضية الوحدة، والقضية الفلسطينية، والقضية اللبنانية، وظاهرة الانكفاء الى القطرية وقضية التحرر من مسائل المعضلات والمشاكل الاخرى، وخاصة ما يرتبط منها بقضايا التنمية والثروات القومية، والتبعية، والتخلف، والديمقراطية، والتقدم. . باعتبارها «مكونات المسألة القومية»؟

فهل هذه حقاً، هي مكونات المسألة القومية، سواء من الناحية العلمية او من الناحية العملية؟

ولماذا كل هذا التأكيد من جانب الحزب الشيوعي اللبناني على الاهمية القصوى الناشئة عن هذا «التحديد للمسألة القومية والاصرار عليها»؟

وكيف يمكن الاتفاق مع الاستاذ كريم مروة في قوله: «بان حل أي من المشكلات المتعلقة ببلد ما بمعزل عن الوضع العام للدول العربية هو امر متعذر»؟ وبالتالي، قوله: «ان السبب في فشل محاولات التحرر من التبعية ومحاولات التنمية، انما يعود الى التجزئة التي فرضها التقسيم الامبريالي للوطن العربي».

هو ذا مقطع آخر، ذهب فيه الرفيق كريم مروة الى ابعد من ذلك، اذ دعا الى: «مشروع مستقل للتنمية والتطور. . استناداً ـ كما يقول ـ الى الرابط القومي الذي سيحدد آفاق تطور الاقطار العربية على قاعدة التكامل السياسي (كذا) والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي والانساني الذي تفرضه الحاجة الموضوعية للتطور والاستقلالية النسبية لكل قطر. . . »!

والى جانب كل هذا التبسيط في تناول المسألة القومية، يذهب الاستاذ مروة في الحديث عنها الى حد المغالاة أو التعصب (الذي ينفيه عن نفسه). فهو في حديثه عن تحرير الثروات العربية (وهي قد حررت بالفعل ثم ارتهنت فوراً) يقول:

«ان الصراع الراهن في البلدان العربية، يشير الى مزيد من التجذر في الصراع حول هذه القضـايا. . الامر الذي يعطي للمسألة القومية في بلداننا موقع المسألة التي يتمحور حولها الصراع في داخل كل قطر عربي وعلى الصعيد القومي. . الخ». فهل هذا حقيقي، أو واقعي، أو موجود حقاً بشكل يتلاءم مع هذا الوصف؟

ويقول ايضاً:

«ان الاحداث التي تشهدها بلداننا منذ نصف قرن تؤكد الترابط العضوي ما بين البلدان العربية، في تطورها المتفاوت. . وفي نضال شعوبها ضمن ظروف مختلفة».

هذا مع العلم، ان للترابط العضوي معنى علمياً محدداً هو اغنى وأوسع واوثق مما هو قائم من ترابـطات بين البلدان العـربيـة. ولذلك يؤكد الكاتب، من منطلق التمني والطموح، على:

«الحاجة الى علاقات عربية من نوع جديد متميز، يترابط فيه النضال بكل جوانبه لدى كل قطر عربي ترابطاً عميقاً» ثم يستدرك مقولته وهو يعاين الواقع، قائلاً:

«على ان تكون لكل قطر فيه استقلالية نسبية. . وعلى ان تبقى الوحدة القومية هدفاً نهائياً». في تعبيره عن هذه الآمال النبيلة، كان على الاستاذ كريم مروة ان يتوقف ولو قليلاً لدى دور الانـظمـة العربية في كل تلك الاطوار المديدة والمزمنة من الفرقة والجفاء، والخصومة والعداء التي كانت من صنع هذه الانظمة لا من صنع ابناء هذه الامة، والتي، مافتئت قائمة بين البلدان العربية «الشقيقة»!

واذا كان قد احسن اذ توقف في كل محور تحدث فيه لدى قضية الديمقراطية، اذ ربط كل شيء «بالديمقراطية، وازدهار الديمقراطية، بكل جوانبها، وفي كل ميادين الحياة والنشاط». الا انه، للاسف، استبقى حتى في هذه الحالة، على السؤال الكبير الملحاح، وهو الانظمة السياسية ودورها في صنع وتصنيع كل ما تواجهه هذه الامة من محن وكوارث وازمات. بل وذهب ـ كما لاحظنا ـ الى حد التطلع الى قاعدة ما من «التكامل السياسي» في ظل هذه الانظمة التي يستحيل ان يقوم بظلها اي تكامل من أي نوع كان.

وبالتداعي الذي يستحدثه ـ هذا الحوار والسجال، قد ينبري من يتساءل عن حالة تقـارب بين مجـاميـع معيّنـة من الـدول العـربية في تكتلات اقليمية كمجلس التعاون الخليجي، ومجلس التعـاون العـربي، واتحـاد دول المغـرب، وكـأنهـا صدى لحاجة موضوعية تتطلب التقدم نحو الوحدة القومية.

قد يكون الرفيق مروة من هذا الرأي بحيث يرى فيما يحدث مسايرة لرؤيته. فهو يقول مثلاً: «ان الاساس في العلاقة بين الاقطار العربية، هو موضوعية الترابط القومي بينهـا، بمعزل عن كل ما اعترض هذه العلاقة من تناقضات ومؤثرات وصعوبات

وعقبات». .

ويقول ايضاً:

«ان الحركة من اجل الوحدة القومية حركة لها اسس موضوعية، وانها مهما طرأت عليها من تطورات بفعل تناقضات الاوضاع الاقليمية والعملية التي تولدها الازمة داخل كل قطر وعلى الصعيد القومي العام، محكومة بان تتطور في الاتجاه الذي يعمق ترابط المصالح القومية، اياً كان شكل هذه الوحدة وزمن تحقيقها».

كيف يمكن للمرء ان يمر بكل هذه السلاسة على تلك التناقضات التي اصبح الكثير منها عسيراً على الحل؟ ومن قال ان الاتجاه الموضوعي الذي تسير فيه البلدان العربية، محكوم بفعل أو قانون من شأنه ان يعمق ترابط المصالح القومية؟

يقول الواقع ان وجهة معاكسة هي التي تشق طرقها فعلاً. وانا هنا احيل القارىء مرة اخرى الى مقتبسات من معالجة للواقع العربي في ملحق لهذه المقالة يتناول مفعول هذه التناقضات المشتدة الى حد الهروب أو الطرد الذاتي من مركز الدائرة العربية، أو الوحدة القومية، وفي هذا السياق اشير الى ان التكتلات الاقليمية التي تقام حالياً لا علاقة لها البتة بالمسألة القومية، أو الوحدة العربية. وبالعكس، فهي بديل مشوه لها، وعقبة في طريقها، بل ونقيض لها. فمجلس التعاون الخليجي، مثلاً، لم يقم على اسس قومية، بل على نوع من التكافل السياسي والعسكري والامني، بالاضافة الى التماثل في اقتصاديات هذه البلدان وكفاءاتها المالية، وطبيعة الانظمة السياسية فيها. وتلعب هذه الاهداف، وهذا التماثل في الاوضاع، بالاضافة الى متطلبات الستراتيجية الامبريالية في هذه المنطقة، الدور الاساسي في اكساب هذا التكتل صفة التكامل والتكافل والفعل المؤثر.

ويخلافه فان مجلس التعاون العربي، الذي قام هو الآخر على نوع من التعاون السياسي والعسكري والامني، لابتزاز مجلس التعاون الخليجي والضغط عليه، بالاضافة الى نوع مفترض وغير مجد من التعاون الاقتصادي والفني. . وذلك على خلفية ازمات واختناقات اقتصادية ومالية تواجهها بلدان هذا المجلس، لذا فهو، بهذا المعنى، حلف لم تكن وراء قيامه أية دوافع قومية أو تحرك باتجاه الوحدة القومية؛ كما انه لا يملك امكانية التطور والدوام.

اما التكتل الثالث في المغرب العربي، فهو الآخر لم يقم على أية أسس قومية أو دوافع تستحث التقدم نحو الوحدة العربية، بل قام بدوافع اقتصادية تستهدف مواصلة وتعميق التكامل الاقتصادي والتجاري مع الغرب، وتنسيق المواقف مسبقاً بشأن التكامل اللاحق مع مجلس الوحدة الاوروبية الذي سيتم تشكيله عام ١٩٩٢.

تلك بعض الحقائق المستقاة من الواقع . وهي هنا في تعارض، من حيث الجوهر، مع طروحات الصديق كريم كروة بشأن الوحدة القومية والتحرر الوطني، وحديث التنمية. فهو في كل هذه الامور يقترب أو يتطابق في رؤيته مع طروحات مركز دراسات الوحدة العربية الذي يؤكد هو الأخر على ان التنمية المستقلة لاي بلد غربي لا يمكن ان تتحقق إلا في ظل الوحدة العربية. كما يغالي في التأكيد على مفعول الترابطات القومية والاندماج القومي، أو الوحدة القومية.

والواقع ان المرء لا يحتاج الى أي جهد في استنطاقه للتاريخ القريب الذي يقول بصوت جهير ان جميع الحركات الاستقلالية والثورات التحررية التي وقعت في مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن، وليبيا وتونس والمغرب والسودان، ولبنان ايضاً، قد حدثت دون أي اتفاق في استئذان من العالم العربي أو من «المسألة القومية». ولقد قامت جميع هذه الحركات والثورات بارتباط مباشر مع اوضاع كل بلد من هذه البلدان، ومع مستوى الحركة التحررية فيه، وتجاوباً مع قانونية الوضع التاريخي للامة العربية المجزأة، الذي اقتضى حكماً ان يأخذ كل بلد عربي على عاتقه مهمة تحرير نفسه وبناء دولته الوطنية المستقلة، وذلك بمعزل عن «المسألة القومية» أو «الوحدة القومية» التي كانت ومازالت صعبة المنال.

ولاستكمال هذه المحاورة وعرض وجهة نظري، ولو بشكل اقتباسات وجيزة، سأضع امام الرفيق كريم مروة، وأمام مناقشي اطروحاته والقراء عموماً، نصوصاً مجتزأة من آخر مقالة لي نشرت في مجلة «الثقافة الجديدة» في عدد آذار ١٩٨٤ بعنوان «الشيوعيون وقضية الوحدة العربية». وهي تطوير وتركيز لافكار كنت قد اوردتها في محاضرة عام ١٩٥٨ ونشرت بكراسة بعنوان «الطريق التأريخي للوحدة العربية» وكذلك الكراس الذي اشرت اليه في صدر هذه المقالة وهو بعنوان «مشاكل الوحدة العربية»، وقد صدر عام ١٩٦٥. وهدفي من ذلك هو وضع الافكار والمشاكل والحلول التي عرضت في هذه المقالة، في عداد مثيلها مما عرضه الرفيق كريم مروة للمناقشة والحوار ايضاً. فضلاً عن حرصي على تعديل وتدقيق بعض المفاهيم السائدة، ونبذ الحلول المبسطة، والنزعة الارادوية، أو تحكيم الحلم والأمنية بدلاً من الواقع الملموس.

أما بصدد التنمية والتبعية، فسأحيل جوهر النقاش فيه الى القسم الثاني من هذه المقالة. وسنرى في ضوء المعطيات والارقام والوقائع الصارخة، مقدار ما طرأ على مضامين هذه العناوين والمفاهيم، من تبدلات مذهلة. ويكفي، اولياً، القول بان عمليات البناء الاقتصادي والتنمية التي جاوزت الاستثمارات المخصصة لها في البلدان العربية خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة، الـ ٦٥٠ مليار دولار، قد اقترنت ثم آلت الى ترابطات

بنيوية بل وتكاملية احياناً مع السوق العالمي للرأسمالية، وكانت في تعارض كامل مع مفهوم التحرر الوطني، والاستقلال الاقتصادي والتنمية المستقلة وما اليها من شعارات واهداف باتت في عداد الاماني الروحية.

وهذه العملية التي تحكمت فيها وفيّ مسارها ومالها انظمة وطبقات معروفة وآليات وروافع معينة مرتبطة بتطورات الاقتصاد العالمي، وبظروف العالم/ المعاصر . . قد تمت هي الاخرى، كتعبير عن ظروف موضوعية، وحالة واقعية يعيشها العالم العربي، وقد تحققت دون استئذان ايضاً من أي بلد عربي، أو من «المسألة القومية» أو من احلام «الوحدة القومية». وبالعكس فقد حصل كل ما حصل بالضد من كل ذلك، واسفر عن مزيد من التناقض والتجزئة والانعزال والقطرية . . وعن مزيد من الترابط والتبعية بل والاندماج، وبصورة اصبحت معها المسألة القومية وبخاصة قضية الوحدة القومية، اعسر منالاً من أي وقت مضى، ان لم نقل انها اتخذت مساراً تاريخياً جديداً، كما سنرى في ملحق هذه المقالة حول قضية الوحدة العربية.

ذلك هو الواقع كما نراه ونعيشه. وهو كما قلت واقع لا يستأذن الاحلام والرؤى والمطامح النبيلة. ولذا فالتنمية تأخذ مسارها القطري، لا القومي، وهي تتم بترابط وثيق في البناء والانتاج والتداول، وحتى دورة رأس المال، مع البنى الرأسمالية في المراكز، وبنسبة من التعامل تزيد عن ٩٠٪، كما سنرى، بينما حجم التعامل الاقتصادي والتجاري بين بلدان الامة الواحدة لا يتجاوز الصفر بين بعض البلدان العربية، وخاصة بين بلدان المغرب العربي ومشرقه.

وبالتالي فان موضوعة التنمية المستقلة، والاستقلال الاقتصادي، والتكامل الاقتصادي العربي، والسوق العربية المشتركة، والوحدة الاقتصادية العربية. . بل والتحرر الوطني والسيادة الوطنية، قد باتت مفاهيم تستوجب المراجعة والتدقيق لاكسابها شيئاً من المصداقية والواقعية، ولاستعادة شيء ما من مضامينها الحقيقية.

ان عمليات التنمية، بالصورة المار ذكرها، تأخذ مسارها في اطر قطرية، ولم يعد من الميسور تحويلها عن هذا المسار. وهي - بالاحتكام الى واقع التجزئة، أو الواقع الموضوعي للعالم العربي، ظاهرة موضوعية وواقعية . . أي انها عملية ممكنة، وطبيعية، ويمكن ان تتواصل، أو تنسق، أو يجري ترشيدها، ولكن على اياد غير تلك التي تتولاها حالياً.

ولئن تم ذلك فلن يتم بالضرورة بالارتباط مع الوحدة العربية، أو وحدة السوق العربية. وبالتالي فمن الخطأ وضع تعارض بين جانبي هذه المسألة أي التنمية والوحدة،

أو الحكم على امكانية البناء والتنمية بالمستحيل والمتعذر إلا في اطار الوحدة القومية.

* * *

ويكفي هنا ان نشير الى عمليات مماثلة تجري على نطاق كل بلد على حدة، أو منطقة على حدة، بل في مدن ومراكز معينة في العالم. ونورد على سبيل المثال ثلاث مدن اصبحت من اكبر مراكز التصنيع والمال والتجارة في العالم، وهي: هونغ كونغ، وسنغافورة، وتايوان، دونما استهانة بالتكوينات الاقتصادية الكبرى وجدواها، ودور الشركات المتعددة الجنسية في خلق هذه المراكز. فهذه هي الرأسمالية في صورتها المعاصرة، وذلك هو عالم اليوم بترابطاته الاقتصادية المشتدة. وبالتالي فلا مجال للبت باستحالة التنمية القطرية، في ظل «العودة الى القطرية»، كما يذكر الاستاذ مروة، أو بتعذر الحل لطائفة من «مكوّنات المسألة القومية» بمعزل عن الوحدة القومية.

ان محاكمة الواقع من خلال الأمنية هو منهج غير صحيح. فهذا الواقع، كما سنرى، هو الذي سيبقى يتحدث بصوت اعلى وبكلمات اكثر بلاغة.

حول موضوعة الدين:

سأحاول تركيز الحديث، وعرض بعض الافكار أو الأستنتاجات الوجيزة، التي لا تتعارض في الجوهر مع طروحات الرفيق كريم مروة.

فالدين، كعقيدة وسلوك وعبادة، قد رافق وجود الانسان فعلاً «منذ فجر التاريخ»، كما يقول، «وكان له دور كبير في حياة الشعوب.. وتأثير كبير على الوعي الاجتماعي». ولكن ما اصل الدين بوجه عام، (لا الدين الاسلامي) وحده؟ وهل كان دوماً، أو تطور دوماً، الى «ثورة اجتماعية»؟ ان منشأ الدين في الاساس والجوهر هي تساؤلات الانسان وحيرته بمخاوفه وضعفه ازاء الموت، ومفاجآت القدر، ومتاعب الدنيا، وكوارث الطبيعة، والجهل بـ سرار الكون ومصير الانسان، وغير ذلك مما هو عصي على الجواب. وهذا ما تجسد في طقوس الاديان، واتخذ طابع الضراعة والتزلف وتقديم القرابين الى الآلهة. ولقد استحدث ذلك كله حالة مرهقة اوصلت الانسان منذ فجر التاريخ الى الدين كمخرج من مخاوفه وضعفه ولطمانة نفسه المرتاعة مما هو عاجز عن رده أو تفسيره. وهكذا كان

الدين الوثني الذي صنعه الانسان بنفسه ثم كان الدين السماوي الذي حاول اجابة عن هذه التساؤلات المحيرة ضمن منظومة من العقائد والاحكام الدنيوية والغيبية، تحديد المآل والمصير للانسان في دنياه وآخرته.

وهكذا اتخذ الدين وجهين مترابطين في تكوينه العام:

- وجه يضم تلك العقائد والافكار والطقوس المرتبطة بعجز الانسان ومخاوفه.

- ووجه يضم منظومة من الاحكام والقواعد المدنية المرتبطة بوضع الانسان في المجتمع.

وقد تميز الدين الاسلامي عن غيره من الديانات القديمة بتناوله الاشمل لشؤون الانسان في الدنيا التي يحياها وبضمنها شؤون الحكم والسياسة والاخلاق والقيم.. وشكل تنظيم المجتمع.. الخ ومن هنا سر امتداده الى امصار بعيدة عن مركز الدعوة، كالصين، واندونيسيا، والفليبين.. وبلدان اخرى في افريقيا ومختلف القارات. ولهذا يمكن القول ان الدين الاسلامي الذي ينتمي في نشأته وجوهره الى العالم الروحي للانسان، شأن بقية الاديان، هو في الوقت نفسه، اكثرها حيوية وغنى في جانبه السياسي والاجتماعي. بل هو مايزال كذلك ديناً سياسياً فضلاً عن كونه عقيدة روحية. ولهذا ارى مثلما يرى الرفيق كريم مروة ضرورة التمييز بين الدين السياسي، والدين العقائدي (أو الروحي)، وبالتالي تجاوز التعارض الفلسفي بين المادية والمثالية في المواقف من الدين. وتلك مسألة مهمة في السياسة، والتحالفات، والمنهج.

فالدين في جانبه الروحي كان كما اسلفنا حاجة قاهرة بالنسبة للانسان، وهي حاجة ماتزال قائمة مادام هذا الانسان يحتسب المصير، ويقف عاجزاً امام المجهول... ومادام لم يستكمل هيمنته على الطبيعة.كذلك الامر بالنسبة لجوانب عديدة من الدين السياسي، حيث اتساع ظاهرة اعتناق الدين، كأيديولوجية مبسطة، أو الركون اليه كملاذ من المحنة والاخفاق والخيبة. وهي ظاهرة باتت مألوفة ومتفاقمة في عالمنا العربي.

ولذا اعتقد بان الحزب الشيوعي السوفييتي، الذي يعتمد الالحاد شرطاً للانتساب الى الحزب، سيتخلى بالنتيجة عن ذلك في سياق متابعاته العقلانية لمكونات الوعي الاجتماعي والسايكولوجي الاجتماعي، كما سيرفع من برنامجه، وبرنامج الشبيبة الشيوعية (الكوموسمول)، ما ينطوي على معارضة الدين ووقف الدعاية ضد الدين. والدافع لذلك، كما ارى، هو التبصّر الواقعي في ذلك الجانب من الدين الذي ينتمي الى العالم الروحي للانسان. وهي مسألة تخص الفرد، ولا شأن للحزب أو الدولة بها، ومن غير المجدي التصدي لها، بالدعاية والتحريض أو محاولة اقتلاعها بالشعار والموقف. كما ان الدين السياسي هو الآخر جزء من الوعي الاجتماعي، ومن مكونات العقيدة السياسية لدى

كثير من الناس. وذلك واقع لا ينبغي تجاوزه أو الاستهانة به، ولا التعامل معه من موقف متعارض، سلبي أو عدائي. وذلك ما يدعو اليه الاستاذ مروة برصانة، وبحق. وانا اتفق معه في ذلك، رغم قناعتي بموقفه وموقف الماركسية من الدين، ورغم عدم قناعتي ببعض استنتاجاته من قبيل تعريف الدين (هكذا كل دين وبوجه عام) بانه «ثورة اجتماعية»، أو بوجاهة ذلك الاطراء للثورة الاسلامية في ايران، وما نسبه اليها من فضائل ومآثر.

* * *

سأتجاوز الموضوعة الثالثة من اطروحات الرفيق كريم مروة، اختزالاً للمسافة وتركيزاً للجهد على القسم الثاني من هذه المناقشة. فالعناوين الموضوعة قيد هذه الموضوعة عديدة ومتنوعة وتتطلب وقفة طويلة متأنية، كما اني لم اصل الى معرفة العنوان الاساسي لهذه الموضوعة، أهو الحركة الثورية الجديدة والنظرية الثورية الجديدة معاً، أم البديل الثوري (في الحركة والسلطة) ام قضية الثورة التي اختزلت الى أمنية واعتبرت «اقصر الطرق»، أم قضية الديمقراطية التي جرى التطرق اليها ولكنها لم توضع تحت عنوان تستحقه.

قد يشفع لهذا ما أورده الرفيق كريم مروة من ان «الحزب الشيوعي اللبناني قد بادر منذ زمن الى طرح الديمقراطية كقضية اساسية، بما في ذلك داخل السلطة الاشتراكية، وداخل التحالف، وداخل الحزب الثوري... كما دعا الى التعددية الحزبية». ومع ذلك كله، فانا ارى ان الموضوعات الثلاث (أي القومية، والدين، والثورة) رغم اهميتها الكبرى تظل قضايا سياسية وفكرية واجتماعية تواجه الحركة والحزب، وتتطلب حقاً رؤية واقعية وبصيرة ثاقبة وموقفاً سديداً. ولكنها ليست وحدها، أو بحد ذاتها، ما يمكن ان يجسد ما هو رئيسي ومحوري في الوضع العربي، أو ان يكون مدخلاً لمعالجة جادة لمعضلات هذا الوضع.

ولذا اقترحت عنوانين مركزين وشاملين في الوقت نفسه، بديلاً عن هذه العناوين أو الموضوعات الثلاث وهي:

أولاً - الامبريالية، اسرائيل، الانظمة والقوى الرجعية - وهي المشكلة الاكبر.

ثانياً - الديمقراطية، النظام السياسي، قضايا الاقتصاد - وهي الحل الامثل.

فهذا في رأيي هو ما يواجه الامة العربية اليوم، وهو ما يصلح اطاراً لتناول المشكلات الرئيسية التي تعانيها. كما انه المدخل الواقعي والاصوب في تناول هذه المشكلات، وتحديد وسائل حلها. اما القضية القومية والدين والتراث والبديل والنظرية الخ.. فهي قضايا جوهرية تقع ضمن هذا الاطار، لا في ظلاله طبعاً.

لمعالجة ما يقع تحت هذه العناوين الكبيرة يتطلب الامر تفصيلات وبيانات وحلولاً أو مقترحات شاملة تتناسب مع معانيها ومع خطورتها. ولذا فلا مناص من الايجاز والتركيز، مع وعد بمحاولة استكمالها.

ولنبدأ على الوجه التالي:

الوضع العربي لا يتسم فقط باختلالات وانتكاسات وتراجعات، وتداعيات، بل هو يعاني من هيمنة امبريالية شاملة (Domination). ولا جدوى من التعمية على ذلك بالكلام عن «هجمة امبريالية»، أو مقايضة هذا الوضع بالحديث عن نهوض في ساحة واحدة هي نفسها عرضة للمحاصرة والمؤامرة، كالانتفاضة الفلسطينية، أو المقاومة اللبنانية. فقد استكملت هذه الهجمة اغراضها في سائر الميادين، واتخذت طابع هيمنة، عسكرية، واقتصادية، وسياسية، وثقافية ايضاً. والدليل على ذلك ما يلي باختصار:

عسكرياً: حصلت الولايات المتحدة (ومعها بريطانيا وفرنسا) على قواعد ومطارات وتسهيلات عسكرية جاوزت الثلاثين قاعدة، جوية وبرية وبحرية، محكومة باتفاقات مبرمة مع حكومات عربية «مستقلة» هي اعضاء في «حركة عدم الانحياز»، بالاضافة الى مرابطة بحرية كثيفة لاساطيل هذه الدول الثلاث وغيرها من دول حلف شمالي الاطلسي في سائر البحار المحيطة بالعالم العربي من المحيط الى الخليج.

وتلك حالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الامة العربية، حيث يجري التغاضي عن هذه الظاهرة الخطيرة التي كانت قبل عقود موضع مجابهة عنيدة ونضال مجيد، وانتفاضات وثورات وطنية، كما حصل في مصر، والعراق، وليبيا واليمن وغيرها. والمحزن في الامر ان القوى الوطنية التي تركز جهداً «مأثوراً» على العديد من المعضلات التي يواجهها العالم العربي، بل وعلى الكثير مما هو اقل اهمية، لا تكاد تبدي الاهتمام بهذه الظاهرة أو تجسدها في شعار مركزي وتعبوي، أو تطالب الانظمة الرجعية باقتلاعها.

وفي ظني ان العديد من قادة الاحزاب والحركات الوطنية والتقدمية يجهلون اسماء هذه القواعد الاجنبية، ومواقعها، والاتفاقات المبرمة بشأنها. بل لايزال الكثيرون يتحدثون عن الاستقلال والسيادة الوطنية وعن التراث والامجاد، وعن دعوة الوحدة القومية بين دول وحكومات قد يعتبرونها «مستقلة» حقاً، أو مالكة لارادتها المستقلة فعلاً.

كما تتسم مواقف هذه الاحزاب والحركات بشيء من التهاون ازاء عواقب العسكرة والتسليح في العالم العربي والترابطات ذات الطابع الهيكلي أو الاندماجي مع الستراتيجية العسكرية للامبريالية، بالاضافة الى النتائج الاقتصادية المترتبة على تلك الحجوم الهائلة من الموارد المخصصة للانفاق العسكري وشراء الاسلحة.

ويكفي ان نشير هنا الى ان اثمان الاسلحة التي تم شراؤها خلال السنوات الخمس

عشرة الماضية قد جاوز باستثناء العراق الـ ٦٠٠ مليار دولار، بضمنها نحو ٤٠٠ مليار من جانب السعودية ودول الخليج. . كما قامت على الارض العربية منشآت ومرافق ومطارات ومدن عسكرية وقواعد بحرية ومعسكرات ومحطات انذار مبكر، باشراف وادارة عشرات الالوف من الخبراء الاجانب، وبارتباط كلي مع تكنولوجيا السلاح واستخداماته في الغرب، بالاضافة الى اكبر حشد عسكري في العالم من الاساطيل والقوات الجوية التي اتخذت طابع المرابطة الدائمة في منطقة الخليج وبحر العرب والبحر الاحمر وغيرها من البحار والاجواء العربية.

وقد ترتب على ذلك الابقاء على قوى ومعدات وجيوش، لا تتناسب مع مواقف وتوجهات الانظمة الرجعية العربية، بحيث بلغ عدد الموجودين تحت السلاح في العالم العربي اكثر من ٥ ملايين شخص، وعشرات الالوف من المعدات والآلات، من بينها ٢٥ ألف دبابة و٤ آلاف طائرة، باستثناء العراق ايضاً. والغريب في الامر ان يستمر هذا الاتجاه ويتفاقم دون أي رادع وعلى الرغم من هبوط الموارد المخصصة للتنمية والبناء الاقتصادي، وتصاعد حجم الديون الخارجية الى ما يزيد على ١٠٠ مليار دولار، ما عدا العراق، وهبوط الانتاج والانتاجية وظاهرة الفقر المشتدة في معظم البلدان العربية، كما ان من الغرائب التي يرتكبها بعض العرب هو ان الدول الكبرى المنتجة للسلاح تدعو لنزع السلاح من اجل التنمية، في حين يتابع هذا الفريق من العرب شراء السلاح على حساب التنمية!

اما بالنسبة لاسرائيل فلم تعد كما هو معروف ذلك المخفر الامامي للامبريالية، أو ذلك التابع للامبريالية الامريكية، بل دخلت في تكامل عسكري وسياسي واقتصادي مع الولايات المتحدة الامريكية متجاوزاً في هذا النوع من التكامل الستراتيجي جميع حلفاء الولايات المتحدة في حلف شمالي الاطلسي.

ويكفي دليلاً على ذلك تلك الاتفاقات العسكرية للتحالف الستراتيجي، واشراك اسرائيل في برنامج حرب النجوم والتكامل في الصناعة العسكرية المتطورة، واتفاقية التجارة الحرة والتعاون الامني. . الخ.

ولئن كان تشخيص الخطر من جانب الاحزاب والحركات التقدمية ماثلاً دوماً، إلا ان التعامل معه غالباً ما يتم بالكلمة المبسطة، والشعار التحريضي، والاسلوب الاعلامي، وبالتضليل احياناً تستراً على مشروع مصالحه شاملة مع اسرائيل، **يجري تنفيذه حالياً** وباندفاع يتجاوز اتفاقية كمب ديفيد، **أو الاتفاقيات المنفردة - وذلك ما نبهنا اليه قبل** خمس سنوات، **في مداخلة موثقة قدمت الى** اجتماع الاحزاب **الشيوعية في البلدان** العربية التي اردنا فيها ايضاً **حقيقة ان جبهة** الصمود والتصدي **لا تملك امكانية الثبات**

والتطور وان سوريا ستبقى محاصرة لارغامها على الانخراط في طريق التسوية مع اسرائيل.

تلك هي ايجاز شديد بعض الملامح والتجليات المرتبطة بأشكال الهيمنة العسكرية للامبريالية، ودور اسرائيل والانظمة الرجعية في تحقيقها وتركيزها على الارض العربية.

اما ما يرتبط بأشكال الهيمنة السياسية، فهي مرئية، ولا تحتاج الى بينات وبراهين. فالانظمة الرجعية التي اباحت للامبريالية الاراضي والمطارات والموانىء والشواطىء والاجواء العربية، قد طورت اساليبها الاستبدادية والقمعية والتضليلية لتصرف اذهان الجماهير عن هذا الضرب من الهيمنة العسكرية، والتوسع في التسلح والتكامل العسكري كما اختارت الاستسلام امام متطلبات النهج الامبريالي في المنطقة على جميع الميادين؟ وبذلك دخلت في تعاقد سياسي اتخذ طابع تبعية تامة ومطلقة، كما تجاوزت ذلك الى نوع من الترابط البنيوي والتكامل في المواقف السياسية حتى خارج المنطقة العربية كما هو الحال في الموقف من افغانستان. وقد انعكس هذا التكامل، كما رأينا، في مواقف الغرب ازاء هذه الانظمة ابان الحرب العراقية ـ الايرانية والدفاع عنها بكل الوسائل. وما تلك المرابطة البحرية الهائلة للولايات المتحدة وسائر بلدان حلف الاطلسي في منطقة الخليج إلا لدرء الخطر الايراني عن الانظمة في هذه المنطقة، وعن مصالحها طبعاً، لا لتأمين حرية مرور الناقلات فحسب. . . وما بقاؤها حتى الآن إلا لتأمين هذه الانظمة ضد تهديدات العراق ايضاً.

اما ما يتعلق بظاهرة الهيمنة الاقتصادية، فالحديث عنها طويل بالضرورة ولكن لا مكان للتوسع فيه في هذا المجال.

ومع ذلك نعود فنذكّر برقم اوردناه في مستهل هذه المقالة حول المجموع الاجمالي لتخصيصات خطط التنمية والبناء في العالم العربي والتي جاوزت الـ ٦٥٠ مليار دولار خلال السنوات المنصرمة. ولكن ما هو جدير بالتوقف هنا هو ان حجم التعامل التجاري والاقتصادي مع العالم الرأسمالي، سواء ما تعلق منه بمشاريع التنمية أو الاستيراد والتبادل، يتجاوز ما معدله ٨٢٪. كما انه بالنسبة للعديد من دول الخليج والمغرب العربي اكثر من ٩٠٪ أما ما يتعلق بالموارد الفائضة من عائدات النفط فقد بلغت في نهاية عام ١٩٨٣، ٣٢١ مليار دولار، ورغم انها انخفضت اليوم الى النصف تقريباً إلا انها كانت وماتزال مستثمرة في المراكز والدوائر الرأسمالية.

وقد بلغت نسبة استثمار هذه الاموال ٧٠٪ في الولايات المتحدة والبلدان الرأسمالية الاخرى بينما لم تتجاوز ١.٦٪ في البلدان النامية التي كان نصيب البلدان العربية فيها لا يكاد يذكر.

وكبينة على هذا الترابط نشير الى نحو ٤٠٠ مليار من فائض الايرادات البترولية قد وجه مباشرة الى بناء مشاريع اقتصادية وخدمية وانشائية . . . في اطار تعاقدات مباشرة مع الشركات متعددة الجنسية ، وذلك بين اعوام ١٩٧٦ ـ ١٩٨٣ . واذا ما اخذنا بالحسبان ان الغالبية الساحقة من هذه المشاريع في بلدان النفط وغيرها من البلدان العربية هي على ارتباط شامل بالجهة أو الشركة الرأسمالية المنفذة (سواء بالحلقات التكنولوجية ، أو مستلزمات الانتاج ، أو بالسلعة الوسيطة أو المكملة ، بل حتى في الادارة اللاحقة احياناً) لامكننا القول دون أي تحرج بان هذه الترابطات لم تعد تقتصر على سمة التبعية الاعتيادية بل اصبحت ذات طابع بنيوي (Structural) ، وحتى تكاملي احياناً (inregral). وبكلمة اخرى ، فان طابع الهيمنة الاقتصادية والمالية ، والتجارية ، بل وحتى طابع الانتاج والاستثمار المتبادل ودورة رأس المال ، هو في حالة اندماج بمثيله في المراكز الرأسمالية ، وان مجمل العلاقات في كل هذه الميادين هي من الطابع نفسه . أي ان الاقتصاد العربي هو اجمالاً وفي جوهره وواقعه ، جزء عضوي من البنية الرأسمالية ومن الاقتصاد الرأسمالي العالمي . وبالتالي فلا مجال للحديث بواقعية عن التكامل الاقتصادي العربي ، أو السوق العربية الواحدة . . فقد بنيت على الارض مشاريع بمئات المليارات من الدولارات وتكونت بنى اقتصادية ، ومالية ، وتجارية ، وانظمة وآليات انتاج وتبادل . . مرتبطة بها ، ولا فكاك منها إلا بتقويضها ونسفها (!) ولهذا ، فسيتوجب التوقف بواقعية لدى الشعار الداعي الى تفكيك الروابط الاقتصادية مع السوق الرأسمالي العالمي . . وتحقيق «الاستقلال الاقتصادي» . . . والتوسع في الاعتماد على السوق الاشتراكي . . الخ كما ينبغي التوقف ملياً لدى شعار «الاكتفاء الذاتي» ، اذ تقول الارقام بان الاختلال في الموازين التجارية ، وموازين المدفوعات للدول غير النفطية فاحشة الى اقصى حد ، أي ان حجم المستورد من السع هو بمعدل عشرة اضعاف عن حجم الصادرات ، واحياناً ١٥ ـ ٢٠ ضعفاً . وقد ترتب على ذلك تصاعد حجم الديون الاجنبية ، وسقوط سعر الصرف لعملات معظم الدول العربية غير المنتجة والمصدرة للنفط ، وتآكل الاحتياطي النقدي لهذه الاخيرة بالاضافة الى تصاعد وتأثر التضخم والغلاء وتوقف الكثير من المنشآت المرتبطة بالمراكز الرأسمالية . ولم يقف الامرعند هذا الحد بل تعداه الى تصاعد نسب الاستيراد من المحاصيل الزراعية ، والسلع الغذائية والمواد الاولية أو الوسيطة في الصناعة ، بسبب تدهور الانتاج في القطاع الزراعي والحيواني . فقد بلغت قيمة ما استوردته البلدان العربية من المحاصيل الزراعية ، والزيوت واللحوم وغيرها من السلع الغذائية ، نحو ١٩ مليار دولار خلال هذا العام .

واذا ما اخذنا بالاعتبار تدني حجم التعامل الاقتصادي والتبادل التجاري بين الاقطار

العربية الى الحضيض بحيث لم يصل في افضل حداً له الى ٧٪ في وقت سابق ولم يعد يتجاوز ٤٪ حالياً، وهو، كما ذكرنا، في حدود الصفر بين العديد من البلدان العربية، واذا ما وضعنا هذه الصورة الكئيبة امام الصورة المثيرة لحجم تعاملها مع الغرب (جميعاً وبدون استثناء) لتوصلنا الى حالة من اليقين حول تعذر البت بمصداقية وواقعية بعض الدعوات والشعارات الآخاذة، وضرورة مراجعتها على ضوء الواقع، وبالتالي محاولة املائها بما يمكن من مضامين وطنية وتوجهات اقتصادية رشيدة.

كما اننا لو اخذنا في الحسبان كل هذه الحقائق، بالارتباط مع مظاهر التفاوت المشتدة في الموارد والثروات والسكان بين البلدان العربية الثرية والمعوزة، لتوصلنا الى النتيجة نفسها.

ولما كان المجال لا يتسع هنا للارقام والبينات فيكفي ان نذكر رقماً واحداً. فمن بين عشرين بلداً عربياً هناك عشرة بلدان لا يتجاوز متوسط الدخل القومي السنوي للفرد فيها الف دولار سنوياً، بينما هو ١٨ ألف دولار في عشرة بلدان اخرى، مع فرق كبير جداً في عدد السكان. وقد يكون من المثير ان نذكر مثلاً ان متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي سنوياً في الامارات العربية يزيد عن ٥٥ ألف دولار، وسكانها اقل من مليون، بينما هو لا يتجاوز ٦٠٠ دولار في مصر التي يبلغ عدد سكانها نحو ٥٠ مليون.

وبعد، فما عاد ممكناً التحدث بسلاسة عن الاستقلال الاقتصادي، والتنمية المستقلة، في ظل الهيمنة الاقتصادية للامبريالية، ولا عاد ممكناً الحديث عن «وطنية» أو «قومية» الطبقات الرأسمالية الجديدة المرتبطة مباشرة أو بالتداخل والواسطة، مع الرأسمالية العالمية، أو بعملية التعامل مع الرأسمال العالمي، لم يعد ممكناً ايضاً التحدث من منطلق الحلم والامنية عن الوحدة العربية الشاملة، والدولة العربية الواحدة، أو حتى تحرير الثروات القومية المرتبطة بآلية الترابطات الاقتصادية العالمية، كما لم يعد ممكناً الحديث عن العالم النامي أو «البلدان النامية» أو حتى «العالم الثالث» المرهق بالفقر، والمثقل بحجوم هائلة من الديون للمؤسسات والمصارف والحكومات الرأسمالية، اضافة الى تلك الترابطات من التبعية المشتدة لسائر المراكز الاقتصادية والمالية في العالم الرأسمالي.

ومثل هذا ينطبق على مفهوم «البلدان المستقلة حديثاً»، التي عادت كما نرى، الى دائرة النهب والعبودية على يد الاستعمار «المتحضر الحديث» بصورة اكثر ضراوة مما كانت عليه في ظل الاستعمار القديم.

واذا ما تابعنا ذلك الفعل البالغ التأثير لتطورات الاقتصاد العالمي، وثورة التكنولوجيا، وعمليات التغيير الجذرية والعاصفة التي تجتاح العالم.. لارتسمت في

اذهاننا تساؤلات كبرى كثيرة ومنها مثلاً:

ـ هل حقاً ان السمة الرئيسية للعصر الذي نعيشه هو «عصر النضال بين نظامين اجتماعيين متناقضين.. عصر الثورات الاشتراكية.. عصر انهيار الامبريالية والقضاء على النظام الاستعماري.. عصر انتقال شعوب جديدة وجديدة الى دروب الاشتراكية والشيوعية على النطاق العالمي»؟

سنرى فيما اذا كان الحزب الشيوعي السوفييتي سيستبقي على هذه الموضوعة في برنامجه؟!

وسؤال آخر:

ـ هل ثمة افق موضوعي لاستمرار أو تطور «حركة عدم الانحياز»؟

في هذا الضوء احيل القارىء الى بحث في طبيعة وآفاق هذه الحركة، نشر في اعقاب احد مؤتمرات القمة لهذه الحركة الذي اشتركت فيه عام ١٩٧٦. وفي هذا البحث فندت العديد من الاحلام السياسية، والمشاريع الاقتصادية، بما فيها المشروع العراقي حول اقامة اتحادات اقتصادية نوعية (على غرار الاربك) ومشروعاً لاحدى الدول الآسيوية لاقامة اتحادات مالية ومصرفية على نطاق عالم عدم الانحياز بأسره!

وبعد، فان تلك التساؤلات المتعلقة بالوضع العربي، تبقى حيوية وملحة، اذ هي ترتبط بمظاهر الهيمنة الامبريالية الشاملة، ودور اسرائيل فيها، وموقع الانظمة منها، واندماج الطبقات الرأسمالية الجديدة في حوارها. وذلك هو، في رأيي، هدف الرماية الاوحد، والمدخل الرئيسي لرؤية الواقع بكل مكوناته وتجلياته المثيرة.

أما الحل والهدف، أو البديل، فهو:

١ ـ الديمقراطية: وهي كلمة كبيرة بحق. اذ تعني:

● الديمقراطية، كحريات، وحقوق، ومؤسسات.

● وتعني الديمقراطية السياسية، والديمقراطية الاجتماعية.

● كما تعني الديمقراطي في المجتمع، والدولة، والحزب.. فضلاً عن الكثير مما يرتبط بها أو يقع في اطارها ـ كالتعددية السياسية والحزبية، وحقوق وواجبات الفرد، والقيم الانسانية، والمساواة، والعدالة والسلام.. على نطاق المجتمع المعين وفي العلاقات الدولية.

٢ ـ النظام السياسي: وهو الآخر مسألة كبيرة، ويعني ذلك:

● ان يكون هذا النظام ديمقراطياً تحررياً، ومن صنع الشعب.

● وان يكون هكذا:

ـ بمؤسساته، ودستوره، وقوانينه، واحزابه.. وسائر تكويناته السياسية والاجتماعية

والثقافية . .

ـ وكـذلـك باشكال علاقته بالجماهير، وتوجهاته الشعبية، وسياسته الخارجية . . وبكامل نهجه المجسد لارادة الشعب والامة .

٣ ـ الاقتصاد : وهو موضوعة كبرى، والمقصود هنا :

● تقويمه وترشيده من سائر جوانبه ـ انتاجاً، وتبادلاً، وادارة، وتخطيطاً، وتجارة، وسياسة . . . الخ ـ

وذلـك على ضوء الـواقع ومستجدات التطور في آليات بين الاقتصاد والعلاقات الاقتصادية الدولية .

● مع تركيـز السعي لتوجيهه وجهة تحررية، ولاخراجه، قدر الامكان، من دائرة التبعية، ووضعه في خدمة الشعب .

● اقامة مشاريع عربية مشتركة . .

لا حلّ يمكن ان يتحقق خارج هذه الاطر والمدارات . فلقد تعاظم، مثلاً، الدور المقرر للاقتصاد (فضلاً عن الديمقراطية) في حياة سائر الشعوب . واستحدث حالة من التبعية المتبادلة على نطاق العالم بأسره . وتلك حالة ادخلت تعديلات عميقة على مضامين ومعاني الكثير من الموضوعات والظاهرات . واقترنت بمراجعة وتعديل الكثير من الصيغ والاحكـام والاصـطلاحات . وسنرى ان ذلك سيمتد، بالضرورة، الى كل من مفهومي (الامبريالية) و(حركة التحرر الوطني) . واخيراً .

فذلكم محوران لعناوين بديلة، يمكن ان تستكمل وتغنى بمعالجات واجتهادات حول مسـائـل جوهـريـة اخـرى ـ كالقـوميـة، والدين، والوعي، والتراث، والحزب، والحركة، والثورة، والنظرية، والطبقة العاملة والبرجوازية . . وما اليها من مشاكل ومعضلات .

ونظراً لاهمية وسعة العناوين الكبرى الثلاثة (أي الديمقراطية، والنظام السياسي، والاقتصـاد، ومـا ينـدرج تحتها من موضوعات جوهرية وعملية، سأرجيء البحث فيها لفرصة لم تتوفر لي حالياً .

ولذا فسأتوقف هنا، لدى وعد باستكمالِ هذه المناقشة مع الصديق العزيز كريم مروة .

وعودة الى ما انقطع !

عن الزميلة النداء البيروتية



حياة وموت حركة التحرر الوطني

عصام الخفاجي

لا يمكن اختبار حيوية الاجسام العضوية في ظروف المختبرات أو الحاضنات الاصطناعية. هذا ما نتعلمه من اوليات علم الاحياء. يدخل الكائن العضوي (حيواناً كان أم نباتاً. الى بيئته الواقعية فيتعرض لمؤثراتها، فتتفسخ الاجسام غير الصالحة وترد الاجسام الحية باطلاق عناصر مضادة تقوّيها وتكسبها المناعة حتى تتفاعل مع بيئتها تتأثر بها وتؤثر فيها.

ويبدو ان ما يصح على الاجسام العضوية، يصح كذلك على الحركات والافكار الاجتماعية، والفكرة الماركسية والاشتراكية هي في موضع الامتحان هذه الايام، للتعرف على قابليتها للحياة والازدهار. هي في موضع امتحان من جانب أوساط متزايدة من الماركسيين زايلتها سعادة الايمان بان الازمة تكمن في معسكر الخصم فقط، أو ان التحولات المتسارعة وانهدام بنى كاملة كانت تعد مرادفة للاشتراكية حتى الامس القريب ليست غير هزة عارضة، شبيهة بما حصل عام ١٩٥٦ مثلاً، سرعان ما تعود الامور بعدها الى مجاريها.

ليس غريباً ان يبادر قائد شيوعي لبناني الى طرح جملة الاسئلة التي تبدو له، ولنا، في صلب ما نحن بحاجة الى اجابة عليه، فقد عوّدنا الشيوعيون اللبنانيون على الجرأة في الاجتهاد، وكانوا يحثوننا دائماً على مراجعة كثير من الفرضيات التي تداولناها كمسلمات.

فالجهد الجماعي للحزب نفسه في طرح موضوع الازمة منذ عقدين على الاقل ونشاطات مهدي وحسين مروة امثلة لامعة على هذا الاجتهاد.

في سلسلة المقالات التي كتبها الرفيق كريم مروة قبل بضعة اشهر (السفير ٣ ـ ١٩٨٩/٧/٥) تتزاحم الاسئلة عن المسألة القومية، والدين والتراث والحركة الثورية المطلوبة. اسئلة تتضمن في احيان كثيرة عناصر الاجابة عليها، لكن الكاتب يفضّل ابقاءها مفتوحة تحريضاً للنقاش. وهي موجهة. الى الماركسيين بدرجة رئيسية، كما يمكن استشفافه من ثنايا المقالات، لكن الدعوة تخاطب الماركسيين والقوميين والاسلاميين. والامر المهم في كل هذا، ان الرفيق مروة يعرض القضايا الرئيسة للماركسيين على هواء الواقع الحي، لتتبين قابلية المنهج للحياة والتطور، دون خشية «على نقاوة الماركسية ـ اللينينية من تأثيرات الافكار الغريبة والمعادية».

* * *

ليست الاسئلة المثارة في مقالات كريم مروة مجاراة لموضة رائجة اطلقتها البريسترويكا، ربما شجعت الاخيرة على صياغة الاسئلة بوضوح وصراحة اكبر، لكنها اثيرت في مجملها عند الحديث عن ازمة حركة التحرر الوطني العربية والنقاش الذي دار حولها. يقول كريم مروه «غير ان كل هذه النقاشات، وكل الابحاث والدراسات التي جرت في اطارها، وما رافقها من نضالات ومعارك، لم تقدم ما هو مطلوب من اجابة ومن حلول من اجل اخراج حركة التحرر الوطني العربية من ازمتها، ولم تقدم صياغة جديدة لبرنامج هذه الحركة وفكرها تؤهلها لقيادة الجماهير في النضال لانجاز مهمات التحرير والتغيير في اقطارنا العربية... فهل نحن حقاً امام حالة استعصاء، امام مأزق لا مخرج منه؟».

المطلوب متضمن في النقد. صياغة جديدة لبرنامج حركة التحرر الوطني وفكرها، لقيادة الجماهير. لكن اسئلة الرفيق التي تحرضنا على اخضاع المسلمات للفحص، لا تدع لنا مجالاً للتساؤل عن ماهية هذه الحركة المأزومة، ما هي؟ وما هي مهمات التحرير والتغيير؟ تحرير من وممن وتغيير باتجاه ماذا؟

ومهمة الصفحات التالية ليست السجال مع الافكار التي طرحها الرفيق مروه، بل محاولة تحديد جانب من القضايا الكثيرة التي طرحها، يتعلق بمهمات «الحركة الثورية» المنشود قيامها، والعلاقة بين القوى التي يفترض ان تكون وعاء هذه الحركة، أو بين بعضها ان اردنا الدقة. هل سيفرض الواقع وحركته اساساً لعلاقة موضوعية، ام اننا نريد ان تكون ثمة علاقة للوصول الى حركة ثورية؟

في المنهج الماركسي ثمة موقع للظاهرة القومية وآخر للظاهرة الدينية. يمكن القول

ان هذا الموقع غير محدّد بصورة كافية، وان الدوغماتية بسّطت الظاهرتين الى درجة كاريكاتيرية. اكثر من هذا قد يقال ان ليس ثمة نظرية ماركسية للقومية أو الدين حتى اليوم. ومع هذا فليس في المنهج الماركسي، كمنهج مادي ديالكتيكي، ما يمنع تبلور نظرية كهذه.

انما لا يمكن قول الشيء ذاته عندما ننتقل الى التفسير الديني أو القومي للتاريخ، هذا اذا سلمنا بان مفهوم التاريخ نفسه قائم في المدرستين. اذ لا نجد موقعاً للظاهرة الطبقية، لانقسام حتمي ضروري في المجتمعات على اساس طبقي. لا اقصد بذلك المفهوم الذي يرى وجود «المظلومين» أو «الفقراء» كانحراف عن جوهر اسمه «العدالة» يمكن ان يوجد في أي زمان ومكان، لكن ذاتاً معينة، الهية أو بشرية أوحت بهذا الانحراف لاسباب خيّرة أو شريرة.

وفي هذا الاختلاف النوعي بين الماركسية والمدرستين الاخريين يكمن ما يسميه البعض الطابع الشمولي للفكرة الماركسية. ولا اظن ان من مصلحة التحالف المنشود لقيام الحركة الثورية الجديدة اغماض العين عن هذا الفارق النوعي، اذ من دون اعتراف بالتمايز لا يستقيم مسعى التحالف، الذي هو بالتعريف التقاء بين مختلفين.

متى التقت هذه التيارات في تاريخنا العربي المعاصر، وعلى اية اسس؟ ان لم نسعَ الى ثلم الزوايا الحادة لمصلحة براغماتية سياسية (وهي كما تدل التجارب تقود الى نتائج كارثية ان لم تقم على أسس نظرية معللة) فلابد من القول ان التيار الديني لم يلتق مع الماركسيين لاسباب، ازعم انها، لا تتعلق قط بالالحاد والايمان ولا بحداثة دخول التيار الديني الى الساحة السياسية، كقوة معارضة. أما المدرسة القومية التي طبعت العالم العربي بطابعها طوال العقود الثلاثة الاخيرة فثمة لقاءات مديدة بينها وبين الماركسيين، علينا تحري اسسها ومآلها، لانها تعطينا مفتاح فهم الاساس الذي تكونت منه «حركة التحرر الوطني العربية».

نشأ اللقاء الموضوعي بين التيارين، من دون ان يضطر احد منهما الى التخلي عن طريقته في فهم الظواهر، حين كانت الهيمنة الامبريالية بشكلها السياسي المباشر قائمة. لا اقصد بالهيمنة بشكلها المباشر افتقاد البلد لاستقلاله السياسي بالضرورة، بل وجود مظهر بارز من مظاهر التحكم الاجنبي المباشر بثرواته أو اراضيه. وعليه كان يكفي الماركسي تحديد الحلقة المركزية في نضاله بالتخلص من السيطرة الامبريالية ليلتقي معه القومي الذي يرى جوهر البلاء في «الاجنبي» الذي يعيق امتلاك «الشعب» لمقدراته. ان اردنا استخدام مفردات ماركسية لوصف اساس اللقاء، سنقول ان المدرستين لهما مصلحة في انجاز مهمات ثورة برجوازية، يتفقان على ضرورة تحقيقها ولا يتفقان على مهمات ما بعد تحقيقها لاسباب طبيعية، لان المهمات التي تحققت مع انتصار هذه الثورات هي

نهاية التاريخ للطبقة التي صارت حاكمة.

لنلاحظ ان هذا لا يعني ان المسألة القومية وجدت حلها، ولا انتهاء الهيمنة الامبريالية، لكن شكل الهيمنة الامبريالية بات مختلفاً نوعياً ولا يمكن تخفيفه، ناهيك عن القضاء عليه، بقرارات أو قوانين تؤمم أو تصادر أو تطرد وجوداً مباشراً. فالاستغلال يقوم على اساس شبكة علاقات انتاج، علاقات اجتماعية. ولهذا فما ان تنتهي مهمات مواجهة الاشكال قبل الرأسمالية (الاقطاع) والمواجهة المباشرة مع الاجنبي حتى تنحل الرابطة الموضوعية بين التيارين، ما لم توجد عوامل عرضية كبروز خطر خارجي يهدد المجتمع ككل.

قبل التسرّع في تقديم استنتاجات حول معنى انحلال الرابطة الموضوعية، علينا متابعة مضامين اللقاء اصلاً، منعاً لاي تفسير أو التباس ارادوي. لاسيما وقد سادت في منطقتنا مفاهيم من نوع استفادة الماركسيين من صعود الموجة القومية وتظاهرهم باللقاء مع القوميين لاستخدام اللقاء لتحقيق «مآربهم»، أو «سرقة» القوميين للشعارات الماركسية لكي يسحبوا البساط من تحت اقدام الماركسيين.

يبدو لي ان هذا العنصر قد يصح عرضياً، لكنه لا يفسر جوهر الحركة التاريخية للقاء. ففي مرحلة انحلال التشكيلة قبل الرأسمالية يتخذ الوعي السائد لجوهر الازمة، ازمة التشكيلة القائمة، وسبل تجاوزها شكلاً يبدو معه بناء الدولة الوطنية الممركزة والقضاء على كل اساس مادي لتفتيتها، كسلطة شيوخ العشائر والطوائف والمذاهب والاقطاعيين، باعتباره القاسم المشترك الموحِّد لجميع الطبقات الصاعدة، برجوازيي المجتمع القادم وشغيلته. ومن المؤكد ان هذا الوعي السائد يوحِّد الماركسيين والقوميين لكنه يرسي اسس اختلافهما القادم ولا يطمسها قط. فبتأكيد الماركسيين على الآلية الداخلية التي تولد اساس التبعية، على وجود طبقات محلية تنشأ موضوعياً وتديم العلاقة مع الامبريالية لان لها مصلحة في ذلك، وبتأكيدهم على حق الشغيلة في الصراع مستقبلاً من اجل لجم الطبقات الصاعدة، يؤكدون على افتراق برنامجين لما بعد التحرر الوطني، وقد سار مجرى التاريخ في منطقتنا العربية في الغالب باتجاه انتصار البرنامج القومي وانفراده بالسلطة، فماذا كانت النتيجة؟

يتفق معظم الماركسيين اليوم، واليوم فقط لسوء اللحظ، على ان الحصيلة تتمثل سياسياً، بنشوء السلطات المغالية في الحاق المجتمع المدني بها، سلطات توحد بين مصالحها وبين الوطن لدرجة تجعل المعارضة متعذرة اصلاً (متعذرة بالتعريف بمعنى جعل المعارض للسلطة على حافة الاتهام بالخيانة الوطنية). واقتصادياً، كانت الحصيلة رسمَلة المجتمع بأشكال توصف بانها سيادة اجنحة «بيروقراطية» أو «طفيلية» من البرجوازية. لا

اريد التعليق هنـا على الاوصـاف الملحقـة بالبرجوازية السائدة، لان هذا يتطلب اطاراً اوسع، لكن ما ينبغي ابرازه هنا، ان حصيلة سيادة المشروع القومي في المنطقة العربية، انطوت على سيادة الرأسمالية. ولنترك الامر للتاريخ لكي يحسم نقاشاً يرى احد اطرافه ان المشروع ليس مشروعاً برجوازياً بحد ذاته، بل ان جملة عوامل تدخلت لجعل الرأسمالية تسيطر، ويرى الطرف الآخر ان المشروع هو مشروع البرجوازية الصاعدة آنذاك.

إلام يقود ما سبق؟ فيما يتعلق بالقضايا التي اثارها الرفيق مروه، علينا ان نتساءل عن المكوّن القومي للحركة الثورية المنشودة. ما هو؟ ماذا يريد؟ ثمة تيار قومي سلخه مجرى التطور عن موقع السلطة، لايزال اميناً لقناعاته لانه لا يرى فيما حصل سوى «ارتداد» أو «انحراف» عن جوهر «صحيح» لولا الارتداد أو الانحراف لما حصل ما حصل. ليس مهماً اقناعه بخطأ أو صواب هذا الرأي. فثمة ماركسيون في قطاعات مؤثرة في هذه البلدان على الاقـل لايزالون يتعلقون، بهذا القدر أو ذاك، باسطورة الناصرية التي كانت سائرة الى الامام لولا...، أو غيرها من الاساطير في بلدان اخرى. فلولا جريان اموال النفط في العراق، كما ترى بعض وجهات النظر، لما انقلب النظام على توجهاته يوم كان صاعداً. وبالطبع يمكن ان نعثر على «لولا» لكل بلد مادامت الطبقات والمجتمعات لا تتطور في شروط مختبرية.

يساعد على رؤية التطور السابق بوصفه صحيحاً في الجوهر «لولا» هذا الانحراف أو ذاك الظرفُ التاريخي الذي جرى به. وهذا يستدعي توضيحاً.

«لا تطرح البشرية إلا مهمات تكون قادرة على حلها»، كما يقول ماركس؛ بمعنى ان تفتح شروط التطور البرجوازي طبع وعي طرفي التناقض بطابعها وليس فقط الطرف الذي سيصبح البرجوازية السائدة. من الناحية النظرية، كان الماركسيون سيقودون تحولاً ذا طابع ديمقراطي غير اشتراكي لو استولوا هم على مقاليد قيادة السلطة اثر معركة التحرر الوطني. ونعرف نقدّ الماركسيين للمدرسة القومية في قيادتها للسلطة اثر التحرر يكتسب قوته وضعفه هنـا. قوته في طرحه ضرورة التعددية باعتبارها ملازمة لما تعارفنا على تسميته بـ «الثورة الـوطنية لـديمقـراطية» وفي تأكيده على ضرورة الاعتمـاد على الشغيلة واطلاق طاقات الجماهير، وغير ذلك من الاجراءات الراديكالية. لكن نقطة الضعف التي كادت ان تكون قاتلة هي ان النماذج «الماركسية» في بلدان اخرى كانت تمر بالمرحلة ذاتها، تقريباً، لم تشذ عن هذا الشكـل السياسي للحكم في الجوهر، الحزب الواحد، الحاق المجتمع المـدني بالـدولـة، تهميش المعارضة أو الغائها، تزييف الارادة الشعبية برغم الحديث المتكرر عن سلطة الطبقة العاملة.

باختصار شديد، لم ير الماركسيون في التطور الذي حصل سوى جانبه التقدمي، وظل هذا يطبع الوعي السائد لفترة طويلة حتى جرت العمليات التي اسميناها «ارتداد». ومن الطبيعي ان تشوّر البرجوازية جوانب هائلة في المجتمع. ولكن عند الحديث عن المأزق، والازمة والركود وغير ذلك من الاوصاف التي نستعملها لوصف الواقع العربي السائد، من المذهل ان الغالبية الساحقة لا تحمِّل البرنامج الذي قاد وتزعّم المنطقة مسؤولية الانحطاط، في حين نتحدث جميعاً عن الدور الحاسم للطبقة المسيطرة وسلطة دولتها في توجيه المجتمعات حيثما كانت.

ماذا يترتب على هذا من جديد؟ اذا كان على الماركسيين ان يقوموا بنقد ذاتي جريء وشجاع لعناصر رئيسة في برامجهم السابقة، فيما يتعلق بتحليلهم لطابع التطور الاجتماعي - الأقتصادي وبالتالي موقع الديمقراطية، والقضية القومية في برنامجهم، فان الاجنحة التي ظلت ترى فيما حصل انحرافاً عن مشروع قومي صحيح في جوهره، عليها ان تبرهن لانفسها وللجماهير ان ثمة آلية موضوعية مستقلة عن اخلاقيات هذا الزعيم أو ذاك، أو هذا الجهاز أو ذاك، تسمح لهذا المشروع بان يقود سياسياً ويضمن ان يبقى ديمقراطياً، موجهاً نحو شعارات ومثل التقدم الاجتماعي والعدالة. فليست المجتمعات والشعوب فئران تجارب لكي تساق كل يوم نحو مذبح يعدها بالخلاص. وبرغم كل الحملة الدعائية على «دكتاتورية الشيوعيين»، فلابد من الاقرار بان شعوبنا العربية لم تجرب هذه «الدكتاتورية» حتى الآن، لكنها جرّبت العيش في ظل من وعدوها ببديل عن دكتاتورية الشيوعيين، وها ان النتيجة تكشف عن ان مستبداً مثل تشاوتشسكو يمكن ان يظهر مسيحاً بالمقارنة مع بعض هؤلاء*.

من منطلق عدم اغماض العين عن الممارسات القمعية التي صاحبت تجارب الماركسيين في الحكم في انحاء العالم لابد من الاقرار بحقيقة كانت موضع اعتراف الباحثين الغربيين انفسهم حتى اوائل السبعينات، على الاقل. هذه الحقيقة تفيد بان التجارب الاشتراكية حققت انجازات اقتصادية باهرة على حساب حرية الفرد، وكان النقاش يدور حول اولوية الحرية على النمو المعجّل. لكن المأساوي في تجارب العقود الثلاثة الاخيرة في بلداننا (ونحن لا ننكر الانجازات التي تحققت) هي ان الاستبداد المستشري كالسرطان، والدول القائمة على الارهاب لم تنجز شيئاً كهذا على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. ويكفي ان نقارن بين بلداننا واحد بلدان اوربا الشرقية (التي لا نتبناها كمثال هنا بالطبع) التي كانت في مستوى مقارب لبلداننا اثر الحرب العالمية الثانية، ونرى الفجوة التي تفصلنا اقتصادياً وحضارياً برغم الموارد الهائلة التي نتفوق بها على تلك البلدان.

ولكن، لابد من التساؤل هنا، ما حاجتنا الى تحليل تجربة الماضي، اذا لم نكن قد حددنا بعد ماهية الحلقة المركزية في مهمات اليوم؟

سأطرح هنا وجهة نظر شخصية، من دون ادعاء بتقديم برهان متكامل ضمن هذا الاطار المحدّد. ان الحديث السائد، حتى في اوساط الماركسيين عن طفيلية وتبعية البرجوازية في المنطقة يعكس ظاهرة في غاية الاهمية، هي ان مجتمعاتنا لاتزال تجد الاطار البرجوازي للتطور غير مستنفذ الامكانات بعد.

فحين ينصب الحقد الشعبي، وحقد طلائع سياسية على المظهر الذي يتخذه التطور الرأسمالي في بلداننا، من دون ان يتبلور شكل جنيني ارقى للعلاقات السائدة في المجتمع، يكون من العبث القاء اللوم على «انحراف» لدى هذه الجهة أو تلك. انه يدل على وجود احساس، أو قناعة، بان ثمة شكلاً آخر للتطور البرجوازي يمكن ان يقود المجتمع في طريق «سليم». ونعرف ان لينين ومن قبله ماركس كانا يؤكدان على ان الانقلاب في التشكيلات الاجتماعية لا يحدث لمجرد ان طلائع سياسية تدرك ان نظاماً ما محكوم عليه بالزوال تاريخياً، وإلا لقامت الاشتراكية قبل قرون عدة حين بدأ المفكرون يتحدثون عن ضرورة العدالة والقضاء على الظلم والمساواة بين البشر.

وليس فيما سبق قوله ما يدعو الى الاستغراب؛ فلم تنغرس الرأسمالية كنمط سائد في بلداننا إلا قبل عقود قليلة، واغامر بالقول ان البرجوازية لم تهيمن كطبقة إلا الآن. وعلينا التعامل مع هذا الواقع من منظار كون الماركسيين تيار اقصى المعارضة اليسارية الذي سيواجه مهمة شاقة قد تمتد عقوداً في خوض نضالات فكرية (على جبهته الداخلية وعلى مستوى المجتمع) واقتصادية وسياسية حتى يمهد الطريق لبديل جماعي اشتراكي على اساس ديمقراطي.

وخلال هذا الوقت نحن امام ما يلي: ان طفيلية البرجوازية (بالمعنى الدارج اليوم لا بالمعنى الدقيق) ليست نتاج انحراف اخلاقي لدى فئة دون اخرى، ولا هي دالة، أو نتاجاً أو ميزة لمستوى من مستويات الثراء (كأن يقال ان البرجوازية الكبرى طفيلية فيما المتوسطة «وطنية» ومنتجة). الطفيلية هي نتاج ظاهرتين متلازمتين، سياسة اقتصادية واجتماعية تضع البلد في موقع ضمن تقسيم العمل الرأسمالي العالمي، يصبح معه من المربح الانخراط في نشاطات التوزيع والخدمات، ويصبح معه حتى النشاط في الفروع المادية قليل الاضافة الى الطاقة الانتاجية للمجتمع. والظاهرة الثانية هي غياب الرقابة الشعبية، غياب الحضور الجماهيري المستقل الفاعل الذي يستطيع ان يعبيء ضد هذه السياسة ويقيّدها أو يشلّها

تترتب على ما سبق جملة استنتاجات:

اولاً: ان الديمقراطية تصبح في صلب، ان لم تكن جوهر، المهمات المطروحة على جدول اعمال الشغيلة بكافة فئاتهم، فضلاً عن فئات من ارباب العمل الذين لا تمنعهم «استقامتهم» عن الانخراط في النشاطات المسماة طفيلية، بل يمنعهم بالضبط طابع عمل قانون القيمة في الاقتصاد، حيث توكل لهم النشاطات الاقل ربحية وبالتالي الاكثر ارتباطاً بالانتاج.

والديمقراطية، بعد كل هذا وذاك، ليست مهمة لاتاريخية، أي قابلة للتحقق في كل زمان ومكان. لكن شروط نضوجها توافرت في مجتمعاتنا بالضبط بفعل العمل الممركز الذي قامت به الانظمة التي سادت المنطقة. فبتوحيدها القسري للمجتمع من خلال القمع الجسدي والايديولوجي، وبتحطيمها الاستقلال الذاتي للطوائف والعشائر والمذاهب والاديان خلقت، من دون ان تدري، شروط انبثاق المجتمع المدني بعد ان الحقته بالدولة فتساوى الجميع في الاضطهاد امام الجهاز السياسي، التنفيذي. واليوم لم يعد مطلوباً ان يُسن قانون ينشيء البرلمان ويجيز الاحزاب، بل بات مطلوباً ايجاد آلية تخضع فيها اجهزة السلطة التنفيذية فعلاً، لا قولاً، وبدون استثناء لسلطة التشريع المنبثقة عن الشعب. اذ نعرف ان مؤسسات الرئاسة والجيش والمخابرات وغيرها تظل في احسن برلمانات العالم العربي بمنأى عن الخضوع لهذه السلطة.

وشرط تحقق ذلك يكمن في ما خلقته هذه الانظمة نفسها. اذ تتسع السلطة التنفيذية في صلاحياتها حيثما كانت الطبقة الحاكمة لم تتبلور بعد ولم تبلور تنظيماتها السياسية، فتلعب دور «البرجوازي الجماعي» بالنيابة عن الطبقة وباسمها. لكن هذه الطبقة تبلورت الآن وبات من مصلحتها هي، فضلاً عن مصلحة الشغيلة بالطبع، ايجاد شكل من التمثيل المباشر تتناسب ديمقراطيته عكسياً وحدّة الصراع الاجتماعي في كل بلد عربي.

ثانياً: ان عقلنة التطور الرأسمالي لا تعني التسليم بقيادة البرجوازية حتى تصل الجماهير الى الاقتناع بضرورة الارتقاء الى شكل يتجاوز الرأسمالية كنظام. فما لم يكن للحركات المعبرة عن مصالح الشغيلة قوة ضغط هائلة على الطبقات الحاكمة، سواء من خلال كونها حزب معارضة مستقل فعال أو من خلال اقناعها الشعب بقدرتها على الحكم لتنفيذ برنامج تطوّر برجوازي ديمقراطي معقلن، ما لم يحدث هذا فان البرجوازية التي تحكم بلا رقيب لا مصلحة لها في مثل هذا التطور المعقلن.

ثالثاً: ان مفاهيم التبعية والتطور المستقل بحاجة اليوم الى اعادة تحديد لكي لا تتحول الى شعارات جوفاء. واعادة التحديد ليست مطلوبة لمجاراة موضة «التفكير

السياسي الجديد»، بل لان مجابهة الامبريالية، في البلدان العربية التي تخلصت من الوجود السياسي والاقتصادي الاجنبي المباشر، اصبحت تعني في حقيقة الامر الارتقاء بمستوى التطور ووجهته بما يؤمّن مواقع تتدرج في تحسين تكافؤها في ظل توازن عالمي لا مجال لانكار ان تقسيم العمل الرأسمالي هو الذي يحكمه. وبالتالي فالقضية تكمن، بتبسيط شديد، في كيفية الارتقاء بامكاناتنا لكي نوجه اكبر قدر من انتاجنا لاشباع حاجاتنا، واشباع اكبر قدر من استهلاكنا من انتاجنا، والتعامل مع السوق العالمية (وهي رأسمالية في الاساس) من خلال كوننا مصدّري مواد متنوعة متقدمة لا مواد خام اولية. وواضح ان الاستقلال بهذا المعنى يصبح ستراتيجية ذات محتوى طبقي مختلف عن تلك القائمة على مجرد اجلاء قوات اجنبية أو تأميم هذا المورد أو ذاك.

رابعاً: ولهذا ايضاً فان ستراتيجية تقوم على ما اظنه جوهر مهماتنا في الافق المنظور أي: الديمقراطية، التقدم الاقتصادي ـ الاجتماعي، العدالة تعني من بين اشياء اخرى الاعتراف بموت حركة التحرر الوطني العربية بعد ان ادت مهماتها (بالطبع عدا فلسطين وربما بلدان قليلة اخرى) والبحث عن مكونات حركة الديمقراطية والتقدم الجديدة التي لا تلغي حق كلّ مكوّن في العمل على تمهيد الطريق لما يراه افقاً قادماً لحركته، بدلاً من التفكير في كيفية احياء حركة لم تعد ثمة مقومات لوجودها، بل وندرك غريزياً منذ سنوات انها لم تعد موجودة باستثناء البيانات التي تشيد بها، وبرقيات التهاني المتبادلة.

خامساً: هنا نعود الى القوى والتيارات السياسية المكونة لحركة الديمقراطية والتقدم. فمادام الاطار المطروح آنياً ليس تجاوز علاقات الانتاج الرأسمالية بل تعديلها جذرياً (وهو منعاً لاي التباس ينطوي على بعد ثوري هائل في بلداننا وليس مطلباً اصلاحياً) فان مطلب التقدم بصورته المطروحة اعلاه يعني النضال من اجل سياسات اقتصادية (أي من اجل شكل سلطة جديد يفرضها) تجمع بين الكفاءة وبين عدم العودة الى ارث الماضي الكريه حيث كان الشغيلة يطالبون بالتضحية باسم مصلحة الوطن والانتاج، أي تجمع بين الكفاءة والاطار الديمقراطي الذي يسمح للشغيلة بان يقولوا «لا» صريحة لمثل هذا التلاعب.

ان تقديس سلطة الدولة عند المدرسة القومية، وتقاليد النخبة لدى التيارات الدينية، وتقاليد الحكم التي مارستها احزاب شيوعية في البلدان الاشتراكية تجعل الديمقراطية العنصر الاكثر هشاشة وحاجة الى الضمانات في بلداننا، وهو امر لا يمكن تلافيه، لسوء الحظ، بابرام المواثيق بل بدرجة نضج القوى الاجتماعية في بلداننا من جهة، وبتوازن قوى قادرة على شل أي ميل للانفراد باتخاذ القرار من أية جهة كانت. مفهوم توازن القوى حاسم هنا، لانه يذكرنا من جديد بحقيقة اولية مفادها، ان المصالح الطبقية يمكن ان

تتحدد كتجريدات على مستوى النظرية (وان كان الشكل الذي تُلبى فيه هذه المصالح تاريخياً وملموساً، لكن موقف القوى المختلفة من الديمقراطية يتحدد في ميدان الصراع الاجتماعي. ولهذا كان القومي المنفرد بالسلطة غير المشارك فيها، وهذا غير المعارض.

سادساً: ان صح هذا، فان علّتنا تكمن بالضبط في تراث الوحدة القسرية الفكرية والتماثل بين القوى الذي كنا نفترض ضرورته لتحقيق مهمات مشتركة. والحال ان الديمقراطية تقتضي الاعتراف بالتنوع، فلنناضل من اجل تكريس التنوع، تنوع التيارات بل والتنوع داخل التيار الواحد. وعند ذاك، لن تحدد برامج التحالفات الحصيلة التي تخرج عن اتفاق القوى، بل بالضبط توازن القوى القائم بينها اولاً، وتوازن القوى القائم بينها مجتمعة من جهة وبين الطرف الآخر ثانياً.

وحتى تتحقق هذه الامنية ـ المهمة، أي حتى تعثر القوى المختلفة على القواسم المشتركة بينها، يبدو الشعور بالخلل لدى كل هذه التيارات مناخاً مثالياً للصراع الفكري الديمقراطي الذي يستبدل النقد بالسلاح بسلاح النقد.

---

* وصلتنا المقالة قبل اسابيع من سقوط تشاوشيسكو ـ المحرر.

ابرز خبرات الانتفاضة ودروسها

كنا، بمناسبة تخطي الانتفاضة الفلسطينية الباسلة عامها الثاني، قد توجهنا إلى الاحزاب الشيوعية في المشرق العربي باسئلة حول انعكاسات الانتفاضة على الواقع العربي وما تراه من متطلبات لدعمها. واليوم، وقد تخطت الانتفاضة شهرها السادس والعشرين، ننشر الاجابات التي وصلتنا من ثلاثة احزاب.

يوسف نمر
الحزب الشيوعي السوري

لقد دخلت الانتفاضة البطولية للشعب العربي الفلسطيني عامها الثالث وهي تطرح علينا وعلى كافة القوى التقدمية، ضرورة فتح الحوار الجاد والنقاش العميق حول أهم الدروس المستخلصة. لقد اصبحت الانتفاضة البطلة معلماً تاريخياً، في تراث الشعب الفلسطيني الذي ناضل طوال (٧٥) عاماً دون كلل أو ملل، بمختلف اساليب النضال، من امتشاق السلاح إلى الاضراب العام، إلى المقاطعة المنظمة للعدو الصهيوني، إلى العمل المسلح خارج ارضه الوطنية، إلى الانتفاضة السلمية، والكفاح الجماهيري العريض الذي يشمل كافة القوى الحية للجماهير الفلسطينية الرابضة تحت ربقة الاحتلال الصهيوني البغيض.

وتستمر الانتفاضة في ضوء الظروف التاريخية الملموسة، للشعب العربي الفلسطيني، وعبر متغيرات سياسية عاصفة على المستوى العالمي، ومن خلال اساليب ثورية تتناسب مع الظروف الراهنة لحركة التحرر الوطني العربية، والحالة المأساوية التي تعيشها، وانسداد الافق أمام بعض اساليب النضال في الظرف الراهن، ومن الواقع المرتهن بمجمله لعدة عوامل عالمية وعلى المستوى القومي.

لقد اتت الانتفاضة وكأنها التحدي الكبير في مواجهة العسف الصهيوني العنصري، وكرافعة ثورية مضيئة لحركة الجماهير في البلدان العربية تؤثر فيها وتتأثر بها، وتفرض زخماً ثورياً مستمراً. ولطالما عبر البعض عن عدم القناعة بهذا الزخم وبقوة استمراره، وشكك حتى في تماسكه، وجدوى استمراره، وعلل النفس بفقدانه عبر الزمن والتحديات والصعوبات التي تواجهه من العدو الصهيوني المتغطرس، والمستند على اعتى قوى الامبريالية في العالم ألا وهي الامبريالية الامريكية. كما اتت الانتفاضة تحدياً لهذا الدركي العالمي المتحالف مع اسرائيل، حفاظاً على مصالحها المشتركة، والذي تزداد وقاحته رغم المتغيرات الجوهرية التي تجرى في العالم، يناور ويحني الرأس ويتراجع أمام المبادرات السلمية الخلاقة والمتجددة باستمرار التي تطرحها القيادة السوفييتية المتفهمة لروح العصر مستقطبة الجماهير الحية في العالم أجمع، وتؤطر من خلال ذلك التيار الجارف المعادي للحروب النووية والمنادي بحق الشعوب بتقرير المصير وابعاد شبح الكارثة النووية عن البشرية جمعاء.

وفي الوقت ذاته تراوغ الامبريالية الامريكية باساليب ملتوية تارة ومكشوفة تارة أخرى، للانقضاض على المبادرات السلمية الجارفة الهادفة إلى حل القضايا العالمية لمصلحة الشعوب.

كما يبرز خطرها الشديد في الدعم المتعدد الاشكال لاسرائيل، والارتقاء المستمر بمستوى التسلح الصهيوني لمواجهة حركة التحرر الوطني العربية.

ان الانتفاضة الباسلة بزخمها وقوتها، وبما تقدمه من امثلة، تتيح لنا جميعاً، استنباط الخبرات الجوهرية في مجرى حياتنا النضالية، تفرض علينا معالجة هذه الظاهرة من خلال الترابط المصيري للجماهير الفلسطينية بين الداخل والخارج والتلاحم العضوي بينها، وتبادل التجارب والدعم المتبادل من أجل استمرار العملية الثورية كحركة متكاملة للشعب الفلسطيني ككل على أرض وطنه وفي أرض الشتات، من أجل حرية الشعب الفلسطيني وتقرير مصيره على ارضه وانشاء دولته المستقلة.

ان الانسجام المتوافق بين جزئي الشعب الفلسطيني اللذين يعيشان في بوتقة الجماهير العربية، يؤكد حقيقة الترابط التاريخي والعلاقة الجدلية بين مختلف القوى

المحركة لحركة التحرر الوطني العربية.

ان السيرورة التاريخية لحركة التحرر الوطني العربية تطرح العلاقة المتبادلة بين الخاص والعام، وبين الوطني والقومي، وبالتالي بين القومي والاممي. وان ترجيح الجزئي والقطري وعزله عن القومي يضع الثورة الفلسطينية أمام مخاطر جدية بحيث لا تستطيع الاستمرار بمفردها وبقواها الخاصة، وبمعزل عن حركة القوى الثورية الداعمة لها كما ان المبالغة بالطابع الخاص الاستقلالي للثورة الفلسطينية يضعها في مهب الريح، وفي مواجهة القوى الامبريالية والصهيونية المتلاحقة بمستوى يفوق الشكل الراهن، والعلاقة الواهنة، بين مختلف فرقاء حركة التحرر الوطني العربية، ويضيف تحدياً جدياً لسيرورة الثورة الفلسطينية ويحد من عمقها العربي، ويقطع عليها رفدها بعوامل استمرارها.

كما ان المبالغة بالعامل العام القومي يؤدي بشكل أو بآخر إلى هيمنة قوى خطيرة يمينية تبرز حالياً على سطح القوى المحركة، وتتطلع إلى ممارسة نفوذها السلبي على الثورة الفلسطينية، للحد من استقلالها ومسارها التاريخي، بشكل يمكن ان يؤدي إلى اضاعة الفرصة التاريخية للشعب الفلسطيني بتحقيق استقلاله الكامل على ارضه.

ان الانتفاضة تشكل نقلة نوعية متميزة من تاريخ نضال الشعب العربي الفلسطيني، بمواجهة الاحتلال الصهيوني. وقد تميزت بعمقها وشموليتها لمختلف الطبقات والفئات والشرائح المتعددة، سلاحها التنظيم والقدرات الثورية المختزنة لدى الجماهير الشعبية وابداعاتها المتعددة الوجوه، في مواجهة اعتى ترسانة عسكرية عنصرية مسلحة حتى الاسنان بمختلف الاسلحة حتى باسلحة التدمير الشامل. وهي تواجه جيشاً عنصرياً متمرساً قادراً على مواجهة أكثر من جيش عربي، ويرتقي مستوى تسليحه بشكل مستمر ليتجاوز مستوى التسلح العربي على مختلف الاصعدة.

لقد تميزت الانتفاضة بجماهيريتها وابتداعها الاساليب الجماهيرية الخلاقة مبرهنة على أهمية الجماهير العريضة، في مواجهة الآلة العسكرية الجبارة وضربها في مقتلها وتجعل من تسليحها عبثاً أمام الابداع الجماهيري الذي يتناسب مع أرض الواقع. وهي تعيد بشكل مأسوي اسطورة (النبي داوود في مواجهة جوليات الجبار) انما بشكل معكوس فالتاريخ لا يعيد نفسه تماماً وانما بشكل معكوس أحياناً.

ان الآلة العسكرية الهمجية وجدت نفسها عاجزة، أمام الحركة الجماهيرية الواسعة والمنظمة، سلاحها الحجارة وقواها الطفل والشاب والفتاة واللجان الشعبية المنظمة، والتحرك الفعال، والسريع، والمتلازم مع التصعيد، والمتغير باستمرار باساليب المواجهة من المقاطعة، إلى الاضراب، إلى التظاهر، إلى الرشق بالحجارة وزجاجة المولوتوف، إلى الاعتصام، إلى الامتناع عن دفع الضرائب، إلى العصيان المدني، إلى المظاهرة

الجماهيرية الواسعة على المستوى العام.

ان الانتفاضة، هي وليدة حركة موضوعية لواقع الاضطهاد والاحتلال الصهيوني البشع، تتحدى القهر والظلم الشرسين، وهي سليلة حركة نضالية ثورية مستمرة لشعب، شاء التاريخ ان يكون على مذبح التضحية طيلة (٧٥) عاماً.

لقد مرت الثورة الفلسطينية بمراحل متنوعة، إلى ان ارتقت إلى هذا المستوى الشامل من الكفاح الجماهيري العريض، وكان انتقال ثقل الثورة إلى الداخل مكسباً تاريخياً، أشعر العالم بقضية الشعب الفلسطيني العادلة، في مواجهة المقولة الكاذبة، لشعب بلا أرض، وأرض بلا شعب، ووضع القضية أمام الضمير العالمي.

ان الكفاح المسلح الذي مورس من الخارج وأحياناً من الداخل مترافقاً بنضالات جماهيرية مختلفة ولكن ليس بالمستوى الراهن، لم يكن ذلك بالحقيقة سوى مدرسة أعدت بشكل واسع الالاف من المقاتلين المتمرسين في سجون العدو ومعتقلاته وطورت الحركة الجماهيرية، عبر اطر التنظيمات الجماهيرية المتعددة الاشكال.

وان انتقال مركز الصراع من الخارج إلى الداخل المحتل، عمق المأزق الاسرائيلي بعد ان استكان وعلل النفس بخمود الشعب الفلسطيني وتدجينه بمختلف اساليب القهر والابتزاز، وتقسيم الصفوف عبر تقادم الزمن، وبأن مصير الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة في الوجود المستقل على أرضه يتجه نحو التسويات المنفردة بدءاً من كامب ديفيد واتفاق ١٧ ايار ومشروع إيغال آلون ومشروع المملكة المتحدة وغيرها من المشاريع الاستسلامية المتخاذلة.

ان الانتفاضة وضعت العدو الصهيوني في مأزق جديد واثبتت زيف وبطلان المشاريع المنفردة وأكدت تصميم الشعب الفلسطيني على نوال حزيته وتحقيق الاستقلال وتقرير المصير على أرضه ووطنه التاريخي.

لقد أحدثت الانتفاضة هزة داخل المجتمع الاسرائيلي والحركة الصهيونية الدولية واوجدت هوة وثغرة بينها وبين العالم قاطبة. وفضحت ادعاءاتها الديمقراطية الزائفة، من خلال التطبيق الفاشي على الأرض، أمام سمع وبصر العالم أجمع، كما أوجدت هوة بينها وبين حلفائها الأوروبيين بما في ذلك الولايات المتحدة.

لقد طرحت الانتفاضة تساؤلاً كبيراً حول المصير التاريخي للمشروع الصهيوني (من النيل إلى الفرات)، وأوجدت ارباكاً واضحاً داخل الكيان والمؤسسة الصهيونية على مختلف الاصعدة، الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، ووضعت المجتمع الصهيوني في مواجهة ارباك سياسي، وتفكك معنوي وعزلة دولية خانقة، فإلى جانب التطرف الصهيوني الواضح، أخذت تبرز تيارات، وان كانت ضعيفة، تنادي بايجاد حل مناسب في

هذا العصر المتطور والمتسارع متأثراً بالسياسة العالمية الأكثر انسانية.

ومما تقدم يمكن استخلاص العبر والاستنتاجات التي يمكن ان تفيد حركة التحرر الوطني العربية وقواها المحركة خلال صراعها على الساحة السياسية العربية.

لقد استطاعت الانتفاضة ان تخلخل المجتمع الاسرائيلي وتضع المشروع الصهيوني في مأزق عميق وتجبره على التفكير في بناء استراتيجية جديدة.

* أبرزت الانتفاضة جوهر الصهيونية المعادي للديمقراطية أمام العالم، وفضحت تشدقه بالديمقراطية الزائفة واصبحت اسرائيل أمام اغلبية الدول العالمية دولة فاشية عنصرية من طراز جديد.

* كما وضعت اسرائيل أمام الرأي العام العالمي كعدو لم يستوعب روح العصر، عصر الانفتاح والسلام القائم على العدل وحق الشعب بتقرير المصير.

* افلحت الانتفاضة في نقل شعار الحرية ونيل الاستقلال إلى بؤرة الاحداث الفلسطينية ووضعته في مستوى الامكانية الواقعية رغم الصعوبات التي تكتنف طريقه ان عاجلاً أو آجلاً ورغم عظم التضحيات.

* اعادت الانتفاضة الاعتبار لدور الحركة الشعبية الجماهيرية المنظمة المشاركة الواسعة في النضال الوطني الفلسطيني.

* أكدت الانتفاضة أهمية تحالف القوى السياسية المختلفة وامكانية التحالف بين قوى ذات ايديولوجيات مختلفة والتعاون في إطار الصراع مع العدو بين التيارات الوطنية والتقدمية والاسلامية، وصهرها في بوتقة النضال المشترك ضد العدو الغاصب.

* اضهرت الانتفاضة جوهرها التاريخي المعبر عنه بامكانية مواجهة الجيوش المنظمة والمدججة بالسلاح بابسط الاساليب الشعبية من خلال تحركها الواسع وعبر التضحيات غير المحدودة.

* تنامي الوعي المستمر للجماهير الفلسطينية بشكل يؤثر على القيادات السياسية في حالة تغييب الاهداف الثورية ويلجمها في حال لجوءها إلى المناورة والتنازل الذي يمكن ان يطيح بالمكتسبات الثورية ويضيع حقها في الانتصار.

* ان الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بحكم موقعها القومي يمكنها استنهاض الجماهير العربية تؤثر فيها وتتأثر بها، من خلال مشاركة متبادلة ووعي متكامل كما هي الحال في العلاقة ما بين الانتفاضة والجماهير الاردنية، والانتفاضة والحركة الوطنية اللبنانية وكذلك الانتفاضة وحركة الجماهير في الجولان.

وتؤسس لمرحلة استنهاض شعبي على المستوى القومي العربي في إطار الانظمة السياسية التي لا تزال تعيش حالة التراجع أمام اليمين العربي.

* كما ان تصاعد الانتفاضة الفلسطينية يؤكد أهمية الدعم السياسي والجماهيري التي تنتظره من الجماهير العربية التي تكبحها الانظمة الرجعية لمواكبة التحرك الشعبي، ودفع التضامن العربي لاقصى مدى ممكن.
* أكدت الانتفاضة ان الولايات المتحدة الامريكية ما تزال تقف في الصف الامامي للامبريالية والرجعية العالمية متنكرة للحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني وترفض المؤشرات الدولية كعامل اساسي في تحقيق استقرار المنطقة.
* كما ان الانتفاضة أكدت على المخاض الذي بدأ يتفاعل داخل المجتمع الصهيوني والذي يؤكد على عدم امكانية انهاء الثورة الفلسطينية بالاساليب العسكرية، وان لا طريق أمام حل قضية الشعب الفلسطيني، إلا بالاساليب السياسية، واستحالة قمعها عسكرياً.
* كما أكدت الانتفاضة على ان التضامن العربي وعدم ارتقائه إلى مستوى الجماهير المنتفضة عامل قومي معرقل ومثبط للهمم واظهر هشاشة الوضع داخل حركة التحرر الوطني العربية.
* كما ان الانتفاضة أكدت أهمية الجماهير على مختلف الاصعدة ومن الدور المميز الذي تختزنه الطاقات الشعبية بما في ذلك دور الطفل وامكانية توظيفه في المعركة الشاملة مع العدو وكما أبرزت دور الشباب، والمرأة بشكل خاص والمهام الثورية التي اضطلعت بها خلال أعوام الانتفاضة.
* اظهرت التجربة أهمية ابداع الجماهير في اللجان الشعبية المختلفة وتأطير الجماهير حولها لتمتين عامل الصمود على الأرض وتعميق الارتباط الشعبي بالثورة والوطن.
* كما اعادت الانتفاضة للاذهان دور الجماهير الفلسطينية المنسية منذ الاغتصاب الصهيوني عام ١٩٤٨ والرابضة في ظل عنصرية بغيضة تصارع بمختلف الاساليب وتقدم الدعم للثورة بشكل اذهل الصهيونية التي طالما اعتبرتها جماهير متآكلة منسية تم تدجينها.
* وأخيراً أكدت الانتفاضة أهمية التلاحم العالمي وفهمها العميق لهذا الدور الذي يمكن ان يلعبه الرأي العام العالمي والتأييد المطلق من الشعوب المناضلة وبشكل خاص دور الاتحاد السوفييتي رغم اساليب الدس والافتراء المنبعثة روائحها من المطابخ الامبريالية والابواق الرجعية التي تؤججها الصهيونية.
* وأخيراً تبقى المهمة امامنا جميعاً. تؤكد على أهمية البحث عن استراتيجية عربية موحدة، لايجاد الدعم المناسب، والارتقاء بمستوى الجماهير العربية إلى مستوى الانتفاضة، لا خوفاً عليها فقط بل من أجل تأمين انتصارها وبلوغ اهدافها في النصر والحرية والاستقلال.

عبد الرزاق الصافي
الحزب الشيوعي العراقي

تشكّل الانتفاضة الفلسطينية الباسلة، مَعْلماً هاماً من معالم المسيرة النضالية المجيدة للشعب العربي الفلسطني. فبعد ما يزيد على العشرين سنة من الاحتلال، وبعد نضالات بطولية مجيدة قامت بها الجماهير الفلسطينية وحركة المقاومة الفلسطينية، وتضحيات غالية ودماء غزيرة سفكتها في مختلف المعارك، وفي مختلف الساحات، اخذت جماهير الارض المحتلة ـ الساحة الرئيسية لنضال الشعب العربي الفلسطيني ـ قضيتها بايديها، واقدمت على اخراج هذه المأثرة النضالية الفريدة والتي نتوقف اليوم امام دروسها وخبراتها الغنية، والبحث في الصيغ الفعالة لدعمها واسنادها، للوصول بها الى تحقيق الاهداف التي قامت من اجلها، بطرد المحتلين واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على ارض فلسطين، بقيادة الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني ـ منظمة التحرير الفلسطينية.

ان الخبرة الابرز والاكثر اهمية التي تجسدها الانتفاضة هي قناعة الجماهير الشعبية الواسعة، التي تضم الغالبية الساحقة من ابناء الشعب الفلسطيني، بعماله وفلاحيه ومثقفيه ومهنييه وتجاره، بشبيبته وطلبته ونسائه، وكل القوى الفاعلة فيه، قناعة هذه الطبقات والفئات كلها بضرورة النزول الى ساحة النضال ومنازلة قوى الاحتلال بزخم لم يسبق له مثيل طيلة السنوات العشرين من الاحتلال.

وبطبيعة الحال لم تكن هذه القناعة لتحصل تلقائياً، بل هي حصيلة كل نضالات الشعب الفلسطيني ومقاومته الباسلة، بصفحاتها المشرقة، ودروس اخفاقاتها التي شكل استيعابها تجربة غنية لا تقدر بثمن.

ومما يزيد هذا الامر اهمية هو ان الانتفاضة بدأت في ظل اوضاع عربية غير ملائمة، وفي ظل تراجعات لحركة المقاومة وقوى فاعلة في منظمة التحرير الفسطينية، فجاءت بزخمها النضالي الكبير لتسهم بدورها، في تعديل الميزان لصالح القضية الفسطينية ولصالح منظمة التحرير الفلسطينية قائدة هذا النضال، ولصالح وحدانية تمثيل المنظمة للشعب العربي الفلسطيني، هذه الوحدانية التي ظلت موضع تشكيك ـ مع الاسف ـ ليس من العدو الصهيوني فحسب، بل ومن قوى عربية ماتزال تسعى لثلمها. وهو، بالضبط، ما يفعله نظام مبارك المتمسك باتفاقيات كامب ديفيد وبمحاولة فرضها على الشعب الفلسطيني.

ومن خير الانتفاضة ايضاً انها جاءت بعد تحقيق الوحدة الوطنية في منظمة التحرير الفلسطينيةواسهمت في ترصين هذه الوحدة. ولا شك ان هناك شوطاً في هذا المجال امام القوى الوطنية الفلسطينية ينتظر ان تقطعه لتعميق هذه الوحدة وتوطيدها اكثر فأكثر، سواء اكان ذلك في صفوف منظمة التحرير بضم كل القوى التي ماتزال خارج صفوفها، ام بابداع الصيغ الاكثر فاعيلة لتوحيد نضال الجماهير الفلسطينية في الارض المحتلة على اختلاف انتماءاتها السياسية واتجاهاتها الفكرية والعقائدية.

ولعل في سلوك العدو المحتل خير شاهد على اهمية هذا الامر. فكلنا نعرف مساعيه المحمومة لمعارضة «الخارج» بـ«الداخل»، ومحاولته انكار تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني، ورفضه الاعتراف بها، وسعيه المستمر لايجاد التعارض بين القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة وحركة المقاومة الاسلامية (حماس).

ويمثل الطابع الديمقراطي للانتفاضة مكاناً هاماً فيما تجسده من خبرة نضالية. هذا الطابع الذي يتمثل في اشتراك اوسع الجماهير في الفعاليات النضالية، والتعامل السائد بين طلائعها السياسية الممثلة في القيادة الوطنية الموحدة، والصيغ النضالية لوحدة نضالات هذه القوى، كاللجان الشعبية وغيرها.

ولا شك ان الحفاظ على هذا الطابع الديمقراطي للانتفاضة وتطويره يشكل ضمانة اساسية لاستمرارها وتعميقها وتعزيز ما اتسمت به سعة المشاركة الجماهيرية، وخصوصاً ما حققته الانتفاضة من مشاركة واسعة من لدن الجماهير النسوية، وجماهير القرى بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ النضال الوطني الفلسطيني.

اما عن تقييمنا للتضامن الشعبي العربي مع الانتفاضة فاننا نقول - بكل اسف - انه دون المستوى المطلوب بكثير. ويقف في طليعة العوامل التي سنببت ذلك، الارهاب والقمع الدموي في ظل الانظمة الرجعية والدكتاتورية التي تخاف من عدوى الانتفاضة، وتغييب الجماهير وابعادها عن النشاط السياسي وفرض الوصاية عليها وتحجيم مبادراتها في العديد من الدول العربية.

ويقدر تعلق الامر بشعبنا العراقي، الذي يمتلك رصيداً مشرفاً من دعم نضال الشعب العربي الفلسطيني طيلة ما يزيد عن الستة عقود من السنين، فان كابوس الحكم الدكتاتوري اعاق ويعيق أية مبادرة مستقلة من جانب الجماهير الشعبية للاعراب عن تأييدها للانتفاضة الباسلة. وهو الذي الحق ضربة موجعة بحركة التحرر الوطني العربية، وبالقضية الفلسطينية بالذات حين شن حربه المجنونة ضد ايران في ٢٢/ ايلول/ ١٩٨٠، واطلق ادعاءاته المضحكة عن «تحرير القدس» مروراً بعبادان في وقت كانت فيه الثورة الايرانية ماتزال في عنفوانها ودعمها للقضية الفلسطينية، مهدداً بذلك ارواح مئات الالوف من الشبيبة

العراقية ومدمرا طاقات هائلة لشعبنا العراقي، وممهداً الارض لعدوان اسرائيل على لبنان واجتياحها لبيروت المناضلة في حزيران ١٩٨٢ بهدف تصفية المقاومة الفلسطينية الباسلة، وضرب الحركة الوطنية اللبنانية، وتنصيب عميل لها رئيساً للجمهورية. وهو يواصل اليوم تقديم الخدمة لاسرائيل والاضرار بالانتفاضة بدعمه للمتمرد ميشيل عون، وتعريض وحدة لبنان لخطر التمزيق.

كما ان نظام صدام حسين يقدم خدمة كبرى للامبريالية والصهيونية بسياسته الشوفينية الرعناء وحربه الظالمة ضد الشعب الكردي في العراق التي تهدد بنسف الاخوة العربية الكردية المعمدة بالدم في النضال ضد الامبريالية والصهيونية، وتمزيق وحدة الشعب العراقي بعربه وكرده واقلياته القومية المتآخية.

ان الشيوعيين العراقيين، وكل القوى الوطنية في العراق تدرك بتجربتها المريرة اهمية الديمقراطية ليس لتحقيق مطامح الشعب العراقي في الحرية والتقدم الاجتماعي والازدهار الاقتصادي والثقافي فحسب، بل وفي دعم النضال العادل للشعب العربي الفلسطيني، وانتفاضته الباسلة، ودعم نضال الشعوب العربية كلها في معارك التحرير وتوطيد الاستقلال الوطني والتطور الاقتصادي - الاجتماعي المستقل والتنمية في ظل الديمقراطية.

اننا نقرر، بيقين، ان الشعب العراقي لو كان يمتلك الحد الادنى من الحقوق والحريات الديمقراطية عام ١٩٨٠ لما استطاع صدام حسين ونظامه، ان يجراه الى مجزرة الحرب العراقية - الايرانية الرهيبة التي دامت ثماني سنوات ولم تنته بسلم وطيد حتى الآن. ولو كان شعبنا يمتلك الحد الادنى من الحقوق والحريات الديمقراطية لما استطاع صدام حسين ان يواصل حربه الظالمة ضد الشعب الكردي في العراق ولما استطاع ان يرتكب جريمة استخدام الاسلحة الكيمياوية المحرمة دولياً ضد ابناء الشعب العزل واجبار ما يزيد عن مئة الف مواطن كردي على ترك موطنهم والهرب الى تركيا وايران لينجوا بانفسهم من الموت.

واننا اذ نناضل اليوم من اجل الخلاص من الدكتاتورية وانتزاع الديمقراطية كحريات للشعب. وكأسلوب للحكم تشارك فيه كل قوى الشعب الوطنية، فاننا نرى في ذلك ليس مهمة وطنية فحسب، بل ومهمة قومية ايضاً تتيح لشعبنا ان يضع بلادنا في الصف العربي المعادي بحزم للامبريالية والصهيونية وان يسهم بفعالية من اجل ايجاد تضامن عربي حقيقي واسناد فعّال للانتفاضة الفلسطينية الباسلة حتى تحقق هدفها العادل بطرد المحتلين واقامة دولة فلسطين المستقلة.

ونعتقد ان ما نواجهه من مهمات على صعيد النضال من اجل الديمقراطية وارتباط ذلك بمهمات النضال القومي ودعم الانتفاضة الباسلة، يشبه - الى حد ما - ما يواجهه كل

اشقائنا العرب، بدرجات متفاوتة فقد كان النضال من اجل الديمقراطية، ومايزال نضالاً من اجل تعبئة الجماهير الشعبية في سبيل حقوقها المشروعة في الاستقلال والحرية والعيش الكريم، ونضالاً ضد الامبريالية والصهيونية ولتحرير الارض وتأمين حق الشعب العربي الفلسطيني في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة على ارضه.

ان ضعف التضامن الشعبي العربي مع الانتفاضة يتطلب البحث عن صيغ فعالة للعمل المشترك من قبل كل القوى الوطنية المعادية للامبريالية على الساحة العربية ـ ومن بينها الاحزاب الشيوعية ـ لدعم الانتفاضة ولعل في مقدمة ما ينبغي لاية جبهة عربية مساندة للانتفاضة ان تقوم به هو السعي لاعادة التضامن الكفاحي بين سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. ولا شك ان تحقيق ذلك يمكن ان يكون اساساً متيناً، ومقدمة لابد منها، لما تتطلع اليه كل القوى الوطنية العربية من تضامن عربي حقيقي وعمل مشترك ضد الامبريالية والصهيونية، ودعم فعال لانتفاضة الشعب العربي الفلسطيني البطل والاسهام في تحقيق النصر لنضاله العادل.

سعد الله مزرعاني
الحزب الشيوعي اللبناني

بات من البديهي القول بان الانتفاضة الباسلة في الضفة والقطاع قد اسقطت اوهام الصهاينة بتدجين واستيعاب المليون ونصف المليون فلسطيني الذين يعيشون تحت وطأة الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة. أي ان الانتفاضة قد اسقطت حلقة. ربما هي اخطر الحلقات، في مخطط تصفية قضية الشعب الفلسطيني ودفن حقوقه على مذبح المشروع الاستيطاني التوسعي الصهيوني المدعوم من الامبريالية وخصوصاً من الامبريالية الامريكية.

لقد ادت الخيبات المتلاحقة التي عاناها الشعب الفلسطيني ليس الى دفعه الى اليأس كما كان يأمل الصهاينة، بل الى شحذ همته النضالية والى ابتكار اسلوب في النضال الشعبي المقاوم دخل التاريخ التحرري الثوري العالمي من ابوابه الواسعة بوصفه اسلوباً مميزاً وتجربة ذات خصائص فريدة ستلهم الكثيرين ممن يقارعون الظلم والاحتلال طلباً لحق مسلوب أو ارض محتلة أو كرامة مداسة أو حرية وحقوق منتهكة.

لقد استفادت اسرائيل من ميزان القوى الراجح لمصلحتها في الصراع العربي - الاسرائيلي وخصوصاً من تراجعات وارتدادات البعض وجنوح البعض الآخر نحو المساومة أو الخيانة، لتشدد قمعها ضد الشعب الفلسطيني املاً في تأبيد الاحتلال كمحطة متجددة نحو تحقيق المشروع الصهيوني - التوراتي القائم على الاغتصاب والتوسع بما يؤهل اسرائيل اكثر لتكون قاعدة متقدمة للسيطرة الامبريالية - الصهيونية على مقدرات ومصائر شعوب المنطقة وعلى سيادتها وثرواتها وحريتها في الحياة وفي الاختيار. لكن التراجعات والخيانة والاستكانة والمساومة لم تكن هي وحدها القائمة في لوحة الصراع. ففي هذه اللوحة كانت ايضاً عوامل اخرى تؤكد ذاتها. تمثل ذلك خصوصاً في اشكال مقاومة الغزو الاسرائيلي للبنان صيف عام ١٩٨٢ واسقاط نتائج هذا الغزو (خصوصاً اتفاق ١٧ ايار لعام ١٩٨٣). في الاعوام ٨٢ - ٨٣ - ٨٤، حصلت اخطر مواجهة في لبنان كحقل مميز آنذاك للصراع العربي - الاسرائيلي، وتم بنتيجتها فرض التراجع غير المشروط على الصهاينة والقوات الاطلسية عبر عملية صمود وقتال ومجابهة كان طابعها الاساسي شعبياً من خلال نشوء جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، ومن خلال اشكال المقاومة المتعددة الجماهيرية للغزاة ولحلفائهم. ولعب دوراً بالغ الاهمية في هذه المجابهة قرار الصمود الذي اتخذته القيادة السورية التي انخرطت بكل امكانياتها وبالتعاون مع القوى الوطنية اللبنانية وعدد من الفصائل الفلسطينية لمنع تحويل لبنان الى محمية اسرائيلية وبالتالي لمنع تحقيق حلقة ثانية وشديدة الخطورة في مخطط كامب ديفيد. وكان للدعم الاممي القوي والحازم دور كبير في تعزيز قوى المجابهة ومدها بكل وسائل الحماية السياسية والعسكرية.

لقد استلهم الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة هذه المواجهة وهو يعاني ضروب القمع والارهاب، وكذلك وهو يعاني من الخيبات المتلاحقة بسبب قصور أو تراجع أو خيانة الانظمة العربية، وانطلق في مواجهة خطر التصفية يؤكد تمسكه بحقوقه ورفضه للاحتلال واصراره على بناء دولته المستقلة على ارض وطنه في فلسطين.

وتستمر الملحمة التي انخرط بها الشعب الفلسطيني حتى اليوم: سنتان من الكفاح المرير الشجاع والمقاوم دون ان يتمكن الصهاينة وحماتهم والمتواطئين معهم من وقف الانتفاضة أو اضعافها. وهي تدخل عامها الثالث اليوم وسط تصميم اكبر على مواصلة الكفاح حتي تحقيق شعارها في الحرية والاستقلال، مولدة نتائج مهمة حتى الآن، من ابرزها حجز المشروع التوسعي الاسرائيلي واعادة المعركة الى الداخل، مكملة ما حصل في لبنان، وطارحة صعوبات ومشاكل داخل الكيان نفسه.

لقد اعادت الانتفاضة طرح قضية الشعب الفلسطيني بقوة وحظي النضال الفلسطيني بدعم دولي هائل، لكن الدعم العربي الرسمي والشعبي بقي في مرحلة شديدة التخلف،

بل يمكن القول ان الحلقة العربية في الصراع هي الاضعف وهي التي تشكل نقطة ضعف الانتفاضة، خصوصاً اذا ما نظرنا الى الصراع بوصفه صراعاً شاملاً، وبالتالي ينبغي ان تتكامل حلقاته لفرض التراجع علي الصهاينة وحماتهم الامبرياليين.

وندخل هنا في الاسئلة المتبقية: اذ من الخطأ ان نلقي على عاتق الانتفاضة وحدها عبء قيام الدولة الفلسطينية. فالعدو الصهيوني ليس مجرد محتل، بل هو يردد على لسان قادته كل يوم تمسكه بمشروعه الاستيطاني العدواني التوسعي. ثم هو مدعوم بشكل لم يسبق له مثيل في عصرنا، من قبل الولايات المتحدة التي تعطي كل يوم مثلاً جديداً على شراسة تآمرها لمنع الشعب الفلسطيني من تحقيق أي جزء من حقوقه باعتبار ان ذلك سيغير أو سيكون بداية عد عكسي لمشروع سيطرتها على المنطقة. يكفي من آخر الامثلة واغربها ان نشير الى ان الادارة الامريكية الجديدة التي تتشدق بالدفاع عن حقوق الانسان، قد تجاوزت ما حدث في جمهورية الصين الشعبية في الربيع الماضي، ليذهب مستشار رئيسها لشؤون الامن القومي الى بكين ليحث قيادتها على عدم بيع صواريخ لسوريا ثم ليعلن الرئيس الامريكي بزهو ان الصين وعدت الولايات المتحدة بألا تبيع اسلحة لسوريا وانه «راض تماماً عن هذا التطور السليم جداً». (صحف يوم الثلاثاء ١٩٨٩/١٢/١٢).

ان جنوح بعض الجهات الفسطينية الى نوع من القطرية نتيجة خطأ سياسي في تقدير ترابط مواقع ومواضيع الصراع، أو نتيجة اوهام حول كسب موقف واشنطن (!) يساهم بشكل خطير في عدم دفع الوضع العربي الرسمي والشعبي الى اخذ مكانهما الصحيحين في المواجهة. ان مصالح واشنطن ليست مهددة بأي شكل من الاشكال نتيجة الوضع الراهن وكذلك مصالح الرجعية العربية التي تمارس دور النفاق - في قيامها بوساطة سيكون من نتيجتها تسليم الحمل الى الذئب الصهيوني والامبريالي اي القضاء على الانتفاضة أو وقفها أو وضعها امام الحائط المسدود. وهو الهدف الصهيوني - الامبريالي - الرجعي العربي الاول الآن.

ان كفاح الانتفاضة يجب ان يحفز اوسع كفاح عربي ضد المخططات الامبريالية والصهوينة، ليعود فيتعزز بهذا الكفاح نفسه. فليس بغير تغير موازين القوى على الصعيد العربي في اوسع عملية تفاعل مع الانتفاضة يمكن لهذه الاخيرة ان تحقق اهدافها. وللاسف فان الجهات المقررة في منظمة التحرير قد اختارت حتى الآن طريق المساومة وتوسيط الرجعية العربية وخصوصاً منها نظام كامب ديفيد، وليس اللجؤ الى المخزون العربي والفلسطيني للضغط على هذه القوى بما يهدد مصالح الامبريالية وتابعتها الرجعية العربية في آن، لتضطر هذه القوى المتآمرة لتقديم تنازلات أو تبدأ بتقديمها.

ما هي البدائل؟ لابد من عمل شعبي تقوده الاحزاب والقوى الوطنية العربية

والفلسطينية لتغيير وجهة عمل قيادة المنظمة بحيث يعاد الاعتبار للصراع حول القضية الفلسطينية ومستقبلها بوصفه صراعاً شاملاً مع العدو الصهيوني والامبريالي، وليس بوصفه صراعاً فلسطينياً ـ اسرائيلياً فحسب، تلعب فيه واشنطن والقاهرة دور الوسيط المشكور على جهوده!!!

ان هذه المهمة هي المهمة الاكثر الحاحاً الآن وربما هي الشعار الاول بشأن الانتفاضة في عامها الثالث، أي تعديل موازين القوى لمصلحة حركة التحرر العربية والفلسطينة في الصراع بما يفتح آفاقاً حقيقية امام تحقيق شعارات الانتفاضة واهمها قيام الدولة المستقلة بقيادة الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني م. ت. ف.

اما اشكال واطر النضال فهي تلك التي تتطلبها خطورة المواجهة وتفاعل الاطراف. وبديهي ان قيام جبهات على المستوى القطري والقومي هي احدى الصيغ الضرورية للتفاعل مع الانتفاضة وللانخراط في الصراع من بابه الواسع. وفي مقدمة الاهداف السياسية المطلوب انجازها، اعادة الاعتبار للتحالف الفلسطيني ـ السوري على قاعدة نضالية واضحة. ان ذلك لا ينبغي ان يعني بالضرورة قطع الاتصالات العربية والدولية التي تقيمها قيادة المنظمة. لكن أليس من المفارقة مثلاً ان ترى بعض الاوساط في قيادة م. ت. ف. ان مثل هذه الاتصالات تستدعي استمرار القطيعة مع سوريا أو تشترطها في آن!؟

وما هي ايضاً وايضاً مصلحة الشعب الفلسطيني في ان ينتهز بعض قادته كل مناسبة (أو حتى بدون مناسبة) للانحياز الى مشروع ميشال عون التقسيمي الذي يلتقي بالضرورة مع المخطط الصهيوني التفتيتي؟!

ان مسؤولية الاطراف والفصائل الفسطينية كبيرة جداً في هذا الخصوص. لكن مسؤولية القوى الوطنية العربية كبيرة وخطيرة جداً هي الاخرى. فبانتصار كفاح الشعب الفلسطيني وقضيته يمر بالضرورة عبر تغيير موازين القوى لمصلحة قوى حركة التحرر العربية، وتلك المسألة هي المسألة المصيرية في اهداف اطراف حركة التحرر وهي مبرر وجودها.

ليتخلص الجنوب من عبء التسلح

د. كاظم حبيب

شهد العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن حوالي ١٧٠ نزاعاً اقليمياً وحرباً محدودة قضى فيها أكثر من ١٢٠ مليون انسان. وكانت نسبة المدنيين بينهم عالية. وتحملت شعوب واقتصاديات البلدان المعنية خسائر فادحة. وكانت حصة بلدان العالم الثالث من القتلى والخسائر هي الطاغية. ولم تسهم تلك الحروب طبعاً في معالجة المشكلات التي تسببتها، بل زادت في تعقيدها.

ورغم هذه الحقائق ففي عالمنا المعاصر ما يزال يوجد من يرى في الحرب طريقاً لحل الخلافات، وما يزال العالم يشهد تطويراً مستمراً وانتاجاً متزايداً للاسلحة الفتاكة، بما فيها الاسلحة الكيمياوية والجرثومية، ونمواً سريعاً في تجارة السلاح.

واذا كانت مفاوضات الحد من الاسلحة النووية ونزعها تحرز اليوم نجاحات طيبة، رغم بطئها، بفضل المبادرات المقدامة للاتحاد السوفييتي، فان المجتمع الدولي بحاجة ماسة إلى تكثيف جهوده لايقاف سباق التسلح التقليدي، ومنع انتشار الاسلحة الكيمياوية والجرثومية والتخلص منها كلية. ويعتبر مؤتمرا باريس وفيينا حول الاسلحة الكيمياوية وتقليص ترسانات الاسلحة التقليدية في اوربا خطوتين مهمتين على هذا الطريق الذي لا خيار غيره لضمان استمرار وجود البشرية وتطورها.

وبموازاة هذه الجهود لابد من توجيه الاهتمام نحو قارات العالم الثالث حيث تقع فيها اليوم أغلب النزاعات الاقليمية والحروب الصغيرة وأكثرها تهديداً عملياً لقضايا الأمن

والسلام في العالم. وبلدان هذه القارات تشهد سباقاً جنونياً لاقامة ترسانات السلاح التقليدي الأكثر فتكاً. ويبذل البعض اقصى الجهود والاموال لانتاج وامتلاك اسلحة الابادة الجماعية، ومنها الاسلحة الكيمياوية والجرثومية، بل وحتى النووية.

ان القاء نظرة متأنية على احصائيات تطور تجارة السلاح في العالم وحصة بلدان العالم الثالث منها خلال العقود الثلاثة الأخيرة تكفي لاعطاء تقدير واقعي عن المخاطر الكبيرة التي تواجه هذه البلدان وحجم المشكلات المرتبطة بها والناشئة عنها. ففي الوقت الذي بلغت استيرادات «العالم الثالث» من السلاح في عام ١٩٦٨ (٧ ٧٢١) مليون دولار، ارتفعت في عام ١٩٧٨ إلى (٢١ ٩٣٢) مليون دولار، وفي عام ١٩٨٧ إلى (٢٤ ٧٢٤) مليون دولار، وبلغ مجموع استيراداتها منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٨٧ (٣٥٣١٩٦) دولار، أي بمعدل سنوي مقداره (١٧ ٣٠٠) مليون دولار[1]. ويشير الجدول التالي إلى حصة بلدان العالم الثالث من اجمالي استيرادات العالم من السلاح التقليدي خلال الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧، وهي ارقام فلكية حقاً ومرعبة حيث بلغ معدلها السنوي (٢٢ ٣٥٥) مليون دولار.

جدول رقم (١)

استيرادات العالم من السلاح التقليدي وحصة بلدان العالم الثالث منه للفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧ (بالاسعار الثابتة عام ١٩٨٥)[2]

المناطق	قيمة الاستيرادات (مليون دولار)	التوزيع النسبي
استيرادات بلدان العالم الثالث	١١١ ٧٧٥	٦٨,٤
استيرادات بقية بلدان العالم	٥١ ٦٢٣	٣١,٦
اجمالي استيرادات العالم	١٦٣ ٣٩٨	١٠٠,٠

واستناداً إلى كل المعايير المقبولة دولياً فان حجم التسلح الجاري حالياً وبالنسبة لعدد كبير من هذه الدول، يفوق عدة مرات حاجاتها الدفاعية الفعلية. وتكونت ترسانات رهيبة للسلاح التقليدي الحديث في العديد من دول ومناطق العالم الثالث والتي يوضحها الجدول التالي:

جدول رقم (٢)
استيرادات السلاح من جانب مناطق العالم الثالث
خلال الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧ (بالاسعار الثابتة عام ١٩٨٥)[٣]

المنطقة	حصة استيرادات المناطق / مليون دولار	التوزيع النسبي للحصص
الشرق الأوسط	٥٤ ١٣٣	٤٨,٤
جنوب آسيا	١٧ ٢٠٩	١٥,٤
الشرق الاقصى	١٣ ٠٦٢	١١,٧
امريكا الجنوبية	١٠ ٠٦١	٩,٠
شبه الصحراء الافريقية	٧ ٨١٢	٧,٠
شمال افريقيا	٦ ١٦٧	٥,٥
امريكا الوسطى	٢ ٩٩٨	٢,٧
جنوب افريقيا	٠ ٣٢٩	٠,٣
الاجمالي	١١١ ٧٧١	١٠٠,٠

ويلاحظ هنا بوضوح اثر النزاعات والمشكلات الاقليمية وبؤر التوتر في العالم على زيادة نفقات استيراد الاسلحة. فمنطقة الشرق الاوسط قد احتلت المركز الأول على امتداد الفترات المنصرمة، وهي مرتبطة أيضاً بامكانياتها ومواردها المالية الكبيرة والتي يجري استنزافها عن هذا الطريق أيضاً. وقد لعبت الحرب العراقية ـ الايرانية دوراً بارزاً في تشديد هذا الاتجاه في منطقة الشرق الاوسط، حيث زادت حصة البلدين على ثلث كميات السلاح التي تستوردها منطقة الشرق الاوسط كلها.

وعلى الرغم من الاوضاع الاقتصادية البالغة السوء والنقص المتفاقم في التراكمات الضرورية للتنمية الوطنية وتعاظم المديونية وتزايد جيش العاطلين فيها وارتفاع عدد الجائعين إلى عدة مئات من الملايين، واختطاف الموت لملايين الاطفال سنوياً بسبب الجوع والمرض ونقص العناية الطبية، فان أغلب حكومات هذه البلدان تواصل شراء الاسلحة التقليدية وتحديث المخزون منها بين فترة وأخرى والحصول على الاحدث

والأكثر فتكاً وتدميراً. والعديد من هذه البلدان اتجه صوب انتاج مثل هذه الاسلحة بالتعاون والتنسيق مع المجمعات الصناعية العسكرية في الدول الرأسمالية المتطورة، وتحولت إلى مصدِّر فعال للاسلحة إلى بلدان العالم الثالث نفسها. فخلال الفترة بين ١٩٨٢ ـ ١٩٨٦ باعت البلدان النامية المنتجة للسلاح إلى بلدان أخرى في العالم الثالث كمية كبيرة من الاسلحة التقليدية بلغت قيمتها (٢٢٠ ٥) مليون دولار، أي ما يعادل (٩٥,٣) في المئة من اجمالي مبيعاتها من السلاح[٤]. ونجح العديد من بلدان العالم في انتاج وتخزين الاسلحة الكيمياوية والسلاح الجرثومي. وتشير المعلومات المتوفرة إلى ان عدد البلدان المنتجة للسلاح الكيمياوي خارج إطار دول معاهدة وارشو وحلف الاطلسي بلغ (١١) دولة[٥].

وقد استُخدم السلاح الكيمياوي في الحرب العراقية ـ الايرانية من جانب العراق على نطاق واسع، كما استخدم ضد الشعب الكردي والقوى الوطنية وكانت الضحايا كبيرة جداً. وبذلك استخدم لأول مرة في التأريخ في حل الصراعات والتناقضات الطبقية والسياسية الداخلية. ومن المؤسف حقاً انه لم يحتج العالم الاشتراكي على العمل الاجرامي الذي ادانته الامم المتحدة وعدد كبير من البلدان الغربية؟ التزاما بنهج العلانية والدفاع عن القيم الانسانية. وليس من يستطيع اليوم تأكيد انه سوف لن يستخدم في نزاعات وحروب اقليمية مماثلة لاحقاً.

لقد كشفت تقارير الصحف والمجلات في اوربا الغربية عن فضيحة جديدة اسوأ بكثير من ايران غيت الامريكية المعروفة. اذ كانت شركات احتكارية فرنسية والمانية اتحادية وبريطانية وامريكية ونمساوية وبالتعاون الوثيق مع الارجنتين مواظبة على دعم جهود مصر والعراق لانتاج الصواريخ المتوسطة المدى التي يمكن ان تصل حمولتها إلى ٥٠٠ كغم، وقادرة على حمل رأس نووي، يصل مداها إلى ١٠٠٠ كم. كما قامت بعض تلك الشركات بتزويد العراق بالمعدات الفنية والمنشآت لانتاج الاسلحة الكيمياوية. وتشير المعلومات أيضاً إلى ان دولاً، تؤكد على ان سياستها حيادية، كالسويد والنمسا، تقوم هي الأخرى ببيع احدث الاسلحة التقليدية إلى بلدان المنطقة ذات التوتر الشديد.

ان هذه الاتجاهات الخطرة في التسلح (أي شراء الاسلحة واقتناء أو تصنيع الاسلحة المحرمة دولياً، وتصنيع السلاح التقليدي وتطوير اجيال جديدة منه) تستدعي التحري عن العوامل التي تؤدي إلى استشرائها وما ينجم عنها من زيادات سنوية كبيرة في النفقات العسكرية أولاً، ومن ثم تشخيص الشروط التي من شأن الأخذ بها ايقاف التسلح ونزعه تدريجياً.

لقد كانت العقود الثلاثة المنصرمة مليئة بالاحداث العاصفة. وكانت على العموم

عقود تعاظم النضال ضد الامبريالية وهيمنتها الاستعمارية وضد الاستعمار الجديد واساليبه، واقامة الدول الوطنية الفتية، كما كانت سنوات تفجر المشكلات والنزاعات الاقليمية والدولية، وكذلك اشتداد التناقضات والصراعات الطبقية والسياسية في الدول الرأسمالية المتطورة. وكانت سنوات الحرب الباردة وسباق التسلح النووي والتوتر الشديد في العلاقات بين دول معاهدة وارشو وحلف شمالي الاطلسي. وتميزت هذه العقود وما تزال بمنجزات الثورة العلمية التكنولوجية والتشابك المتزايد في العلاقات الاقتصادية الدولية وتفاقم مظاهر الازمة العامة للنظام الرأسمالي العالمي ومشكلات الركود في البلدان الاشتراكية، وتعاظم مشكلات الجوع والمرض والموت المبكر وكل مظاهر التخلف في بلدان العالم الثالث.

وأكدت العقود المنصرمة ان الامبريالية تمكنت، عبر اساليب الاستعمار الجديد، مستفيدة من منجزات الثورة العلمية التكنولوجية والتشابك في العلاقات الاقتصادية الدولية ومشكلات الركود النسبي في البلدان الاشتراكية وتعاظم مشكلات البلدان النامية، من الولوج من جديد وبشكل واسع وعميق إلى اقتصاديات ومجتمعات هذه البلدان، وحينما تعذر عليها ذلك لم تتورع عن استخدام العنف وتدبير الانقلابات وفرض النظم الدكتاتورية والعسكرية الرجعية على تلك الشعوب، كما تمكنت من تأجيج العديد من النزاعات الاقليمية والطائفية... ومارست الامبريالية وما تزال تمارس سياسة الحرب الباردة، بعقد المواثيق واقامة الاحلاف العسكرية ذات الطبيعة العدوانية، وكذلك بناء القواعد العسكرية في العديد من البلدان وتزويد البعض منها باحدث الاسلحة الهجومية وبكميات تفوق حاجات الدفاع المشروعة. كما ان وجود نظم حكم عسكرية دكتاتورية في عدد مهم من البلدان وخلال فترات متباينة وطويلة أحياناً لعب دوره البارز في تنشيط وجهة التسلح الراهنة. وقائمة «المساعدات» العسكرية الامريكية إلى العديد من الدول تؤكد سعيها لخلق بؤر للتوتر واستعداداً مستمراً لخوض الحروب الاقليمية.

ومنذ اواسط الخمسينات اتجهت بعض الحكومات الوطنية في بلدان الشرق الاوسط إلى شراء السلاح من بلدان المنظومة الاشتراكية بهدف الدفاع عن استقلالها وسيادتها الوطنية واختياراتها الحرة في وجهة تطور بلدانها والتصدي لمحاولات التدخل في شؤونها الداخلية والاطاحة بالنظم الوطنية فيها. وبهذا تم كسر احتكار بيع السلاح من جانب الدول الامبريالية إلى النظم الموالية لها فقط. ومنذ تلك الفترة دأب الامبرياليون على تشديد وتيرة تسليح دول المنطقة الرجعية واشاعة اجواء سباق التسلح بين بلدانها، وكذلك في مختلف بلدان العالم الثالث. واستطاعت المجمعات الصناعية العسكرية وسائر الشركات الاحتكارية المرتبطة بها جني ارباح خيالية من بيع السلاح وزيادة ميزانيات الانفاق

العسكري لهذه البلدان وعقد الاتفاقيات لاقامة صناعة عسكرية في العديد منها. وعلينا من حيث المبدأ الاعتراف بحقيقة مفادها ان وجود مصانع تنتج السلاح يعني التفتيش عن اسواق لتصريفه. ومن يقتني السلاح سيجد فرصة لاستخدامه، خاصة وان تركة الاستعمار القديم كبيرة حقاً وأساليب الاستعمار الجديد شريرة في اثارة النزاعات الاقليمية وتهيئة الاجواء «للحروب الصغيرة». والتربة على العموم صالحة لنشوء وتطوير المشكلات بين الدول وحدوث النزاعات الاقليمية الساخنة.

ان المنافسة على اقتناء السلاح وبيعه في العالم تصاعدت جداً. ومن الملاحظ ان نسبة عالية من السلاح المنتج في البلدان المتطورة، الرأسمالية منها والاشتراكية، تباع إلى بلدان العالم الثالث. والحال ان التسابق نحو بيع السلاح إلى مناطق التوتر في العالم يؤدي إلى مزيد من التوتر ويهدد بانفجار حروب اقليمية ويفتقد في الوقت نفسه للرؤية الانسانية الواقعية لمشكلات هذه البلدان والنتائج المحتملة عن هذا التسلح المتفاقم. وكانت الحرب العراقية ـ الايرانية اسطع نموذج لسيادة الرؤية اللاانسانية في بيع السلاح من جانب الدول المنتجة له أو المتاجرة به. فاثناء سنوات الحرب الثماني شاركت (٥٣) دولة في بيع السلاح وضخه إلى المعارك الجنونية. وفي الوقت الذي شاركت (٢٨) دولة رأسمالية واشتراكية ونامية في بيعه إلى طرفي النزاع، شاركت (١٦) دولة أخرى في بيعه إلى ايران فقط، و (٩) دول في بيعه إلى العراق فقط[6]. وبلغت مبيعات السلاح إلى البلدين في الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧ (أي خلال خمس سنوات من الحرب فقط) (١٨ ١٣٣) مليون دولار، عدا ما اشتراه البلدان من السوق السوداء، وخاصة ايران[7].

وخلال فترة الحرب كثفت الولايات المتحدة الامريكية من صادراتها العسكرية إلى دول المنطقة بشكل خاص. ففي الفترة الممتدة بين ١٩٨٤ ـ ١٩٨٨ بلغ مقدار مبيعات السلاح و «المنح» العسكرية الامريكية لبلدان العالم الثالث ٢١,٣ مليار دولار. علماً بان للشرق الاوسط حصة الأسد منه. واستأثرت كل من اسرائيل ومصر بأعلى المساعدات بين دول الشرق الاوسط بلغت نسبتها ٥٥,٢ في المئة و ٤٠,٠ في المئة على التوالي، أي انهما استحوذتا معاً على ٩٥,٢ في المئة منها، أو ما قيمته (١٣ ٦١٤) مليون دولار[8]. وليست خافية على أحد صفقات الاسلحة الفلكية التي عقدتها المملكة العربية السعودية خلال السنوات العشر المنصرمة والتي تمتد أيضاً حتى منتصف العقد الأخير من هذا القرن مع الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وغيرها من الدول الرأسمالية المتطورة والنامية، وكذلك ضخامة ترسانة الاسلحة الهجومية الموجودة في اسرائيل. فخلال الفترة الممتدة بين ١٩٧٨ ـ ١٩٨٦ اشترت اسرائيل (٥١ ٢٣٢) مليون دولار احدث الاسلحة، اضافة إلى المساعدات العسكرية الامريكية[9].

وتجدر الاشارة إلى ان النفقات العسكرية السنوية لبلدان العالم الثالث تلتهم نسبة عالية من اجمالي الناتج المحلي، وهي تزيد عدة مرات على المبالغ المخصصة لاستيراد الاسلحة. ويمكن ايراد مثال واحد للتدليل على هذه الحقيقة. ففي الوقت الذي انفقت السعودية (٦١٧ ٣) مليون دولار لشراء الاسلحة في الفترة الممتدة بين ١٩٨٣ - ١٩٨٥، بلغت النفقات العسكرية الأخرى خلال ذات الفترة (٠٦٥ ٥٦) مليون دولار. أي ان التناسب بين مقدار شراء الاسلحة ومقدار النفقات العسكرية بلغ ١ : ١٦,٥ ويلغ اجمالي النفقات (٦٨٢ ٥٩) مليون دولار[١١]. وبهذا يستطيع المرء تقدير مدى ضخامة النفقات العسكرية لبلدان العالم الثالث عندما تكون مشترياتها من الاسلحة بتلك الضخامة التي أشير اليها سابقاً. والسؤال الذي يتطلب الاجابة الواقعية هو: هل يمكن ايقاف سباق التسلح بين بلدان العالم الثالث وفي مقدمتها اسلحة الفتك الجماعي؟ والجواب نعم. ولكن كيف؟

لابد لنا من حيث المبدأ من الاقرار بما شخصه الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف بصواب بان العالم الذي نعيش فيه هو عالم واحد، انه عالم متنوع ومتناقض ولكنه يبقى واحداً، حيث تتجاور فيه مختلف النظم الاقتصادية الاجتماعية، وفي مراحل متباينة من مستويات تطورها. **وأن هذا العالم يجب ان يعيش في ظل أمن وسلام دائمين.** ويزداد افق البشرية اشراقاً في تحقيق هذا الهدف كلما قطعت شوطاً جديداً على طريق تخفيف حدة التوتر الدولي وايقاف سباق التسلح النووي ونزع متواصل له وتقليص القوات المسلحة التقليدية. وكلما يمكن تعزيز التفاهم والثقة بين الدولتين العظميين والحلفين العسكريين (وارشو والاطلسي) يزداد الاقتراب أكثر فأكثر من ذلك الهدف النبيل.

ولدى الانتعاش الديمقراطي في العلاقات الدولية واشاعة الثقة المتبادلة والتخلي عن أساليب العنف والتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى من جانب الدول الامبريالية لتحقيق مصالحها الاستعمارية تزاد القدرة على معالجة المشكلات والنزاعات الاقليمية والدولية وبالتالي تزداد امكانية السير على طريق ايقاف سباق التسلح وتقليص ترساناته القائمة وثم نزعها من بلدان العالم الثالث.

ان القضايا البارزة التي تساعد اليوم على زيادة التسلح في هذه البلدان تتمثل في وجود العديد من المشكلات وبؤر التوتر الاقليمية من جهة ومواصلة سياسة المجمعات العسكرية الصناعية في الدول الرأسمالية المتطورة وكذلك العديد من الدول الأخرى على انتاج المزيد من الاسلحة وتطوير اجيال جديدة منها وزيادة حجم مبيعاتها سنة بعد أخرى من جهة ثانية. وازاء هاتين القضيتين يفترض توجيه الجهود وايجاد الحلول العملية لهما..

وبصدد انتاج الاسلحة التقليدية تقدم الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف بعرض

عملي إلى الجمعية العامة للامم المتحدة ضمن خطابه القيم في عام ١٩٨٨ ينص على تحويل تجريبي لبعض مصانع السلاح في الاتحاد السوفييتي إلى مصانع للانتاج المدني، وتعميم تجربته في هذا الصدد على البلدان الأخرى(١١). وكم يتمنى المرء ان تحفز هذه المبادرة الانسانية بقية البلدان إلى سلوك السبيل نفسه. ونرى ان الوقت مناسب حالياً لعقد مؤتمر دولي يناقش سبل الحد من انتاج الاسلحة التقليدية وتقليص المخزون منها والحد من بيعه إلى مختلف البلدان، وبخاصة تلك البلدان التي تتميز علاقاتها بالتوتر.

وبصدد تقليص التسلح والحد منه ومعالجة المشكلات المفجرة للنزاعات الساخنة نقترح الاجراءات التالية التي يمكن، عبر المناقشة، مقاربتها من الواقع، والأخذ باتجاهاتها الاساسية. ونعتقد بان الجمعية العامة ومجلس الأمن الدولي قادران على تحمل عبء النهوض بهذه المهمات واتخاذ وتنفيذ الاجراءات المناسبة من خلال مناقشة واقرار جملة من المقترحات.

● حصر النزاعات الاقليمية والدولية الملتهبة واتخاذ الخطوات العملية لمعالجتها ومنع انتشار أو دخول عوامل أخرى مؤججة لها، منها مثلاً: التعجيل بعقد اتفاقية السلام بين العراق وإيران، مراقبة تنفيذ الاتفاقية بشأن ناميبيا، تنفيذ اتفاقية جنيف بشأن افغانستان... الخ.

● وضع الرقابة الدولية على بؤر التوتر والمشكلات التي تهدد بالانفجار وتشكيل لجان مختصة لدراسة المشكلات القائمة في مختلف مناطق العالم لثالث. ووضع آلية فعالة وديناميكية تستطيع ان تفعل بسرعة لمنع تفاقم المشكلات الاقليمية وتجنب وصولها إلى النقطة الحرجة.

● تكثيف الجهود المبذولة لاقامة مناطق منزوعة السلاح النووي والتقليدي وخالية من القواعد والقوات والاحلاف العسكرية، مثل منطقة المحيط الهادىء، والبحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والقرن الافريقي، والمحيط الهندي... الخ. ومنع المناورات العسكرية ووجود الاساطيل الحربية للدول الكبرى فيها.

● انسحاب القوات المسلحة في مختلف البلدان إلى داخل حدودها مسافة (٢٠) كيلو متراً، والاكتفاء بنقاط مراقبة خاصة بالاغراض الأخرى...

● الدعوة إلى تقليص القوات المسلحة في جميع بلدان العالم الثالث إلى تناسب معقول يوفر، كمرحلة أولى، ما يطلق عليه «الدفاع المعقول». ويمكن ان يبدأ هذا التخفيض من السنوات الأولى للعقد الجديد من هذا القرن ويصل إلى حدود (٥٠) في المئة من قوات كل بلد قياساً لحجمها في عام ١٩٩١. ثم تبدأ فيما بعد مرحلة جديدة ووفق معطيات جديدة.

● الدعوة إلى الكف عن شراء الاسلحة وتخفيض المخزون الراهن منها إلى حدود النصف

بالارتباط مع تخفيض القوات المسلحة واستخدام الممكن منه لاغراض التنمية.

● تحويل تدريجي للمنشآت الصناعية في بلدان العالم الثالث إلى منشآت للانتاج المدني ووفق برنامج عملي، وتحويل جزء متزايد من التخصيصات العسكرية السنوية لاغراض التنمية الوطنية.

● معالجة مشكلات أمن بلدان العالم الثالث في إطار نظام فعال للأمن الدولي الجماعي. ويتطلب هذا الأمر تكوين فرق للسلام تابعة للامم المتحدة مهمتها ضمان الأمن والسلام في المناطق التي يمكن ان تشكل بؤراً لحروبٍ ساخنة، أو اتخاذ مواقع لها على الحدود بين بلدين تنغص علاقاتهما مشاكل معينة، أي اعادة الحياة لتلك المواد من ميثاق الامم المتحدة التي خنقتها ظروف الحرب الباردة سنوات طويلة.

● وضع الضوابط المقيدة والمانعة لاحتمالات التدخل في الشؤون الداخلية لبلدان العالم الثالث من جانب الدول الامبريالية. ويمكن للامم المتحدة ومؤتمراتها الدولية وضع الضمانات المناسبة بهذا الاتجاه وتأمين تأييد واسع من جانب الرأي العام العالمي لها.

● ايلاء الاهتمام بالمعايير الاخلاقية ذات المضامين الانسانية العامة المرتبطة بقضايا الحرب والسلام واستمرار وجود الانسان ومشكلات بلدان العالم الثالث ذات الطبيعة الانسانية الشمولية التي في مقدورها التأثير على قضايا بيع السلاح وتكديسه في هذه البلدان. انها لا ترتبط بحملة اخلاقية عامة بقدر ما هي نتاج للتطور الجديد في القوى المنتجة على النطاق الدولي والعصر النووي التي تفترض مقاييس انسانية عامة[١٢].

● ايلاء عناية خاصة بتطوير العلاقات الانسانية والثقافية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية بين شعوب مختلف البلدان، وخاصة بين الدول المتجاورة لخلق ضمانات واقعية لحل الخلافات التي تنشأ بالطرق السلمية واقامة أمن وسلام دائمين.

وفيما عدا ذلك تتطلب هذه العملية ايلاء اهتمام كبير دائم بتطوير موقف الرأي العام العالمي والمجتمع الدولي، وكذلك المؤسسات والهيئات الوطنية والدولية، الرسمية والشعبية ذات الاهداف الانسانية، من قضايا حقوق الانسان والديمقراطية في بلدان العالم الثالث، لادانة النظم الدكتاتورية والعسكرية والمتطرفة التي تمارس الارهاب والاضطهاد ضد شعوبها، والتي تخنق الحريات الديمقراطية وتدوس كرامة الانسان وحقوقه المشروعة.

كما لابد ان يقترن هذا النشاط بجهود كبيرة لتغيير اوضاع البلدان النامية الاقتصادية والاجتماعية وتوفير آلية واقعية لضمان تطور معجّل في معدلات النمو السنوية لانتاجية العمل والدخل واشباع حاجات السكان الاساسية ومكافحة المشكلات الكبيرة التي تواجهها كالجوع والمرض وانتشار استعمال المخدرات وتلوث البيئة والتصحر... الخ.

ان صياغة هذه وغيرها من المقترحات في قرارات وقواعد ملزمة دولياً تصدر عن

الجمعية العامة للامم المتحدة وعن مجلس الأمن ووضع برنامج عملي ملزم للجميع وتوفير مستلزمات وضمانات تنفيذه ومنع ارتكاب الحماقات الجنونية بحق الشعوب، ستوفر افضل الاجواء لتحقيق حل الخلافات والنزاعات بالطرق السلمية والسير الحثيث على طريق نزع السلاح التقليدي من بلدان العالم الثالث.

---

(١) راجع: SIPRI Yearbook 1988, World Armaments and Disarmament, Oxford University Press, p. 204/205.

(٢) راجع: نفس المصدر السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) راجع: نفس المصدر السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) راجع: نفس المصدر السابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٥) راجع: نفس المصدر السابق، ص ١٠١ - ١٢١.

(٦) راجع: SIPRI Yearbook 1987,

راجع أيضاً: Fadil Rascus, IRAK - IRAN, Ursachen and Dimensionen Eines Konfliktes, Böhlau, 1987, s. 164.

(٧) راجع: مصدر سابق، ص ١٩١.

(٩) راجع: مصدر سابق، ص ١٦٤، بالاسعار الثابتة لعام ١٩٨٦، SIPRI Yearbook 1987 .

(١٠) راجع: نفس المصدر السابق، ص ١٦٤، بالاسعار الثابتة لعام ١٩٨٦.

(١١) راجع: خطاب ميخائيل غورباتشوف في الامم المتحدة عام ١٩٨٨.

(١٢) M. Hassmeir, Zum Verhältniss von Allgemein - menschlischen und Klassen Spigifischen in der moral, Deutsche Zeitschrift Fuer philosophie Nr. 1/1989, Berlin, 5. 62 - 66

ولادة الحزب الاشتراكي المجري

شاندور سورتشيك

«ولقد كان ذلك حدثاً جذب اهتمام المجر كلها وسوف يؤثر دون شك بشكل كبير في مستقبلها وفي مصير الامة». ان هذا التقويم ينطبق على مؤتمر حزب العمال الاشتراكي المجري الـذي جرى في تشرين الأول ١٩٨٩. فبعد مناقشة حادةٍ جرى الاعلان عن تأسيس الحـزب الاشتـراكي المجري، وبالتالي، انتهى تاريخ حزب العمال الاشتراكي المجري الذي كان منذ عام ١٩٥٦ في دست السلطة بوصفه حزباً للدولة.

من الكونفرس الحزبي إلى المؤتمر

عانى المجتمع المجري في النصف الثاني من الثمانينات وضعاً متأزماً، فقد تعاظم لدى جميع فئات سكانه السخط وقلّ نفوذ السلطة السياسية وتعمقت الازمة الاخلاقية، وكل ذلك كان يقلل من الايمان بامكانات تحقيق الاهداف الاشتراكية.

كما أسفر الوضع الذي وقع فيه البلد عن ضرورة عقد الكونفرنس الحزبي لعموم المجر في أيار ١٩٨٨ دون انتظار المؤتمر الاعتيادي لحزب العمال الاشتراكي المجري. ولأول مرة خلال الثلاثين عامـاً ونيف المنصرمة قدِّم تقويم انتقادي لنشاط قيادة الحزب

* ممثل الحزب الاشتراكي المجري في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»

وهيئاته التنفيذية ولنشاط الحكومة ومؤسساتها. وقد توصل الكونفرنس إلى الاستنتاج القائل بان التقدم وازدهار الأمة، يتطلبان تحولاً جذرياً عن النهج الذي أدى إلى الازمة والتعجيل بالاصلاحات في جميع المجالات والتجديد المنسق للنظامين الاقتصادي والسياسي واطلاق القوى المبدعة في المجتمع. وكان يعني ذلك، قبل كل شيء استخدام آلية السوق في الحياة الاقتصادية وتكوين نظام جديد للمؤسسات السياسية على أساس التعددية والشرعية، والأهم من ذلك على ما يبدو ـ اعادة بناء حزب العمال الاشتراكي المجري على أساس تطوير الديمقراطية داخل الحزب.

لقد بدأت التحولات الواسعة النطاق بعد الكونفرنس الحزبي، اذ تعاقبت الاجراءات الاصلاحية بوتائر دينامية في مجال السياسة والحقوق، وتم اقرار قوانين جديدة، وبدأت المناقشة حول مفهوم الدستور المجري، ووضعت الممهدات لتحقيق تعددية الاحزاب، وتغيرت العلاقات المتبادلة بين الحكومة والبرلمان... الخ. كما ظهرت عشرات الحركات الاجتماعية السياسية والاتحادات والنوادي والحلقات ومختلف أشكال الجمعيات الواحدة تلو الأخرى. وتم بعث الأحزاب التي مارست نشاطها من قبل وهي الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب الملاكين الصغار وحزب الفلاحين، الأمر الذي مهد لقيام وضع خاص لحزب العمال الاشتراكي المجري اذ ترتب عليه التكيف مع الظروف المتغيرة. ومع اشاعة الديمقراطية في الحياة الحزبية انتعش نشاط منظمات الحزب وهيئاته وجرت المناقشات حول الاخطاء الماضية وتطور البلاد وما إلى ذلك.

وبرزت في الحزب تيارات متناقضة، فرأى البعض في ضرورة تبديل نموذج الاشتراكية تخلياً عنها، ورأى آخرون ان القيادة التي ابتعدت عن الماركسية هي التي فشلت في المجر وليست الماركسية نفسها، ونادى طرف ثالث بحزب من طراز ستاليني، كما كان هناك من أعلن عن ثورة داخل حزب العمال الاشتراكي المجري.

وبعبارة أخرى، تقدم المجتمع المجري في أواخر هذا العقد إلى مرحلة انعطافية، اذ استنفذ النظام الاداري الاوامري المنبثق من الستالينية احتياطاته. ولم يكن بالامكان التغلب على الأزمة الناشئة إلا عبر اعادة بناء عميقة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ان القوى الاصلاحية الموجودة، منذ عقود، داخل حزب العمال الاشتراكي المجري، اذ استلهمت الحركات الاخرى المعنية بالتحولات واستفادت من الظروف الخارجية الملائمة، فتحت الطريق للانتقال السلمي من اشتراكية الدولة إلى الاشتراكية الديمقراطية. إلا ان التجديد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الراديكالي الشامل اقتضى تشكيل حزب جديد.

الحزب الاشتراكي المجري - حركة اشتراكية يسارية

بدأ المؤتمر الاخير لحزب العمال الاشتراكي المجري أعماله ضمن هذا الجو السياسي المعقد الذي رافقه الغموض الاقتصادي. ان أربعة أخماس المندوبين من أصل ١٣٠٠ مندوب تقريباً، يشاركون للمرة الأولى، في مؤتمر كهذا. وكان ٨٥ في المئة من المنتخبين يحملون شهادات عليا وتراوحت أعمار ٨٠ في المئة منهم بين ٣٠ ـ ٤٥ سنة، وكان ٨ في المئة من المندوبين من النساء، وشكل كل من العمال والشباب والمتقاعدين نسبة ٣ في المئة، وتمثلت جميع مناطق المجر بمجموعاتها الخاصة، كما كان هناك مندوبون يمثلون وزارة الدفاع والداخلية وقوات حرس الحدود.

إلا ان المجموعات التي شكلت على اساس البرامج، على ألا يقل عددها عن ١٢ مندوباً، هي التي اضطلعت بدور رئيسي، وليس الاتحادات الاقليمية، الأمر الذي ميز هذا المؤتمر بشكل جذري مقارنة بالمؤتمرات السابقة.

وكان (الاتحاد من أجل الاصلاحات) أكثر المجموعات تمثيلاً وراديكالية، كما يبدو، اذ كان ينادي باجراء تحول جذري داخل الحزب الذي أوقع البلاد في مأزق تاريخي، ومن أجل القطيعة مع تلك الاجهزة الضخمة التي كانت تقوم بوظائفها بوصفها سلطة للدولة، وبغية حل الخلايا الحزبية في المؤسسات وهيآت وزارة الداخلية والمحاكم، كما وقف ضد القادة الذين فقدوا الثقة وضد المحافظين «السريين». وقد ضم هذا التكتل في البداية حوالي ٤٦٠ شخصاً وازداد عددهم قبل نهاية المؤتمر بنسبة ١٠ ـ ١٥ في المئة.

أما المجموعة الأخرى فهي (المجموعة الشعبية الديمقراطية)، وقد انخرطت في المؤتمر وعدد مندوبيها ٤٠ مندوباً. غير ان برنامجها المتزن الذي وافق عليه الكثيرون بوصفه حلاً وسطاً جذب إلى جانبه قرابة ٣٠٠ مندوب. وترفض هذه المجموعة مثل (الاتحاد من أجل الاصلاحات) الاشتراكية البيروقراطية والاستبدادية، ولكنها خلافاً للأخير تعتبر ملكية الدولة وادخال عناصر التسيير الذاتي في العمليات الديمقراطية العنصر الأهم.

وتبين ان هاتين المجموعتين.وكذلك المجموعات الأخرى التي كانت أقل عدداً منها بكثير مثل (المجموعة الشبابية) ومجموعة (من أجل مساواة الفرص أمام الاطراف) و (المجموعة الزراعية الغذائية)، وقفت إلى جانب انشاء حزب جديد ـ حزب اشتراكي يساري. أما ممثلو الاتجاهات الأخرى ومنها اتجاه «من أجل حزب العمال الاشتراكي المجري» واتجاه «التلاحم من أجل تجديد حزب العمال الاشتراكي المجري» (٣٥ و٣٠ مندوباً على التوالي) فقد تمسكوا بوجهة نظر أخرى ووقفوا ضد تغيير تسمية الحزب. ورأى انصار اتجاه من «أجل حزب العمال الاشتراكي المجري» انه لم يكن من صلاحية المؤتمر

حل حزب العمال الاشتراكي المجري. (وقد حلت هذه المجموعة نفسها بنفسها في نهاية المؤتمر) أما الحركة الثانية فكانت تقف، قبل كل شيء، من أجل الوحدة داخل الحزب السابق، لكن انصار التجديد فيه شكلوا أقلية فتكون الحزب الاشتراكي المجري وقد صوت ضده ١٥٩ مندوباً من اصل ١٢٠٢ كانوا في قاعة المؤتمر وامتنع ٣٨ مندوباً عن التصويت.

لقد جاء في قرار المؤتمر ان الحزب الاشتراكي المجري يعتبر نفسه خلفاً للمساعي الاصلاحية التي كانت قائمة في حزب العمال الاشتراكي المجري وان الحزب الجديد يعترف دون تحفظ بالقيم الانسانية العامة، وهي الانسانية والحرية والديمقراطية واحترام العمل البناء.

هذا ويواصل الحزب الاشتراكي المجري التقاليد والقيم التي لا تشيخ مع مرور الزمن للحركتين الاشتراكية والشيوعية ويتبنى مبادىء التضامن والعدالة الاجتماعية ويبني نشاطه على التسامح العقائدي والسياسي.

ويتحول الحزب الاشتراكي المجري من حزب للدولة إلى حركة اشتراكية يسارية معاصرة وحزب سياسي جماهيري يخضع لرقابة أعضائه. وسوف يستمد جهده الخلاق الهام من الافكار الرئيسية للماركسية، وهدفه بناء الاشتراكية الديمقراطية. واذ يتمسك الحزب بثبات بقوانين دولة القانون، فانه مستعد للتلاحم مع جميع القوى الموافقة على التعاون من أجل اخراج البلاد من الازمة. انه يزمع المساهمة في بناء ديمقراطية برلمانية متعددة الاحزاب تستند على الملكية المختلطة واقتصاد السوق ذي التوجه الاجتماعي ونظام التسيير الذاتي.

ان الحزب الاشتراكي المجري ليس حزباً شيوعياً بالمعنى السابق للكلمة وليس حزباً اشتراكياً ديمقراطياً. انه حزب اشتراكي يبحث عن امكانات الاندماج المستقبلي لكلتا الحركتين.

وقد تساءل ر. نيرش رئيس الحزب الجديد في المؤتمر، بقوله: ما الذي ينبغي ان نتخلى عنه؟ وأجاب: قبل كل شيء، عن السياسة الطبقية الضيقة الافق والمتحجرة. طبعاً لا يدور الحديث عن نسيان مصالح الطبقة العاملة والفلاحين التعاونيين والمثقفين، ونختلف مع الذين يرغبون في تحويل الحزب الواحد إلى حزب برجوازي. ويتخلى الحزب عن مبدأ المركزية الديمقراطية وديكتاتورية البروليتاريا، كما يتخلى عن جميع أشكال الستالينية والستالينية الجديدة.

يجب ان يكون الحزب الاشتراكي المجري منظمة للجماهير. لكن من يدعى للانضواء تحت لوائه؟ انهم، قبل كل شيء، الاشخاص الذين يعيشون من كدحهم ولكنه

أيضاً أرباب العمل الصغار؟ المواطنون المجريون وسواهم من القوميات الأخرى. وقد دعا المؤتمر في ندائه الخاص جميع الذين يوافقون على البرنامج السياسي والنظام الداخلي للحزب الجديد، للانضمام اليه. ويمكن لمن يعارضه الرأي المشاركة في نشاط الحزب، الأمر الذي يعتبر أحد المبادىء الرئيسية المعلنة في المؤتمر. فالحزب يقوم على شكل تحالف بين مختلف الخطط. والمنطلقات الاساسية في نشاطه هي الطواعية والاعمال المشتركة في ظل التضامن والمبادىء والاهداف السياسية المشتركة. وتتميز حياة الحزب الداخلية بالديمقراطية الواسعة وتعتبر ارادة أعضائه وتشكيل التكتلات والقيام بالتحركات السياسية المشتركة.

هدفنا ـ مجتمع اشتراكي ديمقراطي

يرى الحزب الجديد ان الانتقال إلى الاشتراكية الديمقراطية يمر عبر انشاء دولة تقوم سياستها الاجتماعية على اقتصاد السوق الفعال، علماً بان هذا النهج لن يشكل عبئاً على الاقتصاد الوطني بل سوف يتحول إلى جزء عضوي لاعادة الانتاج الاجتماعية. ويكمن هدفنا في انشاء دولة يكون المواطنون مرتاحين في كنفها وبامكانهم تطوير قابليتهم وتجسيد مصالحهم وخلق مقدمات للحياة الآمنة وضمان مستقبل اطفالهم.

كما يعتزم الحزب الاشتراكي المجري ضمان الطابع الاشتراكي للنظام الاجتماعي. ولتحقيق ذلك ستعطى الاولوية إلى التطوير الحر للجماعة والفرد والغاء طابع السلطة القائم على الاغتراب والبيروقراطية والتمركز المفرط، وتشكيل التمثيل الشعبي في جميع مستويات النظام السياسي وادخال التسيير الذاتي والثقافة الديمقراطية والرقابة من جانب الشعب، اضافة إلى ضمان التطور الاجتماعي الديناميكي الذي من شأنه ان يؤدي مستقبلاً إلى تحقيق حقوق الانسان على أكمل وجه. ويسعى الحزب الاشتراكي المجري إلى تكوين نظام ثابت للعدالة الاجتماعية والتضامن وتكافؤ الفرص والحصانة الاجتماعية.

ان اقامة النظام السياسي للاشتراكية الديمقراطية يعني في المقام الأول بناء دولة القانون على أساس الوفاق الوطني الواسع وانشاء مؤسسة للتعبير عن الارادة الشعبية المباشرة وهي الاستفتاء العام، ومن شأن توزيع السلطة بشكل متوازن تفادي تمركزها المفرط وضمان استقلالية التسيير الذاتي المحلي والاقليمي وسوف تمارس المجالس المحلية عملها على اساس التمثيل الشعبي، بينما يخضع البرلمان إلى رقابة فعالة من قبل الرأي العام والمحكمة الدستورية. ويقوم النظام السياسي على الفصل بين السلطات

القضائية والتنفيذية والتشريعية، وسوف تصبح تعددية الاحزاب ضمانة للحريات المدنية. هذا وتمارس فعلها الاليات المستقلة لتمثيل المصالح، الاجتماعية والضمانات الدستورية لحماية الاقليات الاثنية والدينية وغيرها.

ان تحقيق الاصلاح في الملكية هو أهم مقدمة للتجديد الاقتصادي في فترة الانتقال إلى الاشتراكية الديمقراطية. ويرى الحزب الاشتراكي المجري انه من الضروري ايجاد نظام يساهم آنياً في التطور الاقتصادي والامن الاجتماعي على حد سواء. ان العناصر الرئيسية للبنية المتعددة الانواع للملكية في المجر قائمة وهي: ملكية الدولة التي تخدم المجتمع بأسره، والملكية الجماعية على أساس النوعين الاجتماعي والتعاوني، وملكية المؤسسات الاجتماعية والمنظمات الذاتية التسيير وكذلك الملكية الخاصة.

ويقف الحزب الجديد مع حرية حيازة الملكية والتصرف بها، اذ ان اكتساب الملكية على أسس قانونية لا يلحق ضرراً بالحقوق المدنية للمواطنين الآخرين، ولا يعني عودة إلى الرأسمالية. ويتطلب الأمر جعل ملكية الدولة أكثر ديمقراطية قبل كل شيء، وينبغي ان تنقل إلى ملاكين جدد بموجب ما يقره القانون وفي ظل رقابة اجتماعية. وسوف تغدو الملكية التعاونية بعد تخلصها من اشراف الدولة نوعاً مهماً من الملكية الاجتماعية. كما سوف تنشأ في سير الاصلاح ملكية بلدية تعود إلى المدن والبلديات، وستتسع دائرة الملكية هذه عن طريق انشاء مختلف الارصدة العائدة للمنظمات والدوائر.

ويرى الحزب الاشتراكي المجري انه يمكن للملكية الخاصة ان تنضم بانسجام إلى نظام الملكية العامة وجلب الخير للشعب عموماً، وليس لاصحابها فقط. ونظراً لتعاظم المشاريع الحرة يتطلب الأمر ضمان مشاركة العمال والمستخدمين في حل مسائل التسيير الاقتصادي وبعبارة أخرى، يقف الحزب مع تنوع أشكال الملكية ويزمع تحقيق الضمان الدستوري لمساواتها الاقتصادية وأمنها بما في ذلك للرأسمال الاجنبي.

وقد أجمع مندوبو المؤتمر على انه يجب ان يكون للمجر اقتصاد سوق، علماً بأن السوق ليست فقط البضائع بل والايدي العاملة ورأس المال والأرض والمعلومات. ويتطلب أمر توسيعها ازالة الدعم الحكومي غير المبرر والتغلب على العواقب السلبية للتمركز المفرط للسلطة الاقتصادية والتخلي عن احتكار المؤسسات وانعاش المزاحمة والمشروع الحر. ويؤكد الحزب على ما يأتي: «اننا نناضل ضد الافقار وليس ضد الاغتناء». لذلك يقف إلى جانب منح معونة اجتماعية لعاملي المؤسسات المتخلفة في المزاحمة، ومن أجل تطوير نظام التعليم واعادة اعداد الكوادر وتهيئة فرص عمل جديدة.

كيف سيكون دور الدولة؟ في جميع الدول المتطورة تؤمن الدولة تنظيم علاقات السوق وتحمي الاقتصاد من التأثيرات الوخيمة وتحفز ادخال التكنولوجيات الحديثة.

فالدولة المعاصرة واقتصاد السوق يفترضان وجود الاثنين ويقيدان بعضهما البعض.

لقد جاء في الكثير من المداخلات التي القيت أثناء المؤتمر ضرورة توزيع المداخيل بشكل عادل. اننا نعترف بشرعية أية مداخيل (بما في ذلك عوائد رأس المال وكذلك، مداخيل المشروع الحر والمكافآت لقاء التطوير والوساطة) اذا استعملت بصورة فعالة، لخير المجتمع، وذلك إلى جانب الاجور والرواتب. ولدى الناس الذين يجازفون ويبحثون عن طرق جديدة حق مبرر في الحصول على أجر مرتفع، الأمر الذي لا يتعارض مع مبدأ العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، بل يرسي له اساساً مادياً واقعياً. وجاء في الاعلان البرنامجي للحزب الاشتراكي المجري ما يأتي: اننا نسعى إلى تحقيق ذلك النموذج الاجتماعي السياسي والاقتصادي والتوزيعي الذي يكون فيه حب العمل من قبل المواطنين والضمان الاجتماعي المؤمن من جانب الدولة، أساساً للمعيشة اللائقة بالانسان.

لا ينبغي خضوع النظام الضريبي للمنفعة الآنية: وإلا لتقلصت المصلحة في العمل أكثر وأفضل وفي الاغتناء الروحي. ويرى الحزب الاشتراكي المجري ان المهمة الرئيسية للسياسة الاجتماعية تكمن في تقليل الفوارق الضخمة في مستوى المعيشة. وان وضع استراتيجية انشاء فرص عمل جديدة وبرامج التعليم واعادة الكادر وانعاش المشروع الحر وتوسيع امكانات الهجرة للعمل في الخارج وادخال نظام التشغيل الجزئي وغيرها من التدابير ترمي إلى التقليل إلى الحد الأدنى لعدد الذين لا يعملون. كما جاء في برنامج الحزب «اننا ما نزال نرى ان الحق في العمل والحصانة الاجتماعية هما قيمة رئيسة، لكننا نفسرهما بوصفهما تأميناً لمعيشة الناس وعائلاتهم وليس تأميناً للمؤسسات الخاسرة». ويؤكد الحزب بحزم على انه يقف إلى جانب تغيير الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تعيد انتاج مستوى المعيشة المنخفض.

ويعتبر الحق في الصحة أحد أهم حقوق الانسان، ويتطلب ذلك ضرورة تحسين الظروف المادية لاداء نظام رعاية الصحة مهماته وزيادة الاموال الموجهة لتحقيق هذه الاهداف من الدخل القومي. اننا انصار التسيير الاقتصادي الذي يحمي الطبيعة ويوفر الطاقة. كما أعيرت مسائل اعانة الاسرة والشباب والمتقاعدين اهتماماً خاصاً في برنامج الحزب.

ويرى الحزب الاشتراكي المجري ان التطوير العلمي ورفع مستوى التحصيل العلمي والثقافة هي من أبسط شروط التقدم. وينبغي تحقيق انعطاف راديكالي فوري في التشجيع المادي والمعنوي للعمل الابداعي ونشاط المثقفين، كما يقف الحزب ضد احتكار الدولة في ميدان التعليم، وإلى جانب استقلاليته وحريه.

موقعنا في العالم

سوف يساهم الحزب الاشتراكي المجري على الصعيد العالمي وجنباً إلى جنب مع القوى التقدمية والديمقراطية في حل قضايا العصر الراهن، ويشجع على تنظيم العلاقات الاقتصادية والسياسية ذات النفع المتبادل مع جميع البلدان. ويجب ان تتقدم المجر مع الدول المتطورة في اتجاه مضاعفة المنجزات الجديدة للحضارة البشرية، وان تسعى إلى ان تكـون مشـاركـاً نشيطاً في التكامل العالمي في الاقتصاد والعلم والثقافة وكذلك في العلاقات الانسانية.

ويناضل الحزب في سبيل مجر مستقلة، اذ لا يمكن ضمان المصالح الوطنية إلا عبـر مراعـاة الالتـزامـات التحالفية للبلاد على أساس التقويم الصائب للوقائع العالمية الناشئة. ويؤكد الحزب أهمية العلاقات المتبادلة الموزونة مع الاتحاد السوفييتي. ويساند جميع الخطوات السياسية والعسكرية التي تخدم مصلحة توطيد الانفراج في اوربا. ويجب على المجـر بوصفهـا عضـواً في معـاهدة فرصوفيا المساهمة في تحقيق الاتفاقات بين الحلفين وتعميق الثقة وتخليص العلاقات بين الدول من المجابهة الايديولوجية. ويرى الحزب الاشتراكي المجري انه قد نضج الاصلاح الداخلي لمعاهدة فرصوفيا كما يتطلب الأمر اشاعة الديمقراطية في هذه المنظمة وتعزيز الطابع الدفاعي للمذهب العسكري.

كمـا يتـرتب على المجر التكيف للاتجاهات الاساسية للاقتصاد العالمي واتخاذ الاجـراءات الـرامية إلى درء تعاظم التضخم والبطالة في الوقت نفسه والذود الفعال عن المصالح الوطنية في تعاونها مع شركائها في مجلس التعاضد الاقتصادي. وتجدر الاشارة إلى ان المشاركة في هذه المنظمة تعتبر واقعاً موضوعياً بالنسبة لنا.

سوف يسـاهم الحزب الاشتراكي المجري في عملية بناء اوربا الموحدة، اذ ان مستقبـل المجر يتوقف، قبل كل شيء، على اوربا المستقبل هذه. ويجب ضمان أمن القارة ليس بالسلاح، بل بالتعاون السياسي والاقتصادي والثقافي وعبر العلاقات المباشرة بين الناس ومن خلال الثقة. ويرغب الحزب الجديد، بصدق، في تلاحم الشعوب القاطنة في حوض الدانوب.

وجاء في الاعلان البرنامجي ان الواجب الاخلاقي الرئيسي هو النضال المتسق من أجل احقاق حقوق الانسان ومساواة الاقليات القومية والتجسيد الحقيقي لهذه الحقوق سواء في المجر أو في العالم بأسره.

وقد أعلن الحزب الاشتراكي المجري بوصفه أحد المشاركين في الحركة اليسارية

الاوربية عن استعداده للتعاون مع جميع القوى التي تدرك مسؤوليتها ازاء مستقبل اوربا. ويدور الحديث، قبل كل شيء، عن اولئك الذين يناضلون في سبيل الاصلاحات وعن التيارات الشيوعية والاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية وغيرها من التيارات اليسارية المعنية بتحقيق رسالتنا التاريخية بنجاح، وعن مختلف انواع الحركات الجديدة من أجل حماية البيئة وصيانة السلم وعن المنظمات الشبابية والنسائية.

كما يزمع الحزب الاشتراكي المجري بناء علاقاته مع الاحزاب الأخرى على أساس الاحترام الدقيق لمبادىء الاستقلالية والمساواة والحرية التامة في التفكير والعمل بالنسبة لجميع الاطراف. ونريد ان نحافظ على العلاقات المتعددة الوجوه مع الاحزاب المنضوية إلى الحركة الشيوعية العالمية. ان اهتمامنا الخاص بتجربة الديمقراطية الاشتراكية مرتبط بوجود تقاليد مشتركة وبمنجزات الاشتراكية الديمقراطية الضخمة. وسوف يبحث الحزب الاشتراكي المجري عن مجالات التعاون المحتمل مع القوى السياسية البرجوازية أيضاً، فهو يقدر عالياً مساعي الانسانيين البرجوازيين التقدميين الرامية إلى ضمان السلم والديمقراطية والمساواة في العلاقات الاقتصادية. وهو على استعداد لتبني تلك القيم التي اثبتت طابعها المستقر.

انتهت أعمال المؤتمر بنشيد الاممية. وهكذا تم وضع نهج الحزب الاشتراكي المجري. وتتوقف ثقة ملايين المواطنين المجريين في المنظمة السياسية الجديدة التي سمت نفسها حزباً للشغيلة وللشعب على مدى وكيفية تجسيد هذا النهج.



كيف يجري الاصلاح الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي

اوتو لاتسيس*

تعتبر اعادة بناء ادارة الاقتصاد بصورة جذرية نهجاً رسمه الحزب الشيوعي السوفييتي في الاجتماع الكامل للجنة لحزب المركزية في حزيران (يونيو) عام ١٩٨٧ . وهذا النهج يوفر إمكانات جديدة للاستفادة من افضليات النظام الاشتراكي - ليس بالاقوال التي اصبحت في العقود الماضية رائجة، بل بالاعمال. لقد سبق ان تحدثت منذ ما يزيد على سنة[1] في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» عن بعض القضايا التي تهم شعبنا بشكل خاص. وأريد الآن متابعة الموضوع وتركيز الاهتمام على المسائل الأخرى التي تنكب عليها، قبل غيرها، قيادة البلاد الاقتصادية والسياسية على حد سواء.

غير انه حريٌّ بنا، على ما يبدو، أن نذكر، ولو بايجاز، الاسباب التي أدت إلى الوضع الاقتصادي المتأزم في الاتحاد السوفييتي. ان الطريق الذي ولجناه، منذ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٧ لم يكن مستقيماً. ذلك ان الاساليب الشيوعية العسكرية لتنظيم الانتاج والاستهلاك حلت محلها في العشرينات السياسية الاقتصادية الجديدة (النيب) القائمة على العلاقات السلعية النقدية. ان التصنيع الذي ابتدأ في نهاية العقد الثالث ارتقى بالبلاد بسرعة إلى مستوى نوعي جديد، غير انه اقترن، للاسف، بضمور (النيب). لقد احتل الاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية المرتبة الأولى في اوربا والثانية في العالم من حيث الانتاج الصناعي، وقد دفعت الحياة ذاتها والوضع الدولي المعقد إلى

* النائب الأول لرئيس تحرير مجلة «كومونيست»، دكتور في العلوم الاقتصادية (الاتحاد السوفييتي).

تنمية الفروع الاساسية قبل غيرها.

ولكن، نظراً لخصائص تاريخ البلد الاشتراكي الأول، الذي بقي مدة طويلة البلد الاشتراكي الوحيد، كنا نضفي طابعاً مطلقاً ليس على الطريق العام للتطور، بل أكاد أقول على الطريق الاستثنائي: نوع من الاقتصاد فرضته إلى حد بعيد الظروف الموضوعية وكرسته التشويهات الستالينية، وهو النوع الأكثر تكيفاً مع زمن الحرب. وليس من قبيل الصدفة ان هذا النظام أظهر اسمى افضلياته في اعوام ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ بالتحديد. فان صناعتنا ـ التي امتلكت قدرات تقل مرتين أو ثلاث مرات عما كان لدى المانيا الفاشية وحلفائها والبلدان الواقعة تحت الاحتلال الهتلري والتي فقدت في الأشهر الأولى من الحرب حوالي نصف المصانع والمعامل ـ استطاعت ان تنتج اسلحة أكثر وأفضل وان تضمن، في المحصلة النهائية، انتصار الشعب السوفييتي.

وقد بهرنا وهج هذه الاعجوبة عقوداً طويلة. ونتيجة ذلك استقرت في البلاد الطرق الادارية الاوامرية الافقية، لتسيير الاقتصاد اذ كان في اساس الاستراتيجية الاقتصادية لتلك السنوات الانتاج من أجل الانتاج.

لقد أعلن النهج نحو التنمية العمودية للاقتصاد في الاجتماع الكامل للجنة الحزب المركزية في نيسان (ابريل) ١٩٨٥ ومن ثم في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، هذا النهج الذي تعتبر كل البرامج الاجتماعية بدونه مجرد تمنيات طيبة، اذ رأينا المخرج في اعادة تنظيم الاقتصاد الوطني بصورة عميقة وعلى أساس احدث منجزات العلم والتقنية واعادة بناء الآلية الاقتصادية ونظام الادارة. وطرحت مهمة تغيير السياسة. البنيوية وسياسة التوظيفات. إلا ان قوة استمرار التفكير القديم والعمليات الاقتصادية السابقة وعدم التأمل الكافي في الخطوات الأولى والصراع بين مختلف المذاهب، كل ذلك ترك بصماته على مسيرة التحولات. وبدت عملية الانتقال أعقد مما كنا نعتقد.

ان النظام الاقتصادي الجديد المطبق منذ بداية عام ١٩٨٨ يعمل حتى الآن بشكل مبتور: لم ينجز اصلاح اسعار الجملة، لم تحل التجارة بالجملة محل التوزيع الاداري لموجودات وسائل الانتاج، بقيت قائمة الوظائف القديمة للوزارات القطاعية في ظل الحقوق الجديدة للمؤسسات. اننا نعيش مرحلة وقف فيها النموذج التقدمي للتو على رجليه وهو يخطو أول خطواته متهيباً ويقترف اخطاء ويكتسب خبرة. أما الآلية القديمة فعلى الرغم من انها لم تعد تعمل بحجمها السابق، إلا انها ما زالت تلحق الضرر بالاقتصاد الوطني عن عمد وعن غير عمد. وتعاظم في المجتمع، ولاسيما في السنة الأخيرة، النقد اللاذع وعدم الرضى عن نتائج التحولات. وتسارعت عملية الاستقطاب والتباين في الآراء والامزجة. ومما يدل على ذلك. اضرابات عام ١٩٨٩ في مناجم الفحم في الدونباس

(حوض دونيتسك) وكوزباس. (حوض كوزنيتسك) وفوركوتا وكذلك في بعض المؤسسات الأخرى.

يكمن السبب الرئيسي لذلك، في اعتقادي، في كون الناس لا يشعرون بثمار ملموسة للبيريسترويكا في الواقع الفعلي. وان العملية تجري فعلاً، ويتم اتخاذ قرارات حيوية واقرار مشاريع قوانين جديدة هامة: تحول الملكية، حول الأرض واستغلالها، حول الايجار وعلاقات الايجار وغيرها من المشاريع التي نظرت فيها دورة الخريف للسوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي. ولكن الحياة الواقعية تبدو وكأنها لا تتغير نحو الأفضل، بل وحتى تصبح أكثر صعوبة. يكفي ان نلقي نظرة على الرفوف الخاوية في المتاجر.

منـذ سنة ونصف أو سنتين أخذ الوضع في السوق الداخلية يتردى بصورة سريعة وملحوظة حتى بالعين المجردة،ففي فترة عام ١٩٨٦ وعام ١٩٨٧ وحدها استلمت التجارة سلعاً أقل مما تم تخطيطه بقيمة ٣٣ مليار روبل. ويستفاد من معطيات معهد دراسة حالة السوق والطلب لدى وزارة التجارة في الاتحاد السوفييتي ان ٢٣ مجموعة فقط من أصل ٢١١ مجموعة من المواد الغذائية كانت تعتبر في عام ١٩٨٨ غير ناقصة. والوضع أسوأ من ذلك بالنسبة للسلع الصناعية الواسعة الاستهلاك.

هذا مع العلم ان مرد ذلك ليس إلى انخفاض الانتاج ولا إلى انخفاض الحجم العام للاستهلاك. وإن المفارقة في الوضع تكمن في ازدياد انتاج الاكثرية الساحقة من السلع الاساسية في السنوات الأخيرة، وهذا الازدياد كان ملحوظاً في بعض الحالات. ومع ذلك فانه يتأخر كثيراً عن الطلب.

هاكم بعض الامثلة. كانت تحصل طوابير لشراء اجهزة التلفزيون غير الملونة في بلادنا في الخمسينات فقط، أما اجهزة التلفزيون الملونة فكانت منذ عشر سنوات تقريباً تباع بالتقسيط نظراً لفيض انتاجها. وفجأة اختفت كل الاجهزة التلفزيونية من المخازن، على الرغم من ان انتاجها في عام ١٩٨٨ قد ازداد بنسبة ٦ في المئة عموماً، وتصل هذه النسبة ١٥ بالمئة تقريباً في اجهزة التلفزيون الملونة.

ففي غضون تسعة أشهر فقط من عام ١٩٨٩ تم انتاج ٧,٣ ملايين جهاز، من بينها ٤,٦ ملايين جهاز ملون (أكثر مما في الفترة ذاتها من عام ١٩٨٨ بنسبة ١٠ في المئة) ومع ذلك إن شراءها بات معضلة. أو خذوا على سبيل المثال مسحوق الغسيل. فمنذ سنة خلت كان يكفي موسكو ما يساوي ٨٠ طناً يومياً من مثل هذه السلع، أما الآن فيباع ٣٠٠ طن، ومع ذلك يشكو الناس من انعدام امكانية شرائها، كما اختفى من رفوف المتاجر الصابون ومعجون الاسنان والدفاتر والبطاريات الكهربائية والسجائر والعديد من السلع الأخرى.

ان مرد هذا الطلب الجنوني يعود إلى تشويش السوق، الذي يسفر عن حالة لا تصل فيها الاحجام المتزايدة من السلع - بكل بساطة - إلى البيع المفتوح وتوزع حسب التوصيات وخلسة وفي الغالب من خلال المضاربة. كما يسفر ذلك عن تقنين غير مرغوب فيه للمنتوجات. وفي مناطق كثيرة من روسيا توزع اللحوم والسجق والزبدة والسكر بالبطاقات. وتتعطل تماماً قضية تنظيم الشراء استناداً إلى الاسعار، اذ يشتري الناس كل أنواع السلع لا لأنهم بحاجة اليها، بل لأن ثمة امكانية لاقتنائها. وهذه الظاهرة العصيبة جداً تسبب ليس قضايا اقتصادية واجتماعية فحسب، بل استياء سياسياً أيضاً.

لماذا، حصل ذلك؟ الاصلاح الاقتصادي مستمر، والعديد من التشويهات البيروقراطية أزيل، والخطة الخمسية وضعت بصورة أكثر عقلانية مما في السابق، والمسؤولون الاقتصاديون يتمتعون بكفاءات أعلى . . .

ومع ذلك. . ان السبب الرئيسي لانهيار السوق يعود، في اعتقادي إلى عجز ميزانية الدولة المتزايد تزايداً حاداً. كانت أرقام هذا العجز قبل وقت قريب، «سرية جداً» كما يقال. ولأول مرة أعلن في دورة تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٨ للسوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي ان مصروفات الدولة كانت على امتداد سنوات طوال تسبق مداخيلها. اذن، ليس عجز الميزانية وليد اليوم، بل قضية نجمت عن عدم اتزان الاقتصاد وعن الاعانات الكبيرة والخسائر الفادحة وفعل عوامل أخرى في السابق. لقد أشير في الدورة الأولى لمجلس السوفييت الأعلى الجديد في آب (اغسطس) عام ١٩٨٩ إلى ان عجز الميزانية بلغ ١٢٠ مليار روبل. وهذا مبلغ كبير جداً. اذ يشكل حوالى ربع النفقات السنوية للدولة. ذلك ان ماكنة طبع النقود الورقية التي عملت بلا توقف على امتداد عقود، وعدم الرقابة على نفقات الدولة قد أسفرا عن اصدار النقود بشكل مفرط وعن تداول الاوراق النقدية غير المدعمة بالبضائع.

ما هي أسباب عجز الميزانية؟ ان انخفاض اسعار النفط في السوق العالمية في النصف الثاني من الثمانينات قد اضطرنا إلى الاقتصاد في العملة الصعبة. ولكننا قمنا بذلك، للاسف الشديد، انطلاقاً من اعتبارات الدوائر الضيقة وليس من مصالح السكان وميزانية الدولة. وجرى كالسابق شراء معدات واجهزة كثيرة في الخارج للمؤسسات الجديدة من أجل ضمان نمو الانتاج، الأمر الذي يعتبر ضرورياً بالطبع من حيث المبدأ. إلا ان جزءاً كبيراً من المعدات بقي في السنوات الأخيرة في المستودعات، اذ اشتري منها أكثر مما يمكن استخدامه. وكنا نستورد الحبوب، في حين ان محاصلينا كانت تتلف في الحقول. وتدفقت إلى الاتحاد السوفييتي، مثل سيول عارمة، الاسمدة الكيمياوية المضرة بصحة الانسان، كما تبين الآن، هذه الاسمدة التي لا تستخدم، لهذا السبب، في الدول

الرأسمالية، بل تُعد للبلدان النامية. وفي الوقت نفسه تقلص جداً بند المصروفات الأكثر تواضعاً، الذي لا يمكن التوفير فيه كثيراً والذي يعتبر ضرورياً جداً لتلبية حاجات الناس ومفيداً للميزانية، ونعني به استيراد السلع الصناعية المعدة للاستهلاك العام. وهذا البند بالتحديد يعطي أكبر فاعلية من زاوية المصروفات والمداخيل.

وتفيد الحسابات ان توفير بضع مئات من ملايين الروبلات الذهبية القابلة للتحويل في فترة اعوام ١٩٨٥ ـ ١٩٨٧ في هذه الفئة من البضائع قد اسفر عن تخفيض في تدفق المنتوجات إلى التجارة بمقدار ٨,٢ مليار روبل وأضر بالوضع المالي إلى حد بعيد. ولم يتغير الوضع في عام ١٩٨٨، اذ انخفضت الاستيرادات أيضاً بمقدار ٤٠٠ مليون روبل ذهبي قابل للتحويل، علماً بان كل روبل منها يعود بـ ١٠ ـ ١٢ روبلاً عادياً ناجماً عن بيع سلع الاستهلاك الواسع للسكان. وخلاصة القول، فقدنا في غضون السنوات الثلاث الأخيرة حوالي ٤٠ مليار روبل بسبب انخفاض اسعار النفط العالمية وتقلص الاستيراد المذكور.

وعلى ما يبدو، فقدت الدولة مبلغاً مماثلاً من جراء الأساليب غير الموفقة تماماً في مكافحة الادمان على الكحول. لقد جرت هذه المكافحة، في رأيي، بفظاظة مفرطة، اذ جرى استئصال الكروم واغلاق المؤسسات المنتجة للكحول والفودكا. كما جرى تغيير تخصص مصانع البيرة (يبلغ عددها المئات، ان لم يكن ألوفاً) من انتاج البيرة إلى انتاج مشروبات غير كحولية. لا يمكن ان ننكر، طبعاً، ان تحقيق مثل هذه التدابير قد أدى إلى انخفاض مستوى «الاجرام الكحولي» وارتفاع المؤشرات الانتاجية وازدياد متوسط العمر، ولاسيما في السنة الأولى من الجولة. ولكن خسائر الميزانية، الناجمة عن انخفاض ضريبة بيع المشروبات الكحولية، بلغ في عام ١٩٨٦ وحده حوالي ١٠ مليارات روبل. وفي الوقت نفسه أخذ الادمان على المخدرات والمواد السامة وتقطير الكحول في البيوت بالانتشار، علماً بان المداخيل التي كانت الدولة تحصل عليها في الماضي تدفقت إلى جيوب المضاربين وصانعي الكحول السريين.

يمكن ان نحسب من خسائر الميزانية كذلك النفقات على ازالة عواقب الكارثة التي وقعت منذ أكثر من ثلاث سنوات في محطة تشيرنوبل الكهرذرية. كانت هذه الخسائر تقدر في البداية بمبلغ ٨ مليارات روبل، غير انني اعتقد انها تجاوزت الآن هذا المبلغ.

كما ازداد العجز بدرجة معينة بسبب تضاؤل الرقابة على نمو مداخيل السكان النقدية. على سبيل المثال، في غضون ٩ أشهر من عام ١٩٨٩ ازداد رصيد الاجور لمجمل الاقتصاد بنسبة ٨,٥ في المئة، في حين ان اجمالي الناتج الوطني ازداد بنسبة ٣,٦ في المئة وازدادت انتاجية العمل الاجتماعي بنسبة ٢,٢ في المئة فقط. هل يمت

ذلـك إلى العقلانية بصلة؟ من دواعي السرور بالطبع ان تحصل المؤسسات الآن على الاستقلالية في توزيع رصيد الاجور. غير انها لا ترتبط دائماً بالنتائج الفعلية النهائية للعمل مباشرة. فغالباً ما نرى العامل في الانتاج أو المهندس في معهد للبحوث العلمية، وهو يرفع مستوى انتاجيته بنقاط مئوية معدودة يحصل على زيادة في الأجر توازي من ٥٠ إلى ١٠٠ في المئـة. ومن أجـل وضع حد لتدفق الاموال غير الناتجة عن العمل ادخل السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي منذ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٨٩ نظاماً ضريبياً لضبط اموال المؤسسات المخصصة لدفع اتعاب العمل.

ومع ذلك فانني أرى ان السبب الرئيسي الذي حتم العجز الكارثي في الميزانية يعود إلى نشاط الوزارات والمصالح. لقد تجلى ذلك، أول ما تجلى، في التوظيفات الهائلة في البنية الارتكازية. وتتلخص مفارقة الوضع في بناء مصانع ومعامل جديدة في حين ان مؤسسات عاملة كثيرة تفتقر إلى الايدي العاملة ولذا تعمل بنوبة واحدة فقط. وتم مد قنوات ري ـ انفقت وزارة اصـلاح الاراضي والثـروة المـائية عليها ١٣٠ مليار روبل في الفترة الممتدة من عام ١٩٧١ إلى عام ١٩٨٨ ـ إلا ان المردود الاقتصادي كان ضئيلاً. وثمة الآن في البلاد ٧٠٠ الف كيلو متر من القنوات، أي ما يزيد على طول طرق السيارات بنسبة ٥٠ في المئة ولم تكتف الوزارة، بذلك، بل طلبت ٢٣٠ مليار روبل آخر للفترة الممتدة حتى عام ٢٠٠٥. ألا تتفقون معي انه من غير العقلاني بقاء مصلحة لا تحصل من كل روبل موظف إلا على ثلثه؟

لقد طرح مؤتمر الحزب السابع والعشرون مهمة تقليص البناء غير المستكمل، اذ كان يشيّد في البلاد في آن واحد ما يزيد على ٣٠٠ مشروع بين كبير وصغير. ولكن، على الرغم من ذلك، فعل التفكير القديم فعله وتم تخطيط التوظيفات للخطة الخمسية الجارية بحجم ١٧٠ مليار روبل سنوياً، علماً بانه كان يخصص لهذا الغرض في اعوام ١٩٨١ ـ ١٩٨٥، بالمتوسط، ١٢٥ مليار روبل سنوياً. وفي عام ١٩٨٨ أقبلنا مع ذلك على اجراء تدبير قاس مثـل تجميد مشـاريع البناء الجارية. وبطبيعة الحال، سبب ذلك اشكالات اجتماعية ومصاعب بالنسبة لجماعات العاملين ونفقات معينة. لقد تم تجميد مشاريع يبلغ مجمل قيمتها ٢٤,٢ مليار روبل. ولكن اتضح انه قد بدأ في الوقت نفسه تنفيذ مشاريع بنـاء جديدة بمبلغ ينـاهـز ٦٠ مليار روبل[٢]. وهنا بالتحديد يكمن، في رأيي، السبب الرئيسي للكارثة التي حلت بميزانية الدولة، وبالتالي، بسوق الاستهلاك أيضاً.

كان يبدو ان الوضع سيتغير مع انتقال المؤسسات إلى نظام الحساب الاقتصادي، لانهـا تستخدم اموالها لاغراض التنمية. وهذا جيد، اذ تصرف اموالها المكتسبة بصورة رشيدة باعتبـارهـا صاحب المشـروع. غير ان محدودية الاصلاح تتلخص، كما ذكرت

اعلاه، في كون الوزارات تتصرف كالسابق بلا رقيب عليها ولا حسيب بمبالغ ضخمة من توظيفات الدولة. وفي الحقيقة انها تصرف الاموال التي لم تكتسبها، وهي تحصل على كمية تستطيع سلخها من الحكومة وميزانية الدولة وتنتزعها من المؤسسات التابعة لها. وبقيت مواردها كالسابق ملكية بيروقراطية. وتنفقها المصالح بدون أي محاسبة، وهي غير مبالية بالفاعلية الاجتماعية فعلى سبيل المثال، يعتبر من الانفع بالنسبة للميتالورجيين ان يزيدوا حجم انتاج المعادن بالاطنان وان لا يصنعوا الفولاذ والسبائك ذات النوعية العالية وأنواع الدلفنة المعقدة التي توفر في المعدن والتي يحتاج اليها المستهلكون.

يبرز السؤال الآتي: هل نحن بحاجة إلى هذا العدد من المصالح والوزارات عموماً؟ لا اعتقد، وان كنت أدرك منطق الذين يحاولون الاحتفاظ بها. حول هذه المسألة دارت مناقشة حارة في دورة السوفييت الأعلى في صيف عام ١٩٨٩. وكانت الآراء «مع» و «ضد». وانخفض الآن عدد الوزارات الاتحادية حتى ٥٠ وزارة تقريباً، ولكن المهم ليس هذا، بل نشاطها الذي يتعارض كلياً مع متطلبات التدبير الاقتصادي الفعال. وفي رأيي ثمة صلة مباشرة بين الوظائف القديمة للمصالح وانفاقها المبذّر للتوظيفات، وعجز الميزانية والمصاعب في سوق الاستهلاك.

صحيح انه تم في الدورة ذاتها اقرار التعديلات على قانون مؤسسة (اتحاد) الدولة، الذي سنّ منذ سنتين تقريباً. وهذه التعديلات غير ملحوظة للوهلة الأولى، ولكنها مع ذلك مبدئية وهامة. على سبيل المثال، سجل في القانون حق المؤسسات في الخروج من قوام الوازرة، اذا انتقلت إلى علاقات الايجار. كما يمكن للمصنع أو المعمل ان يخرج من قوام الاتحاد. وهذا يرتدي أهمية خاصة كون الاتحادات تعتبر، أحياناً، في الواقع العملي فرعاً مموهاً للوزارة. هذا مع العلم انه تتوفر للمؤسسات امكانية تأسيس اتحادات اختيارية جديدة وكونسورسيومات وجمعيات أو شركات مساهمة. ولا يسعنا إلا ان نرحب بهذه المركزية الناجمة عن مصالح جماعات المنتجين ذاتها والتي لا تقوم على أساس قرار يفرض «من الأعلى» بصورة بيروقراطية كيفية. لقد حصلت المؤسسات على الحق في ان تختار بصورة مستقلة أشكال الحساب الاقتصادي، ومن بينها أشكال الايجار والشركات المساهمة وما شابه، وهي تتمكن من النشاط في سوق الاوراق المالية واصدار الاسهم والاستقراض الهادف. خلاصة القول، ان هذه التعديلات على القانون انزلت باحتكار الوزارات والمصالح ضربة خطيرة.

ان القرارات الأولى المتعلقة بمعافاة وضع البلاد المالي تركزت في الاساس على زيادة المداخيل، الأمر الذي نعتبره هاماً ولكن غير كاف البتة. ومن المزمع الآن، اضافة إلى ذلك، تخفيض النفقات: تحقيق تقليص ملحوظ (بمقدار الثلث تقريباً) في التوظيفات

الانتاجية المركزية من قبل الدولة (ولكن ليس في الاموال المخصصة لهذه الاغراض من قبل المؤسسات ذاتها)، تقليص فعلي في النفقات على الدفاع وجهاز الادارة، مكافحة الخسائر والتبذير، نظام التوفير في الاقتصاد الوطني، وعدد من التدابير الأخرى.

وستنخفض نفقات الدولة، بخاصة على بناء مؤسسات الانتاج في عام ١٩٩٠ بنسبة ٣٠ في المئة في المتوسط، وحتى ٤٠ في المئة في بعض الفروع. وفي الوقت نفسه سيزداد شراء سلع الاستهلاك الواسع من الخارج: ستعرض للبيع في السوق الداخلية كمية منها بقيمة ٣٢ مليار روبل تقريباً باسعار المفرق. وعلاوة على ذلك، من المزمع شراء الادوية بقيمة ٢ مليار روبل والخامات ومواد الصناعة الخفيفة بقيمة ١,٦ مليار روبل. وأبسط طريق، طبعاً، هو زيادة استيراد هذه المصنوعات والحصول على قروض كبيرة من الغرب. ولكن من شأن ذلك، اذا أخذنا في الاعتبار ان دين البلاد الاقتصادي الخارجي يشكل ٣٤ مليار روبل ذهبي قابل للتحويل (وأقول بالمناسبة ان هذا الرقم هو أيضاً يعلن لأول مرة في مؤتمر نواب الشعب في الاتحاد السوفييتي في حزيران/ يونيو ١٩٨٩)، من شأن ذلك ان يحول ديننا إلى فئة الديون التي لا يمكن التحكم بها. وفي هذه الحال، سيتعين علينا ان نعمل على تسديد فوائد القروض وان نصدر أكثر مما نستورد. انني اعتقد اننا قد اقتربنا من حدود الخطر، ومن شأن القروض الكبيرة ان تؤدي إلى زعزعة الاستقرار.

والافضل، كما يبدو، هو ولوج طريق آخر: تغيير بنية الواردات، أي ينبغي كما خطط فعلاً، تقليص مشتريات المصنوعات للصناعة الثقيلة والمعدات لعدد من الفروع الأخرى حيث تكدس منها ما تبلغ قيمته مئات الملايين من الدولارات، وتقليل استيراد الحبوب (اشترينا في عام ١٩٨٨ حوالي ٣٨ مليون طن بقيمة ٧,٥ مليارات دولار تقريباً) ودفع جزء من العملة الصعبة لمنتجي الحبوب السوفييت. ويسرني ان أشير إلى ان ذلك يتحقق فعلاً منذ آب (اغسطس) عام ١٩٨٩ بموجب المقترحات المطروحة في مؤتمر نواب الشعب في الاتحاد السوفييتي، اذ أخذت الكولخوزات والسوفخوزات تستلم العملة الصعبة لقاء حبوب القمح الصلب والقوي، التي بيعت للدولة زيادة عن متوسط المستوى السنوي في الخطة الخمسية الجارية، وكذلك لقاء البقول وبذور الزيوت (زيادة على المستوى المتحقق في أعوام ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨). وستتخذ هذه المزارع القرارات حول انفاق المبالغ المكتسبة بصورة مستقلة، انطلاقاً من حاجاتها الملحة.

ان استقرار سوق الاستهلاك يعتبر اساساً رئيساً لمعافاة الاقتصاد. وهنا يستحيل، طبعاً، تصحيح الاوضاع عن طريق الاستيراد فقط، اذ يتطلب الأمر زيادة انتاج السلع الوطنية من أجل السكان بصورة سريعة. ونقول صراحة ان حل القضية يستحيل خلال سنة أو سنتين، على الرغم من ان انتاجها سيزداد في عام ١٩٩٠ بنسبة ١٣,٥ في المئة باسعار

المفرق بالمقارنة مع خطة عام ١٩٨٩ ، بيد ان اجمالي الناتج الوطني لن يزداد إلا بنسبة ٢,٣ في المئة. غير انني أريد ان اؤكد انه لا يجوز التطرف في السعي إلى اشباع السوق بالملابس والاحذية وغيرها من سلع الطلب اليومي فقط. ذلك ان أكبر فاعلية انما يعطيها تنظيم انتاج مصنوعات جديدة معقدة من الناحية التقنية، منها على سبيل المثال اجهزة الفيديو والالكترونيات المنزلية وافران «الموجات القصيرة/ الميكرويف» وما شابه. ان انتاجها في مؤسسات فروع الدفاع التي لها قدرات وخبرات معينة في هذه المجالات سيساعد كذلك على استقرار السوق. وأشير في هذا الصدد إلى ان الوزن النوعي للمنتوج المدني في مجمل انتاج المؤسسات الدفاعية يبلغ منذ الآن نسبة ٤٠ في المئة وستزيد هذه النسبة في عام ١٩٩٥ على ٦٠ في المئة.

لقد طرحت منذ عدة سنوات مسألة تغيير اسعار المفرق، وهي تبقى فعلاً ثابتة للكثير من السلع منذ عام ١٩٤٧ ، وللحوم ـ منذ عام ١٩٦١ (على الرغم من انها ارتفعت، طبعاً، بالنسبة للسلع الصناعية وعدد من السلع الأخرى). ولكم كان ذلك بسيطاً، لو تم دفعة واحدة، حسب مقترحات بعض الاقتصاديين، اقرار الاسعار في مستوى توازن السوق بين الطلب والعرض، أي رفعها إلى هذا المستوى. غير انه لا يجوز القيام بذلك الآن، على الرغم من انه يجب دعم الاسعار بهذه الطريقة مبدئياً: ظهرت هذه القضية معقدة جداً من الناحية الاجتماعية السياسية، ولا يمكن حلها دفعة واحدة. وبالطبع، من الناحية الاقتصادية الصرف يمكن ان يحل ذلك قضايا كثيرة، ولكن من غير الصعب ان نستشف عواقب مثل هذه الخطوة، ناهيكم عن انه ليس من العدالة جعل السكان يدفعون ثمن التسيب الاقتصادي للمصالح.

انما ينبغي، أولاً، ازالة الطلب المصطنع الزائد على السلع المعدة للانتاج، هذا الطلب الناجم عن نشاط الوزارات غير المؤهل والبناء الصناعي المفرط، الخ. . . ثم ينبغي تحقيق التوازن العام في سوق الاستهلاك عن طريق خفض تمويل ميزانية الدولة المؤدي إلى التضخم. وبعد ذلك فقط يمكن تغيير بنية اسعار المفرق، ولكن شرط ان يتم ذلك مع تعويض مبرِّر اجتماعياً بشكل زيادة الاجور والمرتبات التقاعدية. ومثل هذه التجربة تمارسها بلدان اشتراكية أخرى.

حين يهتم المرء بالاصلاح الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي غالباً ما يسأل كيف يجب ان يكون التناسب بين الخطة والسوق. وهل نتخلى عن الأولى لصالح الثانية؟ وفي اعتقادي، ان علاقات السوق تستحيل بدون التخطيط الفعال. مع الاسف، لا تمارس السوق عملها عندنا حتى الآن، على الرغم من تطور حقوق المؤسسات ومصالحها في الحساب الاقتصادي. كما سبق أشرنا إلى ذلك، لقد تضعضع الضبط الاداري بيد ان

الضبط الاقتصادي من خلال الاموال لم يتم تنظيمه بعد.

على أرضية تردي السوق، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية بشكل وخيم، لا يرى الكثيرون، بكل بساطة، التغيرات الايجابية التي يأتي بها الاصلاح الاقتصادي. والحال ان التحولات الجذرية يصعب ان تعطي ثمارها في فترة وجيزة.

قبل وقت قريب كانت قضية السكن تعتبر واحدة من المعضلات الاجتماعية الحادة. فعلى امتداد الخطط الخمسية الثلاث الأخيرة كان يزداد بناء المساكن بنسبة تقل عن ٠,٥ في المئة سنوياً. وفي الفترة الممتدة من ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨ وحدها ازداد بناء المساكن بنسبة ١٥ في المئة، اذ تم بناء ٣٨٣,٦ مليوم متر مربع من المساكن. وفي الحقيقة، اننا استنفدنا الآن الإحتياطي الـذي كان على السطح. وينبغي توسيع انتاج مواد البناء، بغية تحقيق التنمية باطراد: من المزمع في السنوات القريبة زيادة بناء المساكن سنوياً بنسبة ١٠٠ في المئة تقريباً. غير ان التقدم الكبير في البناء السكني ليس ملحوظاً كثيراً، للاسف، في الحياة اليومية نظراً لأبعاد القضية ذاتها. ان نسبة ١٥ في المئة، علاوة على مليوني شقة كانت تسلم سنوياً، يعني اضافة تناهز ٣٠٠ الف شقة في السنة. لكن ثمة في بلادنا ١٢ مليون عائلة تنتظر دورها لتحسين ظروفها السكنية. فمتى ستحصل آخر هذه العائلات على مسكن؟ اضافة إلى ذلك ثمة عملياً ٣٠ ـ ٤٠ مليون عائلة أخرى بحاجة إلى شقق جديدة، ولكنها لم تسجل بين المحتاجين حتى الآن، لأنها تعيش في ظروف أفضل بعض الشيء، كما يعتقدون.

من النتـائـج الايجابية للاصلاح تسارع ازدياد انتاجية العمل. وقد مكن ذلك من تحرير بضع مئات الالاف من الناس من مجال الانتاج المادي. غير ان سوق العمل تفتقر إلى ١٠ ـ ١٥ مليون عامل. وهكذا فان البطالة ما تزال بعيدة الوقوع، على الرغم من انه يوجد في بعض المناطق، ولاسيما في آسيا الوسطى، غير قليل من الايدي العاملة الحرة، الأمر الذي يسبب أحياناً نزاعات اجتماعية.

أشير كذلك إلى ان ثمة ازدياداً فعلياً في استهلاك المواد الزراعية وخاصة المنتوجات الحيوانية. ذلك ان انتاج الحليب واللحوم يزداد سنوياً بنسبة ٣ ـ ٤ في المئة. صحيح انه ما يزال من الصعب الكشف عن هذه الاضافة أثناء وجبات الغذاء.

وبـالـطبع، لا يمكن حل القضايا التي تراكمت على امتداد العقود دفعة واحدة. ويعتقد ان تحقيق خطتي عام ١٩٨٩ وعام ١٩٩٠ قد يوقف تردي الوضع الاقتصادي بعض الشيء ويزيل فعلاً تفاقم التوتر الاجتماعي في البلاد. ان للاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي كل ما هو مطلوب كي يشرع في اداء وظائفه بصورة طبيعية بعد فترة قصيرة. اذ توجـد في البلاد أكبر مكامن الثروات الطبيعية وصناعتها هي الثانية في العالم من حيث

الجبروت، كما توجد امكانات علمية تقنية كبيرة. ويجري صوغ نظرية الاصلاح للمستقبل وآلية اقتصادية ضرورية على صعيد المؤسسات. وتنتظم عمليات التمويل الذاتي والادارة الذاتية في الجمهوريات الاتحادية. غير اننا نعيش الآن، مع الاسف، مصاعب المرحلة الانتقالية الناجمة ليس فقط عن كوننا قد تأخرنا مع اعادة البناء النوعية حوالي ٣٠ ـ ٤٠ سنة، بل وكذلك عن كوننا لا نجريها بشكل متسق بما فيه الكفاية.

وتعتبر النفسية الاجتماعية الخاصة بالاشتراكية حاجزاً آخر يعترض الطريق. ذلك ان الناس يفكرون بشكل سطحي مبسط: إن الاشتراكية نظام من أجل الشغيلة يتوجب عليه ان يدافع عن كل فرد ويضمن له كل الضروريات، وهي نظام للتوزيع المتساوي وبالتالي، للتوزيع الأكثر عدالة. كما يزعم ان مثل هذه التصورات راسخة جداً في الوعي الجماهيري. بيد ان فكرة لينين القائلة يجب ان تكون للاشتراكية انتاجية عمل أعلى بالمقارنة مع أي نظام آخر تتراجع إلى المرتبة الثانية.

اننا نريد ان نكسب كل شيء، دون ان نفقد شيئاً. وفي ذلك بالتحديد أرى صعوبة البيريسترويكا. ولكن ينبغي على المرء ان يضحي في السياسة بالقليل ليحظى بالكثير. ويجب ان يتخلى المجتمع في نهاية المطاف عن «افضليات» العمل السيىء. صحيح ان ذلك أسهل بكثير وألطف من العمل مع بذل قصارى الجهود. ولكن، اذا لم نتغلب على ذلك، ستكون آفاقنا وهمية.

يبدو لي انه على الرغم من كل تعقد الوضع وكل حداثة القضايا، لا يجوز استصغار أهمية العمل البناء الذي أنجز في الفترة الأخيرة في المجال الاقتصادي. ذلك ان قيادة البلد الاقتصادية، اذ تتغلب على قوالب التفكير الاقتصادي القديمة، تغير اتجاه جهودها، ويعتبر ذلك الشرط الأول لتحسين الأمور. ومن دواعي السرور، قبل كل شيء، ان الحكومة انكبت بجد على إزالة العجز الكبير في ميزانية الدولة. اذ كان من المزمع في البداية تقليصه، كما أشير في المؤتمر الأول لنواب الشعب، بمقدار ٢٩ مليار روبل في عام ١٩٨٩ و٢٤ مليار روبل في العام المقبل فقط. ولكن ذلك غير كاف اطلاقاً لتحسين الوضع الاقتصادي بسرعة. ان الملاحظات النقدية التي أدلى النواب بها جعلت الحكومة تعيد النظر في البرنامج. وطرحت الآن مهمة تقليل عجز الميزانية في عام ١٩٩٠ بمقدار ٦٠ مليار روبل. وهذا تناول سليم وواقعي وصارم جداً. واذا استطعنا تطبيقه، سوف نثبت الوضع المالي خلال فترة قصيرة نسبياً.

ان خطة الدولة لتنمية البلاد في عام ١٩٩٠، التي أقرها السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي، تحرر عدداً كبيراً من الاولويات في المجال الاجتماعي. وقد تم رسم انعطاف حاد لجميع فروع الاقتصاد الوطني نحو تلبية حاجات المواطنين السوفييت بالدرجة

الأولى. وهـذه الـوثيقـة المـطروحـة للبحث اثارت نقاشاً حاراً من قبل النواب. واذ أكد الكثيرون على جانبهـا الايجابي، فقد اشاروا بخاصة إلى انه لـم يتم ايجاد آلية للجمع الفعلي بين مبدأ التخطيط واقتصاد السوق وان التطور البنيوي لم ترافقه تدابير جدية لضمان الموارد. وخلاصة القول، كان العمل الرامي إلى انجاز صياغة الخطة حازماً، اذ وضع في الاعتبار استثنائية التدابير التي ينبغي تحقيقها.

وبهذه الروح ذاتها تم النظر في مشاريع القوانين التي ذكرتها اعلاه. وهي عبارة عن مجمـوعـة كاملة من اللوائـح الاصولية المبدئية المعدة لتدشين مرحلة جديدة في تطور الاصلاح الاقتصادي وارساء أساس للتحولات الجذرية في علاقات الانتاج.

انني على يقين من ان تحقيق التـدابير المـذكـورة سوف يوفـر الـظروف الطبيعية الضرورية لنشاط النظام الاقتصادي الجديد المصحح وحل القضايا الاجتماعية الملحة. ان البلاد سوف تسلك طريق التطور الدينامي الثابت.

---

(١) «قضايا السلم والاشتراكية»، ١٩٨٨، العدد ٧.

(٢) كانت قيمة البناء غير المكتمل في أول تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٩ قد بلغت ١,٤ ٢٠ مليارات روبل أي أكثر مما في التأريخ ذاته من عام ١٩٨٨ بنسبة ١٥ في المئة ـ المحرر.



قضية العمال المصريين في العراق

جزاء سنمار

عدنان حسين

«المصريون في العراق يُهانون ويُقتلون».

كالصاعقة وقع الخبر على رؤوس اولئك الذين ظلوا سنوات عديدة متصلة يصمّون آذانهم عن اخبار عمليات القتل بالجملة التي يتعرض لها الشعب العراقي، ويتعاملون معها باعصاب ودماء باردة.

في البداية نشر مراسلان في بغداد والقاهرة لصحيفة اجنبية معلومات عن تعرض العمال المصريين في العراق إلى سوء المعاملة الذي انطوى، بالاضافة إلى تخفيض نسبة تحويلاتهم المالية وعدم صرفها، على الضرب والاهانة والاستغناء عنهم، بيد ان احداً في القاهرة لم يكترث بهذه المعلومات. بل ان الرسائل التي كان يبعث بها ـ قبل ذلك ـ عمال مصريون عادوا من العراق منذ عام، أو يزيد، إلى الصحف المصرية عن انتظارهم الطويل لمستحقاتهم غير المحوّلة، أو عن موت زملاء لهم في العراق في ظروف غامضة ومريبة، لم تجد من يأبه بها إلا في حدود سطرين أو ثلاثة في زاوية مهملة من «بريد القراء». حتى تسنى لصحفي مصري ـ ربما كان مجرد ساع وراء الإثارة والسبق الصحفي ـ ان يلتقط من صديق له أ قريب، يعمل في احدى المستشفيات، خبراً عن النعوش العائدة من بغداد، وشهادات الوفيات المرافقة التي تعزو أسباب الموت إلى ما يتناقض والعلامات الظاهرة على الجثث، ليفجّر بذلك قنبلة صحفية ويمزّق الحجب التي أريد لها ان تحول بين الشعب المصري وتراجيديا العذاب والألم والدم والموت التي يقاسيها الشعب العراقي في

ظل هذا النظام.

وفي البداية أيضاً قصرت الصحف المصرية، وكذلك المراجع الحكومية، اهتمامها بقضية العمال المصريين في العراق على جانب واحد، هو المتصل بتخفيض نسبة التحويل وتأخير السداد، حتى ان «الاتحاد العام لنقابات عمال مصر»، كما ذكرت صحيفة «الاهرام» في مطلع تشرين الثاني الماضي، لم يتحدث في المذكرة التي وجّهها إلى الحكومتين المصرية والعراقية سوى عن عدم سماح السلطات العراقية للعمال المصريين بتحويل مدخراتهم، والاستغناء المفاجيء عنهم، معتبراً ان «الاستغناء عن العمال المصريين دون اعطاء شهادة خبرة أو مهلة قانونية لعمال قضوا نحو عشر سنوات في العمل أدى إلى ردود فعل سلبية لدى هؤلاء العمال»!

كانت الوقائع أقوى من ان يستطيع أحد في القاهرة أو بغداد التستر عليها. ففي مطار القاهرة كان ينزل يومياً مئات الفارين من الجحيم العراقي، ومعهم جثث القتلى بالرصاص وتحت التعذيب. ولاحظت جريدة «الاخبار» (١١/٨) ان هناك زيادة في عدد الجثث التي تُشحن من العراق إلى مصر: ١٤٢ جثة في شهر تشرين الاول وحده، و١٠٤٨ جثة منذ بداية العام ـ عدا عن الجثث التي تُدفن في العراق ـ. ولاحظت أيضاً، استناداً إلى مصادر طبية، ان معظم هذه الجثث يحمل آثار تعذيب واطلاقات نارية، فيما التقارير «الطبية» العراقية المرافقة تتحدث عن اسباب أخرى للموت (طبيعية، أو حوادث عمل أو دهس). ونشرت صحيفة «الوفد» (١١/١٠) صورة لاثنين من هذه التقارير تتناقض الوقائع الواردة فيهما مع واقع الحال، فهما تتحدثان عن حالتي وفاة طبيعتين، إلا ان احدى الجثتين، وهي لنجار يعمل في تكريت، تحمل آثار اطلاقات نارية، وقالت الصحيفة ان صاحبها قتل على ايدي قوات الأمن العراقية، أما الثانية فكانت تحمل آثار طعنات بالسكين، أكد زميل لصاحبها انه قُتل عمداً من قبل عناصر الأمن العراقية. واضطرت هذه الوقائع وزارة الخارجية المصرية إلى الاعلان على لسان المتحدث باسمها عن انها تجري تحقيقات في الانباء المنشورة، وان الحكومة المصرية استدعت سفيرها في بغداد للتشاور.

وهكذا بدأت الاضواء تتسلط على محنة مليوني مصري يعملون في العراق. فكشفت صحيفة «الاهرام» (١١/١٢) عن ان نحو مليون مصري قد عادوا من العراق منذ شهر حزيران بسبب سوء المعاملة. ونقلت وكالة انباء الشرق الاوسط المصرية والوكالات الغربية عن مصادر مصرية قولها ان مئات من المصريين العاملين في العراق يعودون يومياً إلى مصر، وان الوفاً آخرين يتزاحمون في بغداد أمام مكاتب شركات الطيران للحصول على تذاكر سفر ومقاعد على الطائرات المغادرة إلى القاهرة، فيما يتجمع مئات من المصريين أمام فرع مصرف الرافدين العراقي في القاهرة في محاولة لتسلم مستحقاتهم التي يتأخر

سدادها لاشهر عديدة. وقالت هذه المصادر ان التحويلات المتأخرة وصلت قيمتها إلى ٣٥٠ مليون دولار، فيما اصبحت الحكومة العراقية مدينة أيضاً بـ ١٦٠ مليوناً أخرى نصفها لشركات المقاولات المصرية ونصفها الآخر لشركة «مصر للطيران»، فضلاً عن الديون العسكرية.

في منتصف تشرين الثاني ابرقت وكالة «رويتر» من مطار بغداد متحدثة عن الالاف من المصريين الذين اكتظ بهم المطار، ووقفوا «في طوابير طويلة استعداداً للسفر إلى القاهرة. واستخدم آخرون، معهم تذاكر سفر من دون حجز محدد، حقائبهم كوسائد وافترشوا أرض المطار». ونقلت عن المدير العام للخطوط الجوية العراقية قوله ان شركته زادت من رحلاتها اليومية إلى القاهرة من رحلتين إلى عشر رحلات، وان شركة «مصر للطيران» زادت من رحلاتها الاسبوعية من ١١ إلى ١٤ لنقل ٢٠٠٠ مصري يغادرون العراق يومياً.

وقالت صحيفة «الاخبار» المصرية (١١/١٥) ان أحد العائدين تم احتجازه في الطائرة العراقية بأمر من قائدها بعد وصولها إلى القاهرة لأنه شتم النظام العراقي، فتدخلت قوات الأمن المصرية وانزلته من الطائرة. ونقلت الصحيفة، التي نشرت شهادات عديدة لمصريين عائدين من العراق حول اساءة معاملتهم على ايدي السلطات العراقية، عن المواطن المصري انه كان يعمل في أحد المصانع العراقية ساعات طويلة، وعندما طالب بأجر اضافي جرى ضربه «وانهمر الرصاص من حولي وأنا اصرخ واستغيث». واضاف انه وافق على العمل بدون أجر لمدة أربعة أشهر «لانقاذ حياتي»، وقال انه بدأ بشتم النظام العراقي فقط عندما اقتربت الطائرة من مطار القاهرة «وشعرت بالامان والقوة»!

صحيفة «الوفد» تحدثت عن اسباب سياسية، إلى جانب الاسباب المالية والاقتصادية، لاساءة معاملة العمال المصريين في العراق، بينها امتعاض النظام العراقي من التقارب المصري ـ السوري والموقف المصري المؤيد لحل المشكلة اللبنانية على اساس وثيقة الطائف. وهذا ما نقله مراسل صحيفة «لوموند» الفرنسية (١١/١٦) في القاهرة عن مصادر مصرية رسمية أفصحت له عن ملاحظتها بان اساءة معاملة العمال المصريين في العراق تزامنت مع التحسن في العلاقات المصرية ـ السورية، وتبني مصر موقفاً معتدلاً حيال المشكلة اللبنانية يخالف موقف النظام العراقي. وقبل هذا كانت مجلة «جون افريك» الفرنسية (١٠/٢٣) قد نشرت، نقلاً عن مصادر في اجهزة الاستخبارات الغربية، ان الحكومة المصرية قررت تقليص تعاونها العسكري مع الحكومة العراقية، وبشكل خاص في مجال تطوير وصناعة الاسلحة المتقدمة. وعزت المصادر القرار إلى سببين: اولهما عدم دفع بغداد للقاهرة ديونها العسكرية، والثاني الضغوط الخارجية التي مورست على

الحكومة المصرية للامتناع عن المساهمة مع العراق والارجنتين في مشروع صناعة صواريخ «كونذور».

«لوموند» نقلت أيضاً عن المصادر المصرية قولها ان طرد المصريين من العراق يعود كذلك إلى سعي النظام العراقي لتجنب ثورة الجنود العراقيين المسرّحين بسبب تناقص فرص العمل، وانه منذ شهرين أصبح طرد العمال المصريين يتم باعداد كبيرة وبدون سابق انذار، وان السلطات العراقية استقطعت منهم بصورة اجبارية راتب شهرين كـ «تبرع» لاعادة اعمار الفاو، فضلاً عن ساعات العمل الاضافي غير المأجورة. واشارت الصحيفة إلى تأكيدات المصريين العائدين بان مجموعات نظامية كانت تعتدي عليهم وان السلطات الحكومية العراقية هي التي تقف وراء اساءة معاملتهم.

يوم ١١/١٥ فقط خرج الطرف الآخر في القضية (النظام العراقي) عن صمته. ففي القاهرة استنكر السفير نبيل نجم (الاهالي ١١/١٥) «بتضخيم ما يحدث» معتبراً انه «أمر طبيعي حدوث بعض المشاكل» التي كان يحاول مرة القاء مسؤوليتها على أبناء الشعب العراقي، ومرة أخرى على العمال المصريين «واقع الأمر ان هناك خلافات تحدث نتيجة الاحتكاك اليومي سواء بين المصريين انفسهم أو بينهم وبين اخوانهم العراقيين....... ان عدد الجرائم التي ارتكبها بعض العمال المصريين في العراق وصل في شهر سبتمبر (ايلول) إلى ٤٢٤ جريمة وهي جرائم تشمل: القتل العمد، والشروع في قتل، والخطف، والسرقة، والاغتصاب»، نافياً «ما أثير حول اساءة معاملة العمال المصريين في العراق»، ومؤكداً انه «ليست هناك اطلاقاً عمليات طرد جماعية أو استغناء»، لكنه ما يلبث، في زلة لسان ربما، ان يعترف بانه «بعد عودة المسرحين من الجيش لوظائفهم (نصف مليون) تم الاستغناء عن بعض العاملين المصريين، وانحصرت حالات الاستغناء في اولئك مرتكبي بعض المخالفات»، موضحاً في فقرة لاحقة من حديثه ـ وفي زلة لسان أيضاً ـ ان المقصود بهذه المخالفات هو مطالبة العمال المصريين بحقوقهم: «ان حالة الاستغناء الوحيدة كانت في مصنع لاطارات السيارات (في الديوانية) عندما أضرب ٢٥٠ عاملاً ثلاثة أيام».

في بغداد، وفي اليوم نفسه (١١/١٥)، استدعى صدام حسين بضع عشرات من المصريين العاملين في العراق ليبلغهم «دهشته» لما ينشر في الصحافة المصرية «وكأن هنالك مشكلة لدى العاملين المصريين في العراق». ومع ان صدام حسين قال لمستمعيه: «.. في ضحى هذا اليوم طلبت من السكرتير ان يحضر لي عدداً من اخواننا من مصر لكي أسألهم بصورة مباشرة واتعرف على مشاكلهم بصورة مباشرة»، فانه لم يعط «ضيوفه» الوقت اللازم لعرض مشاكلهم، واستغرق في حديث طويل ابتعد فيه عن صلب المشكلة، محاولاً استعداءهم والشعب المصري على الشعب العراقي: «.. ادري ان حوادث السيارات في

العراق كثيرة، والسبب يعود إلى انه في مرحلة من المراحل عندما كانت قدراتنا المالية أفضل من الآن كان العسكريون من الضباط ومن هم دون الضباط في الجيش يستلمون سيارات كل فترة وباسعار خاصة من الشركة . . . وبعضهم لا يعرف السياقة وبعضهم يتعلم بسرعة لكي يستلم سيارته، فكثرت لدينا خاصة في السنوات العشر الأخيرة حوادث المرور عموماً، فمتوقع انه مثلما يحصل دهس لمواطن بصري عراقي في البصرة يمكن ان يحصل دهس لمصري عربي وهو في البصرة. . فليس شيئاً مستغرباً ان يحدث هذا. . . وليس مستغرباً ان يحدث شجار ويصاب احدهم بكدمات أو حتى يموت خلال الشجار مثلما يحصل بين العراقيين انفسهم. . . . . قبل ان تنتهي الحرب كنت قد تحدثت مع عدد من اخواننا وقلت لهم اننا بعد ان تنتهي الحرب سنواجه ظواهر معينة في المجتمع من بينها ان بعض المقاتلين، وخاصة الذين لا تكون ثقافتهم ومستوى اعدادهم الاجتماعي عالياً، قد يستخدم يده ويستخدم العنف لمواجهة حالة من حالات المجتمع. . . . أنا مرتاح من تصرف المصريين، رغم عددهم الكبير، لكن أنا غير متأكد من انه لو أخذنا مليوناً ونصف المليون عراقي، أكثرهم رجال بدون عوائل، وبعثناهم إلى مصر انهم سيتصرفون بنفس المستوى الممتاز الذي تصرفتم به انتم. . . ان لديّ شكوكاً بانهم سيتصرفون بمستوى يرضيني كما تصرفتم انتم في العراق»!

خرج المصريون من القاعة التي التقاهم فيها صدام حسين وهم مصدقون كلامه بان لهم مكانة خاصة في نفسه. لكن هذه المصداقية تعرضت إلى الانهيار بعد يومين فقط عندما اجتاحت سيارة عسكرية جموع المصريين التي كانت تتظاهر في ساحة التحرير، وسط بغداد، احتفالاً بصعود المنتخب المصري الوطني لكرة القدم إلى نهائيات كأس العالم.

مجلة «المصور» (١١/٢٤) نقلت في تقرير من موفدها الخاص إلى بغداد صورة ما حدث في ذلك اليوم:

«في مساء يوم الجمعة الماضي، وبعد ان أمر الرئيس العراقي صدام حسين باذاعة مباراة الفريق القومي المصري مع فريق الجزائر، وبعد ان شاهد آلاف المصريين المباراة التي انتهت بفوز الفريق المصري خرج ما يقرب من ٥ آلاف مصري في تجمعات متفرقة تهتف باسم مصر رافعة الاعلام المصرية، محتفلة بفوز مصر هاتفة باسم الرئيس حسني مبارك مكررة الشكر للرئيس صدام حسين الذي أمر بنقل المباراة على التلفزيون العراقي مباشرة، ووسط فرحة المصريين اخترقت جموعهم سيارة عسكرية لاندوفر قتلت أحد المصريين واصابت البعض، وتحول الفرح إلى غضب جارف، فانقلبت الوجوه الضاحكة إلى وجوه عابسة، وامتدت الايادي إلى الحجارة والعصي، والحديد، وتحولت المسيرة

الهادئة إلى جنون حقيقي، يحطم كل ما أمامه، وخرج آلاف المصريين من منطقة «المربعة» لتحطم محلات شارعي «السعدون» و«الرشيد»، وحاصرت قوات الأمن المكان واطلقت الرصاص وقام الغاضبون بقلب السيارات وحرقها، وتم القبض على عشرات المصريين في حملة اعتقال عشوائية، ولم تنم بغداد ليلتها، فقد أدرك المصريون ان اعداداً جديدة من الصناديق الخشبية ستعود للقاهرة لا تحمل سوى اسم القتيل وبجانبه عبارة «أصيب بطلق ناري» أو «تهتك في عظام الجمجمة». ».

ونقلت موفدة صحيفة «الاهالي» (١٣/١٢) عن القهوجي المصري في «المربعة»، عبد التواب عجمي الذي اصيب في ذلك اليوم قوله: «. . . فجأة جاءت سيارة جيب (جيش) مسرعة في اتجاه مظاهرة الفرح المصرية، فاصابت البعض، فما كان من المتظاهرين إلا ان يقذفوها بالحجارة فهربت بسرعة، وفي طريقها سقط مصريون ما بين قتلى وجرحى ولا نعرف عددهم. وقد حدث ذلك بينما كانت المظاهرة في حماية البوليس العراقي . . »، وعن الخياط يعقوب زكي بدروس قوله: «البوليس العراقي ترك المصريين بعد هذه الحادثة يكسرون في واجهات محلات شارع الرشيد دون تدخل».

ومنذ وقوع تلك الحادثة اصبح الأمر القضية الأولى في الصحافة المصرية التي أخذت تنشر تقارير وتحقيقات موسعة عن مشكلة المصريين العاملين في العراق. فمجلة «المصور» كرست لها ٩ صفحات في عددها المشار اليه سلفاً. وقد كتب رئيس التحرير، مكرم محمد أحمد، مقالاً افتتاحياً حمّل فيه النظامين المصري والعراقي مسؤولية ما يحدث لمليون مصري في العراق:

«فمسؤوليتنا اننا تركنا الابواب مفتوحة على مصاريعها لهجرة العمالة المصرية دون ضابط أو رابط. . في السبعينات كان بعض من دهاقنة الاقتصاد المصريين يتصور ان هجرة العمالة المصرية في الخارج ربما تشكل الحل الأمثل للمشكلة الاقتصادية في مصر. . اصبحت الهجرة حلم كل مصري، حتى الفلاحين هجروا اراضيهم، تركوها بوراً وذهبوا يعملون فوق سقالات البناء في العراق والسعودية ودول الخليج . . كان العمال المصريون يعملون في هذه الدول دون أية مظلة تحميهم. . لقد أصبحت العمالة المصرية نهباً للنصابين والافاقين الذين اثروا ثراء ضخماً من وراء مكاتب التوظيف الوهمية أو من وراء شركات الاموال التي نهبت من مدخراتهم. . »

ان القرارات الاخيرة التي حددت لكل الفئات العاملة في العراق نصيباً في التحويل لا يزيد على ٤٠ ديناراً ان كان موظفاً حكومياً، ويصل إلى ١٠ دنانير في الشهر اذا كان يعمل على عاتقه. . هذه القرارات كانت تنطوي في داخلها على اقرار بالاستغناء عن جزء كبير من العمالة المصرية ان لم يكن معظمها، لأن أياً من العاملين المصريين سوف يسأل

نفسه: ما الذي سوف يستفيده من الغربة ان كان لن يتمكن من تحويل قدر من دخله يمكنه من الانفاق على الاسرة التي تركها في مصر؟ . . كان ينبغي لبغداد ان تناقش آثار هذه القرارات مع القاهرة لكي يتدبرا معاً ردود افعالها على ما يقرب من مليون مصري ربما يتعذر استمرار بقائهم هناك، بحيث تصبح عودة هؤلاء عودة كريمة بلا مهانة . . ما كان لبغداد ان تنسى وسط اولوياتها العديدة ان لهؤلاء المصريين حقوقاً ينبغي ان تؤدى . . . ».

وفي تحقيق كتبه اثنان من محرريها قالت المجلة ان مصرف الرافدين في القاهرة توقف عن صرف التحويلات التي يعود تاريخ استحقاقها إلى سنة كاملة، وعادة ما تخصم الحكومة العراقية منها تحويلات أربعة أشهر «شهران للاجراءات وشهران للمجهود الحربي»! . وهكذا «تراكمت مستحقات آلاف المصريين الذين وصلوا بالفعل حتى بلغت ما يقرب من ٤٠٠ مليون دولار. ومن خلال اتصالات القاهرة ببغداد فهم ان العراق يطلب ان تقوم البنوك المصرية بسداد مستحقات العمال على ان يتولى بنك الرافدين تسديدها للبنوك المصرية بعد ذلك» . . «وتأتي بعد ذلك ظاهرة قدوم النعوش الخشبية التي كانت تحمل الموتى. وهذه الظاهرة كانت مفهومة أثناء الحرب، اذ كانت التقارير الطبية التي تصاحب هذه الجثث توضح ان سبب الموت طلق ناري، ولكنها لم تعد مفهومة بعد الحرب، وخاصة عندما ظلت نسبة الموتى كما هي، وتغيرت صيغة التقارير عن سبب الوفاة إلى شج بالرأس، صعق كهربائي، تهتك في الوجه، الغرق، حادث سيارة، أو احتشاء في عضلة القلب، وهي أيضاً عبارة تم كتابتها في تقارير صحية مرفقة مع جثث لمصريين لا تزيد اعمارهم على ثلاثين عاماً، وهذا ما يثير الشبهة، أو يكتفي التقرير بعبارة: ما زال قيد البحث».

وموفد المجلة الخاص إلى بغداد يؤكد في تقريره استناداً إلى لقاءاته مع عشرات المصريين في بغداد «ان الجميع يريدون العودة، وان الاجواء في العراق مشحونة، والمناخ العام ينذر بالتوتر، وربما تقع مضاعفات جديدة بعد الذي حدث في شارعي السعدون والرشيد»، مشدداً على انه «من المؤكد ان القضية في النهاية أبعد من ان تكون قضية تحويلات مالية أو استغناء عن عمال. . ان احداث شارعي الرشيد والسعدون أوضحت ان هناك تياراً معادياً لوجود المصريين في العراق. وتشير الدلائل إلى ان عدم القبض على مرتكبي حادث الرشيد والسعدون يؤكد ذلك، وان استمرار هذه الممارسات يوضح ان هذا التيار تسانده جهة حكومية نافذة. . . ورغم كلمات الحب والود التي قالها الرئيس صدام حسين أثناء لقائه بوفد من المصريين العاملين في العراق وتأكيده على خصوصية العلاقات بين مصر والعراق على كل المستويات، فان امتناع السلطات العراقية عن السماح لنا، كصحفيين، بعقد لقاءات مع المصريين، ومنع المصورين من التصوير، واحتجاز أحد

الزملاء المصورين في قسم الشرطة، بل ومنعنا من الاتصال هاتفياً من الفندق الذي كنا نقيم فيه، هذا كله يؤكد استمرار التوجه العام غير الودي نحو معاملة المصريين في العراق، الأمر الذي جعل من المخاطرة اجراء حديث مع أي مصري مقيم بالعراق».

وفي تقرير لها عن ندوة عقدها طه ياسين رمضان، الذي كان في زيارة إلى القاهرة للمشاركة في اجتماعات اللجنة العراقية ـ المصرية المشتركة، في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، نقلت «المصور» بعض تفاصيل ما اسمته بـ «مواجهة ساخنة بين نائب رئيس الوزراء العراقي واساتذة جامعة القاهرة حول مشكلة العمال المصريين». كان عنوان الندوة: «مجلس التعاون العربي، المستقبل والآفاق»، إلا «ان الموضوع الذي سيطر على اللقاء هو احوال المصريين العاملين بالعراق» كما جاء في مقدمة التقرير.

من الاسئلة التي طرحت على رمضان: ما نتائج التحقيقات حول احداث القتل والعنف تجاه المصريين؟ لماذا لا تسمحون للمصريين بتشكيل مؤسسات أو نقابات للدفاع عن حقوقهم؟ ما تحليلك لتزامن هذه الاحداث مع تحسن العلاقات المصرية ـ السورية؟ لماذا لم تحل بعد مشكلة مستحقات العاملين، خاصة وان صحة عدم وجود سيولة مالية غير مقبولة لأن الاتفاق العراقي في أمور ثانوية ليس بالقليل؟ وأخيراً وقف شخص وسأل: ما تفسيرك لاجبار العامل المصري على العمل ساعات اضافية دون اجر اضافي؟ وعرّف بنفسه بانه إبن لعامل مصري قتل أثناء اقتحام قوات الأمن العراقي للمنشأة العامة للمنتجات المطاطية في الديوانية لأن العمال المصريين طالبوا بمستحقاتهم، وسأل: ما رأيك؟

تحدث طه ياسين رمضان ـ كما جاء في تقرير المجلة المصرية ـ عن «الحرص على العلاقات المصرية العراقية»، وقال ان هذه العلاقات تواجه اعداء خارجيين وداخليين ومحاولات للنيل منها «ودلل طه ياسين رمضان على حديثه بقوله: منذ ٤ شهور ذكر واحد من اصحاب الاقلام العربية ان من مصلحة مصر تطوير علاقاتها مع ايران، وان الحكومة المصرية مسؤولة عن حياة المواطن المصري، ومصر لديها ١٢ الف اسير في ايران: وتساءل طه ياسين رمضان: لمصلحة من يقال هذا الكلام... ان ما يكتب في الصحف المصرية وصحف الخارج عن العمالة المصرية في العراق حملة مدبرة.. ارسلنا بالفعل مليونين و٤٠٠ الف دولار كمستحقات للمصريين العاملين بالشركات العراقية منذ يومين.. يجب ان لا تنسوا اننا في بلد يخرج من حرب ثماني سنوات، يعاني من أزمة مالية في السيولة وفي العملة الصعبة.. ليس من الديمقراطية ان نترك من يريدون تحطيم الشعور القومي يكتبون ما يشاؤون. اننا في بلدان العالم الثالث، والعاملون في الصحافة جزء من الشعب فيهم الجيد وفيهم الرديء، لماذا أترك الرديء يفعل ما يريد؟».. ثم صمت طه ياسين رمضان ليترك كل الاسئلة المطروحة دون اجابات!

أثار اهتمام الصحافة المصرية واجهزة الاعلام العربية والدولية بالقضية حنق النظامين العراقي والمصري اللذين واجها فضيحة مشتركة كشفت دجل النظام العراقي صاحب الشعارات «القومية» الطنانة، وسكوت النظام المصري على اهانة مليونين من شعبه وانتهاك حقوقهم، ففرض النظام العراقي حظراً على كل اشارة للقضية في الصحافة العراقية إلا في حدود استنطاق بعض المصريين، تحت الترهيب، ليلهجوا بمديح «البطل القومي» و«القائد العربي». أما الرئيس المصري، حسني مبارك، فانحى باللائمة على الصحفيين المصريين الذين «زودوها حَبّتين»! وعلى عجل اتفق النظامان على حل جزئي، بل نصف جزئي، تضمن التزام الحكومة العراقية بدفع ٥٠ مليون دولار حتى نهاية عام ١٩٨٩ لتسديد بعض مستحقات العمال المصريين عن عام ١٩٨٨، أما كيف سيتحقق الحل الشامل، فان أحداً لم يتحدث عن هذا أو يشر اليه حتى ولو بالتلميح.

ومع هذا فان الخمسين مليوناً لم تستطع ان تطوي ملف القضية، فالصحفيون المصريون اتخذوا قراراً بالامتناع عن زيارة العراق حتى تحل مشكلة العمال المصريين في العراق، وأيد بيان أصدره مجلس نقابة الصحفيين مطالب أعضاء النقابة، معلناً «ان المجلس يقدر الظروف التي دعت الزملاء اعضاء النقابة عن عزمهم على عدم قبول أية دعوات لزيارة العراق في الوقت الراهن، بما يحفظ حقوق المصريين العاملين في العراق وكرامتهم، ويأمل ان تقدر الحكومة العراقية دلالة هذا الموقف»، ومطالباً الحكومة المصرية بـ «القيام بواجبها في توفير الحماية للمصريين العاملين خارج البلاد، ومتابعة احوالهم بما يضمن الحفاظ على كرامتهم وحصولهم على حقوقهم».

وقاطع أكثر من ٥٠ مثقفاً مصرياً مهرجان «المربد» الذي اقيم في بغداد في أواخر تشرين الثاني. واستنكرت اللجنة المصرية لحقوق الانسان اضطهاد السلطات العراقية للعمال المصريين، واشادت في بيان لها إلى انها لم تستغرب ان يقوم النظام العراقي الذي ينتهك حقوق عمال بلاده ويقتل ابناء شعبه باضطهاد العمال المصريين، وطالبت بالسماح لوفد منها بزيارة العراق واجراء تحقيق مستقل في ما تعرّض له العمال المصريون على ايدي السلطات العراقية.

الجزائر

ماذا بعد اكتساب العلنية؟

علي مالكي

منذ ايلول ١٩٨٩ يعمل حزب الطليعة الاشتراكية بصورة علنية. وهو يحمل على اكتافه تجربة عمرها نصف قرن من النضال في سبيل التحرر الوطني ومصالح الشغيلة. وفي الوقت نفسه يدخل حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري مرحلة جديدة من نشاطه بوصفه قوة شابة من حيث عمر اعضائه، ولأنه يعتمد في حله للمهام التاريخية الجديدة على حماسة شبابنا وآمالهم.

لقد ساعد عمل الشيوعيين النشيط وسط الجماهير الشعبية والعمال والفلاحين والمثقفين على انارة طريق النضال من أجل السلام والأرض والحرية. وكانت مساهمة الحزب في النضال من أجل الاستقلال والبناء الوطني ونشر افكار الاشتراكية مساهمة فريدة في نوعها لا تعوض. يضاف إلى ذلك، ان نواقص الماضي واخطاءه شكلت وستشكل درساً لاعضاء الحزب ولكل القوى التقدمية.

وخلال العقود الثلاثة الأخيرة لم يعمل حزبنا بصورة علنية سوى بضعة أشهر، أي بعد الحصول على استقلال البلاد مباشرة في تموز ١٩٦٢. ومرت فترات صعبة جداً تعرض خلالها الشيوعيون لشتى أنواع الضغط الايديولوجي والسياسي الشديد وللقمع والاعتقال

* ممثل حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري في المجلة

والتعذيب. وتحتم علينا دفع ثمن غال لقاء الاخلاص للديمقراطية التي لا تنفصل باعتقادنا عن مثل الاشتراكية.

وتحفظ ذاكرتنا اسماء الوطنيين الذين ضحوا بحياتهم في سبيل تأسيس الحزب وتوظيفه في خدمة الشعب. ونحن ممتنون أيضاً لكل من تضامن مع نضالنا بأي شكل من الاشكال ـ وفي مختلف الاوقات، ولكل من ادرك ضرورة وجود حزبنا ودوره في حل المهمات الوطنية الديمقراطية.

وبأسم الطبقة العاملة نشكر كل ممثلي الرأي العام العالمي الذين عبروا عن تضامنهم السياسي أو الانساني معنا. فهذا التضامن لم يساعد الشيوعيين وكل الشغيلة فحسب، بل والتطور التقدمي للجزائر عموماً وتعزيز هيبتها في العالم أيضاً.

وخلال كل هذه السنوات التي مضت لمسنا تدفقاً للقوى الجديدة من شباب المدينة والريف. وبالتدريج تكوّن حول الحزب ونشطائه جو مميز يتصف بالشعور الحميم والمخلص. وأدت موجة التأييد الشعبي التي حصلت في نهاية عام ١٩٨٦ خلال الاضطرابات العاصفة في مدينة قسطنطينة إلى افشال القمع المعادي للشيوعية.

وفي الايام التي سبقت احداث تشرين الاول ١٩٨٨ المأساوية اعتقل رجال البوليس عشرات الشيوعيين وتعرض بعضهم لتعذيب وحشي. ولكن التحركات العفوية التي قام بها آلاف الشباب العاطلين عن العمل في العاصمة وفي انحاء البلاد أدت إلى نشوء وضع جديد. وبفضل تدخل القوى الوطنية والديمقراطية الأخرى، بما في ذلك على المستوى الحكومي، استطعنا انقاذ الحزب من حملات ملاحقة أكثر قسوة. وقد فتح ذلك أيضاً الطريق أمام حياة ديمقراطة أكثر.

ان علنية حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري تشكل تجسيداً لحق العمال والطبقات والفئات الاجتماعية الأخرى في ان يكون لهم حزب سياسي خاص بهم، الأمر الذي يعترف به دستور شباط. وقد ناضل الشيوعيون الجزائريون من أجل هذا الحق طوال عشرات السنين. وبعد بداية الحرب التحررية (تشرين الثاني ١٩٥٤) وبخاصة بعد احراز الاستقلال رفضوا حقنا في ذلك، وغالباً ما تذرعوا بضرورة تجنب الانقسام الطبقي في المجتمع. واكد بعض الوطنيين الذين ناضلوا من أجل الاشتراكية بان الحزب الواحد ضروري من أجل عدم السماح للطبقة والفئات البرجوازية من تعزيز مواقعها سياسياً.

ومن الواضح اليوم للجميع ان الحزب الواحد لم يمنع تشكل طبقات وفئات اجتماعية مختلفة. لا بل أكثر من ذلك: ان فئات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة تمكنت من استخدام رافعة الحزب الحاكم بالاضافة إلى الدولة ووسائلها الخاصة أيضاً لتعزيز مواقعها. في حين ان الحزب الواحد سعى إلى منع الطبقة العاملة من التعبير عن ارادتها.

ولكن البروليتاريا، مثلها مثل البرجوازية، تشكل واقعاً موضوعياً، اذ ان التصنيع والتطور الاقتصادي مستحيلان بدون نمو الطبقة العاملة كمياً ونوعياً.

ان طرح المسألة بهذا الشكل يسمح بالادراك الافضل للسبب الذي دفع حزبنا إلى السعي على امتداد عشرات السنين، بما فيها مرحلة الحرب التحررية، إلى المحافظة على وضعه المستقل: وذلك من أجل تأمين حضور الشغيلة على أكمل وجه، خلال كل مراحل النضال، في التحالفات الوطنية الواسعة التي نشأت باشكال متنوعة لتحقيق اهداف محددة. هذا هو المفهوم الطبقي والوطني لدور حزب العمال الطليعي.

وقد رأى البعض تناقضاً في سعينا إلى التعبير عن مصالح الطبقة العاملة وكل الامة، وأرادوا تصوير الدور الوطني للشيوعيين بوصفه نوعاً من المناورة التكتيكية. وفي الحقيقة نحن نعتقد ان هذا الجمع هو مسألة مبدئية ومهمة جداً. وتؤكد الاحداث الأخيرة في الحركة الشيوعية العالمية، مرة أخرى، حقيقة بديهية في رأينا وهي ان الطبقة العاملة، كونها قوة مستقلة، لا تتخذ البتة مواقف معادية للديمقراطية تجاه الطبقات والفئات الاجتماعية الأخرى، ولا تسعى إلى الهيمنة الخارجة عن اطار موقعها الحقيقي والشرعي في المجتمع، ذلك الموقع الذي يجب ان تحظى به بالكامل لأن ذلك يستجيب للمصالح الوطنية الحقيقية.

اننا نرى ان مفهومنا متكامل إلى حد بعيد، ولكن لم يدرك الجميع ذلك دائماً بصورة صحيحة، اذ وجّهت الينا اتهامات بالانعزالية تارة وبالسعي إلى الاستيلاء على السلطة عن طريق استخدام الديمقراطية تارة أخرى. كما يزعم البعض ان مراعاة مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية الأخرى تكاد تساوي الانتهازية. وكان حزبنا يرفض دائماً وضعه أمام أحد خيارين، كلاهما غير صحيح، كانت بعض القوى تود فرضه عليه: أما التأييد المطلق لكل أعمال السلطات وأما المعارضة الدائمة لها.

اتشكل تعددية الاحزاب مكسباً أم خطراً؟ لقد واجهنا هذه القضية أكثر من مرة وهي ملحة اليوم جداً، حيث اصبحت واقعاً يعكس تعددية المجتمع الجزائري. ان الفرح الذي نشعر به مع الشعب باسره في الوضع الراهن الغامض والمعقد، بسبب التحولات الجارية، لا يلغي ضرورة رفع اليقظة وابداء المسؤولية تجاه قضايا البلاد والمخاطر المحدقة بها.

ويكمن السؤال الذي يطرحه الكثير من الوطنيين فيما يأتي: أيزيد نظام تعدد الاحزاب قوة مجتمعنا وقدرته على حل القضايا الملحة أم يضعفهما؟

يمكننا ان نؤكد من جانبنا ان كل شيء يتوقف على كيفية تصرف كل قوة وطنية في هذا الوضع. فاذا تقوقع الجميع ضمن مصالحهم الذاتية الضيقة وتجاهلوا المتطلبات الجماعية الاساسية فلن يتغلب النظام القائم على التشتت والفوضى اللذين لم يفلح

الحزب الوحيد الحاكم في تجنبهما. ولكن اذا استند نظام تعددية الاحزاب إلى التعبئة الحقيقية الديمقراطية للجماهير وحل القضايا الناشئة على قاعدة المصالح المشتركة فان قوة جبارة بامكانها ان تولد.

لذلك نرحب بالمرحلة الراهنة بوصفها تقدماً كبيراً أولياً في نضوج شعبنا ومجتمعنا. وهذا التقدم يكمن في الاعتراف بانه ليس بامكان أية قوة سياسية وأي تيار اجتماعي، سواء كان يمينياً أو يسارياً، وبغض النظر عن توجهاته الفكرية واعتبار نفسه الأقوى والأكمل، ان يحل القضايا القائمة بمفرده.

إلا ان هذا المكسب التاريخي العظيم لشعبنا يدعونا لخوض نضالات جديدة من أجل تحقيق تقدم ثان ألا وهو ان نتعلم الافادة بطريقة أفضل من الامكانات التي يوفرها تطابق المصالح وتعبئة الجهود المشتركة عن طريق معرفة بعضنا البعض وتفاهمنا بصورة افضل وبأكثر ما يمكن من الوضوح، أي بمراعاة العوامل التي تقرب بيننا وتميزنا واحترام التناولات والآراء المختلفة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجعوا: علي مالكي: ماذا اعطى دستور البلاد الثالث للجزائريين.

رسالة مفتوحة الى العلماء والباحثين العراقيين

نشرت مجلة (الثقافة الجديدة) في عدد حزيران ١٩٨٩ مقالة للدكتور محمد عبد اللطيف مطلب بعنوان «اتحاد العلماء العالمي» للتعريف بهذه المنظمة العالمية ذات المسؤوليات الواسعة والمهمة. ويظهر بأن في هذا الاتحاد اعضاء من العراق. وهذا ما يعتز به كل عراقي تقدمي، خاصة عندما يطلع على اهداف الاتحاد ومسؤولية اعضائه.

إن الكثير من حملة الشهادات العالية وأصحاب الخبرة من الباحثين العراقيين تركوا وطنهم في ظروف سياسية معقدة وغير متسقرة، منذ عقد الخمسينات ولحد الآن، من أجل لقمة عيش يريدونها بعيدة عن مس كرامتهم ومن أجل أجواء مستقرة نسبياً يعملون فيها بعيداً عن الضغوط والفروض الغريبة عن العلوم وطرق تطويرها.

ويمر رجال العلم والمؤسسات العلمية العراقية بأصعب الظروف منذ السبعينات لحد الآن. فقد اخضع الحزب الحاكم لسياسته وتنظيمة أيضا المؤسسات العلمية: طلبة وأساتذة وباحثين. وحارب كل من أراد مقاومة السياسة السيئة الصيت التي مارسها (الاتحاد الوطني لطلبة وشباب العراق) والهجوم بالاساليب الفاشية منذ عام ١٩٧٨ على كل من ليست له صلة بالحزب الحاكم. وقتل أو بقي مصيره مجهولاً العديد من حملة الشهادات العالية مثل: الشهرستاني، توفيق رشدي، سليم عبد الكريم، صباح الدرة، صفاء الحافظ، حامد الشيباني وغيرهم. واضطر كثيرون الى مغادرة الوطن.

لقد ساءت أوضاع المؤسسات العلمية وانخفض مستوى التعليم بشكل حاد في فترة سنوات الحرب مع ايران وذلك لاهمال العلوم والمؤسسات العلمية وأوضاع الطلبة والاساتذة والباحثين العلميين. وأصبح الولاء للدكتاتور وقادسيته المشؤومة المعيار للتعامل مع الطلبة والاساتذة الذين زجّ بالآلاف منهم في جبهات القتال أو معسكرات التدريب القسري. ولم يفلت اساتذة الجامعات هنا أيضاً من الاهانات والاعتداءات، خاصة على يد ابناء الطغمة الحاكمة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان أحد ابناء الطاغية المدعو قصي يعتدي على الاساتذة بالعصا، ولؤي خير الله طلفاح (ابن خال الحزب) يلقب الاساتذة بـ«القشامر»، ناهيك عن استباحة حرمة الجامعات والمعاهد وغيرها من المؤسسات العلمية والاعتداء على الطلبة والعاملين فيها واعتقالهم.

ويتجلى المستوى الواطيء الذي وصلته المؤسسات العلمية واداراتها في منح كلية الحقوق شهادة دكتوراه فخرية لأكبر مجرم حرب وارهابي في عالمنا المعاصر هو صدام حسين. كما أصبح العمل في المخابرات العراقية شرطاً للقبول في الدراسات العليا خارج وداخل العراق.

ولتبرير تدني مستوى الجامعات تدعي اداراتها ان أحد الاسباب هو وجود خريجي الدول الاشتراكية ضمن العاملين فيها. ومن المضحك ان الدراسة التي اعدتها حول ذلك تقول أن هؤلاء الخريجين يشكلون نسبة ٦٪ من مجموع العاملين. اذن ما هو دور الـ ٩٤٪ الباقين؟ ان غاية الزعم هو زرع الشكوك في الامكانيات العلمية لجامعات ومعاهد الدول الاشتراكية والتمييز بين خريجي الدول الاجنبية.

هناك هموم ومشاكل مشتركة بين رجال العلم والمغتربين تملي الحاجة إلى انشاء منظمة ديمقراطية تضم الراغبين، بغض النظر عن معتقداتهم السياسية والقومية والدينية أو رغبتهم في العودة إلى الوطن، لأن هذه القضية شخصية بحتة، علماً بأن الاغلبية تريد الرجوع الى الوطن.

هناك الكثير من علمائنا وباحثينا واختصاصيينا يعملون منذ عقود من السنين في مؤسسات أجنبية رفيعة المستوى ويلاقون الاحترام من الوسط الذي يعملون فيه.

ولكن يمكن التعاون مع زملائهم الآخرين في منظمة ديمقراطية واحدة يساهمون في تنفيذ أهدا ف واحدة وفي مقدمتها النضال من أجل ديمقراطية التعليم والبحث العلمي في العراق وانقا: نتائج العلوم من استخدامها لأغراض دنيئة كانتاج واستخدام اسلحة الابادة الجماعية التي استخدمت مثلاً في حلبجة الشهيدة، أو لأغراض التعذيب النفسي والجسدي ضد معارضي النظام.

المقترح في هذه الرسالة اطرحه للمرة الرابعة منذ ١٩٨٠ ـ وفي المدة السابقة

طرحته، على الزميل الدكتور كاظم حبيب في شباط ١٩٨٣ . ولاقت الفكرة كل الترحيب. وكاد يرى الضوء حيث كنا قد خرجنا ببيان حول الموضوع بعد نقاش طويل وحيوي نال استحسان بعض حملة الشهادات العالية من الانصار من مختلف الاطراف السياسية. ولكن الاحداث التي شهدتها كردستان أفقدتنا ذلك البصيص من الأمل.

أدعو الزملاء الذين يهمهم الأمر إلى الادلاء بآرائهم حول هذا المقترح أو القيام بتشكيل لجنة تحضيرية تعد مسودة الوثائق المطلوبة (أهداف، نظام داخلي، برنامج محدد. . . الخ). والدعوة الى المؤتمر التأسيسي لمناقشتها واقرارها.

والى الامام من أجل ديمقراطية التعليم والبحث العلمي، وحياة علمية أفضل وتكريس نتائج العلوم من أجل رفاه الشعب.

زميلكم د. ي. ش
١٩٨٩/٨/٣٠

ملاحظات عن مقالة :

الصابئة عبر التاريخ

المادة المنشورة بهذا العنوان (في العدد ٢١٤) جميلة وتسهم في القاء المزيد من الضوء على هذا الموضوع خاصة من جانب المصادر الاسلامية. وعلى ما يبدو، فالمصادر الاجنبية المتوفرة لدى كاتب المقالة د. محمود راميار هي متفقة ومماثلة لتلك التي استعملتها في مقالتي. وبهذا الصدد هناك اتفاق عام في الآراء المتعلقة بأصل الصابئة وهجرتهم من فلسطين بين المقالتين. والمصدر الاساسي الذي اعتمد عليه المؤلف هو اعمال المستشرق رودولف ماتسوخ (أو ماكوخ) الذي ورد اسمه بالاحرف اللاتينية خطأ: R. Macuch. وهو عالم تخصص بالايرانيات جيكوسلوفاكي الاصل، درس على يد المستشرق المجري الاصل يان (يانوش) باكوش في براتسلافا. وقد عمل ماتسوخ (ماكوخ) مع عالمة المندائيات المعروفة الليدي درور لفترة طويلة واصدرا سوية القاموس المندائي: .A Mandaic Dictionary, Oxford, the Clarendon Press, 1963

كان من المفترض التركيز على نقطة هامة هي العلاقة بين صابئة حرّان (ورد الاسم في المقالة بصيغة حوران ـ وحرّان هي التسمية الصحيحة المتفق عليها للمدينة السوريانية التي تقع اطلالها اليوم في جنوب تركيا) وبين الصابئة المندائيين. ويذهب اغلب الباحثين الى وضع حد فاصل بين الملّتين لوجود اختلافات فيلولوجية ـ دينية بل وحتى اثنية بين الجماعتين ويمكن الرجوع الى كتابات الباحثين السوريين الذين درسوا الآراميين والسريان بالذات (مثلاً د. علي عساف).

هناك ملاحظات عامة على ما ورد في المقالة المترجمة، بالاضافة لبعض الاخطاء المطبعية، وهي:

١ ـ كلمة «اليردنة» ليست دلالة الماء الجاري كماء بذاته، بل تعني النهر= النهر الجاري أو النهر الحي. ويقال بالمندائية: يردني ورهاطي أي الانهر والجداول. وهناك

كلمة اخرى للدلالة على النهر عربية الاصل وهي : نهرة، وجمعها نهرواثة.

٢ ـ اسم العالم في ص ٢٣ هو بوركيت : .Burkitt, F. C.

٣ ـ التعميد ليس ماسويتا Maswetta ، بل (بفونيتيكية ادق) : مصبوثة أو مصووثة Masbuta ومن المفضل اتباع الأحرف اللاتينية المستعملة لكتابة اللغات السامية ـ فمثلاً حرف العين يكتب بصيغة حرف C صغير اعلى السطر.

٤ ـ بصدد كلمة مندادهيي ـ فهي تعني معرفة الحياة (بالجمع، الحيوات) لوجود اربعة مستويات من الحياة لكل منها اسم يجسده الاسم بشكل كائن مثل (هيبيل زيوا) أو يوشامن زيوا.

٥ ـ من الافضل استعمال كلمة المعرفة بدل العرفان ـ والمذهب هو المعرفية = الغنوصية أو الغنوسطية Cnosticism. والمعرفية تيار فلسفي ـ ديني انتشر في القرنين الاولين قبل وبعد الميلاد. وجوهره يتمثل في ان خلاص الانسان Salvation يكمن في المعرفة العميقة ـ أو المعرفة الخفية. ويعود هذا التيار الى الثنائية dualism الايرانية الاصل: الخير والشر، النور والظلام الخ والصراع بينهما. والانسان طرف في هذا الصراع لانه شطرين: الروح قطعة من عالم النور، والجسد، المادة، قطعة من عالم الظلام ومن هنا يكمن خلاص الانسان في معرفة جوهر الكائن العلوي Transcendency.

ولم يتضمن القانون (العهد القديم والجديد الذي تعترف به الكنيسة واليهود) النصوص المعرفية التي تتميز عموماً بالكثير من الـ speculation = التمعن، التفكير وكذلك تعني هذه الكلمة الافكار المنعزلة عن الواقع والتجربة. ومع ذلك يتضمن انجيل يوحنا بعض التعاليم المعرفية.

٦ ـ دراشي ديهيى لا تعني احاديث يحيى بل دراسات يحيى Essays وتكتب drašia. d - iahia

٧ ـ حوران هي مدينة حرّان في كل النص.

٨ ـ في ص ٢٦ فقرة ٢ : اسم كتاب درور ليس Studie Testi بل :

The Harran Gawaita and the Baptism of Hibil - Ziwa. Città del Vaticano, 1953 (Studi e Testi 176)

أي الحلقة ١٧٦ من سلسلة «نصوص ودراسات» وصدرت في مدينة الفاتيكان.

٩ ـ اسم الملك الفرثي (Partheus) هو ارتبانوس ـ انظر ما ورد في ث.ج. عدد ٢٠٢ (وقد ورد في مقالتي بالسهو أن الملك هو ميدي والصحيح كونه فرثيا).

١٠ ـ المصدر رقم ٢٩ : الصحيح هو سدرا ربّة أي الكتاب العظيم.

ثائر الصابر


أدب وفن



ثلاث قصائد

مصطفى عبد الله

أقامت جهات عديدة في القنيطرة في المغرب حفلاً تأبينياً بمناسبة اربعينية الرفيق الشاعر الراحل مصطفى عبد الله، التي صادفت ٨/ ١٢/ ١٩٨٩

القيت في هذا الحفل كلمات عديدة، وقُدمت بعض من قصائد الشاعر التي أخرجها للمسرح أمين عبد الله.

كما اصدرت لجنة الحفل بطاقة تعريفية بالشاعر احتوت على نبذة من حياته، وكلماتٍ لاصدقائه من ادباء المغرب، وثلاثة نماذج من شعره، نُعيد نشرها ثانيةً في مجلتنا.

اننا، باسم الثقافة الجديدة، نتقدم بالشكر إلى كلّ من ساهم في إقامة هذا الحفل: وزارة التربية الوطنية في القنيطرة، ثانوية التقدم، جمعية الأنشطة الاجتماعية والتربوية، جميعة الاعمال الاجتماعية، جمعية النادي السينمائي ـ القنيطرة، جمعية اساتذة العلوم الطبيعية، جميعة التشكيليين في القنيطرة، اصدقاء الفقيد.

وبدورنا ندعو عائلة الشاعر واصدقاءه ومحبيه إلى جمع نتاجاته وموافاتنا بها من أجل طبعها لاحقاً وكتابة ذكرياتهم عنه، وفاءً لذكرى رفيقنا الشاعر.

هيئة التحرير

الاجنبيّ الجميل

أنا الاجنبي طويت الكتاب
دخلت الحقيبة منتظراً أن يجيء القطار
أنا الاجنبيّ
معي قلبي
ولست وحيداً ولكنني في البقية، وحدي
أنا الاجنبيُّ
عرفت حدودي
فرتبتُ لي وطناً من ورق
- انه علبةٌ للسجائر -
وحين يباغتني في المقاهي القلق
ويتبعني مثل عود ثقاب
ألمُّ متاعي وأشعل سيجارتي
ثم أمضي.
حفيفاً،
بما يحترق!
أنا الاجنبيّ الجميل
وقفت مع الواقفين
تزاحمت، لكنني في المكان القليل
أميل
لتعبر قبلي الحقائب
ويعبر قبلي الزمان
ويعبر قبلي المكان

تعلمت ان أنتظر
وأصنع لي وطناً في جواز السفر

دمي

دمي أيها النازف الحلو
لا تكن خالصاً وثقيل
وأحترس أن تلوّن هذا التراب
وحتّى الثياب
ولْتَكُنْ مثل ماء المطر
لفحة من هواء قليل
تكفي لتمحو رسمك فوق الكتاب
وتحفظ وجهك: أن ينقش الدود فيه
وأن يستريح عليه الذباب

سيدي الصمت

أيها الصمت
ياسيدي في الكلام
انني اغلق بابي عن الريح . كي استريح
وأنفخ فوق الشموع
وأسمع كلّ الطبول
أيها الصمت
ياسيّدي في الكلام
تحملتني في الكثير
ضقت بي في القليل



رقصة السولو

ستنغ ترجمة: يحيى علوان

في عام ١٩٨٦ قام الشاعر والمغني الانكليزي التقُدمي ستنغ Sting مع فرقته بحملة من أجـل الافـراج عن المعتقلين السياسيين عمـومـاً في العالم. إلتقى خلالها بسجناء سياسيين سابقين، بضحايا التعذيب والاعتقال الكيفي. التقى بضحايا العسف والارهاب من كل أنحـاء العـالم. حينها قال: «أن تقرأ شيئاً عن التعذيب، قضية حقاً، ولكن ان تتحدث إلى واحد من ضحايا التعذيب، فهذا ما يقرّبك خطوة من هذا الواقع المخيف. لقد تأثرنا جداً بتلك اللقاءات، عندما علمنا ان هناك آلافاً من المفقودين في شيلي، من ضحايا كتائب الموت والاغتيال وقوات الأمن والبوليس والجيش. فالاعتقال الكيفي دون محاكمة وعمليات التعذيب ممارسات يومية. شاهدنا رقصة سولو فريدة أدتها مجموعة من النساء، زوجات وبنات وأمهات المفقودين. كن يحملن صور اعزائهن مثبتة بدبابيس إلى ملابسهن السوداء. كانت تعبيراً مشحوناً برمز مكثف عن الاحتجاج والحزن اللذين يعمان هذه البـلاد، حيث الديمقراطية لا تحتاج إلى ـ الدفاع عنها ـ كما يزعم الجلادون، بل تحتاج إلى تطبيقها قبل كل شيء.»

لقد كتب ستنغ هذه القصيدة وغنّاها وما كان يدري انها لا تصلح لشيلي فقط بل لفلسطين والعراق والسودان وغيرها من البلدان، حيث آلة القمع لا تقل بشاعة عما في شيلي، حيث يتسمّى الجلادون باسماء أخرى غير بينوشيت ولكنهم أخوته وبنو جلدته. ستنـغ كتب هذه القصيدة وغنّاها ولم يحلم ربما ان تترجم إلى العربية بالذات وبالتالي ستصبح ملكاً لآخرين دون ان يُسألَ عن حقوق طبع ونشر!

لِمَ ترقص هؤلاءِ النسوة لوحدهن؟
لِمَ يتركّزُ كل الحزن في عيونهن؟
ماذا يفعلُ الجنودُ هنا بوجوه كالصخر؟
لا أتبين ما يستثير حقدهن
إنهن يرقصنَ مع المفقودين
يرقصن مع الموتى
يرقصن مع الغائبين
حزن يفوق الوصف
إنهن يرقصن مع الآباء
يرقصن مع الأبناء
يرقصن مع الأزواج
يرقصن لحالهن، لحالهن...

* * *

إنه الشكل الوحيد من الأحتجاج المباح
وجوه صامتة تعجُّ بصراخ أخرس
فلو أطلقنَ صرخة
لكُنَّ في عداد المفقودين
إمرأة أخرى على طاولة التعذيب
تُرى ماذا يفعلن؟
إنهن يرقصن مع المفقودين
يرقصن مع الموتى
يرقصن مع الغائبين
حزن يفوق الوصف
إنهن يرقصن مع الآباء

يرقصن مع الأبناء
يرقصن مع الأزواج
يرقصن لحالهن، لحالهن...

* * *

سيأتي يوم نرقص على قبورهم
سيأتي يوم نغنّي فيه لحريتنا
سيأتي يوم نفرح فيه ونضحك
وسنرقص
يامستر بينوشيت
أما تدري أنك زرعت نبتة مرة!
نقود الأجانب تدعمك
سيأتي يوم تتوقف عنك
ولن تبقى مرتبات للجلادين
ولا ميزانية لأسلحتك
هل لك أن تتصوّر أمك
ترقص مع إبنها المُغيَّبْ
إنهن يرقصن مع المفقودين
يرقصن مع الموتى
يرقصن مع الغائبين
حزن يفوق الوصف
إنهن يرقصن مع الآباء
يرقصن مع الأبناء
يرقصن مع الأزواج
يرقصن لحالهن، لحالهن...

ثلاثة بوسترات لفلسطين

عواد ناصر

١ . الخيط

خيطٌ من الكّتان أحمر يغزل السبتَ الفلسطينيَّ منذ الطلقة الأولى وأحلام البناتْ
منذ البيانِ الطفلِ حتى ساحة الاضراب
[قبل دقيقة وثلاثَ طلقاتٍ سيُردينَ الفتى]
يمتدُّ خيط أحمرُ العينينِ حتى مقتلِه.
يمتد هذا الخيط من شريانه حتى قصائدنا الشغوفةِ بالسؤال:
ـ أكلما صِرنا وأوشكنا على. . . كان الطريقُ بأوَّلِهْ؟
يمتد هذا الخيطُ من نصِّ المخيم شارةً للنصرِ
أُفقاً أحَمراً من كرملٍ كالمستحيلِ ـ السهل
والتسآل حولَ الممكناتِ ودولةٍ
لا تشبه الدولَ الشقيقةَ. . .

إنه يمتدُّ، خيطُ الله، من لغة البدايهْ
إني أراه، الآن، رايةً

في دولةٍ لا تشبه الدولَ الشقيقة والشتاتْ
إني أراها رايةً لا تشبه الراياتْ!

١٨ كانون الاول ١٩٨٩

٢ . اسئلة

كم تساقطنا وحيداً وغريباً وقريباً وبعيداً وقتيلاً وجريحا،
ولكم تبقى فلسطين على واجهة البنكِ
ومبنى مجلس الأعيان؟
كم يفتتح الضباط سجناً باسم يافا؛
ولكم يبقى «الشعار المركزيُّ»
مدفعاً يطلق ريحاً ياأريحا؟
ولكم قال لنا اباؤنا الأحبار ما قالوا عن القدس وحيفا؟
ولكم تبقى «فلسطين» لنا سجناً، من البحرِ إلى البحرِ، فسيحا؟

٣. (...)

نحن كنا الواحدَ الأعزل والكونُ جيوشاً ويهودا
فانهزمنا، وكأنَّ الحربَ عاداتٌ، وما كنا الجنودا
عند أسواركِ، ياغزةُ، ينمو حلم الابناء صفصافاً حزيناً وعنيداً،
هل يعودون قليلاً لنعودا؟
لتصير الارضُ أرضاً تتهجانا نبياً يَشبه الأرضَ
وقرآنا جديداً؟

٢٠ كانون الاول ١٩٨٩

قصائد

بيان الصفدي

لو حدث ذلك فجأة!

إذا فتحت باب القفص
أعرف أن العصفور سينطلق
فارداً جناحيه في السماء
وإذا رميت حجراً في البحيرة
أعرف ان الدوائر ستتداح
واحدة . . . إثر أخرى
أعرف أنني لو فتحت قلبي
لتساقط منه الدموع . .
والقُبلْ . .
والأغاني
ولكن . .
ماذا سأفعل عندما يمسكون بي

ويقولون فجأة : أنت حرّ
عندها يا إلهي
ما الذي سأفعله بالحرية؟
أعتقد أنني سأنظر في عينيها
كالأبله . .
فقط . . . أنظر في عينيها ! .
- ١٩٨٧ -

حياة وموت

قَشَّةً .. قَشّةً . . أبني عُشّي
قال العصفور
قطرةً . . قطرةً . . أعصر صدري
قالت الغيمة
قبلةً . . قبلةً . . أحيا
قال العاشق
كلمةً . . كلمةً . . أموت
قال الشاعر

- ١٩٨٧ -

الحرب

بهدوء ثقيل كالرصاص
يتقدّم الجنرال حاملاً عود الثقاب
مشعلاً النار في آلاف السنوات
من الذكريات والأحلام!
وبهدوء ثقيل

يقول : تقدَّموا
كم دمعةٍ ستسقط في هذا الليل!
ابتسم . . ابتسم أيها الوطن!
الضبع بشِدْقه المدمَّى
يقف عند الباب
والجنرال الشاب ينظر
إلى التوابيت والمعوَّقين
إلى مناديل الامهات الملوِّحة
إلى الايتام والأرامل والخرائب
ويرفع يده . . . بالتحية!! .

- ١٩٨٤ -

قصيدتان

محمد نور الحسيني

«إلى زفاف عاشقين بعد حلبجة وبعد ما تم من هجرات»

ستأتين «هيوا» إلى المهرجان.
لكِ الدبكات..
وصوتُ المغني
لكِ القامةُ الناحلةْ.
لكِ الشرفةُ الذابلةْ.
لكِ ما يدوزن آهاتنا
من الدمعِ والدمِ والأرجوانْ
لكِ ما تفتّح - في الليلِ - من أقحوان
بكاساتنا الذاهلة.
لكِ الطفل

ظلّ يفتش عن راية جانية
وعن حلمة دانية .
لكِ سيغني «وهانينا . . هانينا» و «شمعة . . شمعتان»
وديلانُ يأتي .
من الفجر يأتي
وعذباً كصوت الجزيري .
نديَّ المحيا كمثل بلابل بوطان .
يمدّ مواويل كوران .
إلى ذروةٍ من نشيد .
وديلانُ يأتي .
إلى غابة آفلة .
لينقذَ من شبح الطيران .
حنيناً وسرواً وصفصافةً .
لينقذَ من صخب الطيران .
مرارةَ شعبٍ .
تسمّي الأغاني .
وعزفاً شجياً نكرره/ تحت سقف من الكيمياء . .
لينقذَ أفقاً نظيفاً . . وعيناكِ ناعستان
تظلان صوبَ المدى/ حماماً وعشاً وعاشقةً .
و «ديلانُ» يأتي وأشجانه قمرٌ في الشتاء
وأحزانُه خصلاتُ
تدلّتْ على سفح همرينَ ليلا
يضرّجها «زغروس» بأشواقه العالية .
وهذا الفضاء بخيل فلا يغفرُ شهوةَ الطاغية
لكَ أو لـ «هيوا»
في بناءِ سريرٍ

على فَخْذِ «زاخو» .
وهذا الفضاءُ غزيرٌ/ رصاصٌ وغازٌ
لكَ أو لـ«هيوا»
لكي تبدءا في بناءِ وطنْ
سنلبس معطفنا المطري
نلمّكَ «زاخو» ضفافاً . . ضفافا
عذاباً مديداً وسيلاً من الجمراتِ
وعاصفةً من زنابق
ستجري طويلاً/ بدجلةَ تجري
بخابورَ تهمي عطوراً
وفوحَ فراتٍ
وهيوا الطويلةْ
وهيوا النحيلةْ
تجرُّ إلى الخيمة الشاردة
نيازك ثوبٍ
وتحزنُ أيضاً
وترنو بأهدابها
إلى القمةِ الماردةْ
ونحزنُ أيضاً
وهيوا تُزَفُّ بهذا الشتاء
على مفرقٍ من رعود
وتحتَ انعطافِ السماءْ
على قدميها/ لتدهنَ منها الأصابعُ
بزهرةِ حنةْ
وزهرة نار
وديلانُ يأتي قبيل الأوان

يشمّكِ هيوا/ يشمُّ نسيمَ الجبل
وعصفاً من الرغباتِ
وزوجَ حجل.
ويأتي القطا في يديه
كضوءٍ شفيفٍ سيجري/ كماءِ الحياةِ
يضمّكِ ليلا/ كما خيمةٌ تشرقُ
كما ينبتُ البرتقالُ بخديك هيوا
كما ينضجُ العسلُ بأشهى قفيرٍ/ بأعلاكِ هيوا/ بأعلى جبل.
له الثمراتُ/ لديلانَ ما يشتهيه من البرقِ والبيرقِ
له من تُزَفُّ على رقعةٍ من نشيد
له سلطةُ الغائبين
له سطوةُ الشهداءِ.
له ولهيوا/ ستفرد خيمةْ
على نور نجمٍ
قريباً من الرب.. بعيدا.. بعيدا
بأعلى
وأعلى
وأعلى جبل.

* كأنه نيزك. . . كأن الوقت شارة من نعاس *

ـ الى ذكرى فيدريكوغارثيا لوركا ـ

هو أكثر انسياباً من رغوة الصباح
أشد رهافة من غلالة الرخام / لكنه كوكب متهور في اتجاه الندم
يفتض دمعه في الريح
تنتفخ أحزانه في العاصفة
موسيقى روحه تفور كالنبيذ
تتبعه الطفولة وتشده الى أجراس زرقاء
يذرفها الناي في مملكة غامضة
في حديقة ملتهبة بالاسئلة وعبق الدهشة
في سفح طرى تتعالى فيه الاناشيد وتشرئب الصلوات
في كمثرى الدماغ / بلاط الطفولة العاري.حيث تهب الاعياد
في حقل من التشابيه والندى
كل الاشياء تنتصب في حضوره اللاذع / في اصراره على الغبطة

القمر قط من أرجوان فلمـاذا لا يداعب شاربيه
الغيمة ثدي من حليب فلماذا لا يتوسدها ويرشف درها
كالقطا يتدرب على الحنين / يستسيغ ههفهفة الالوان
هناك في ظلال الدفلى أنجبته الاستعارات فأصبح يميل الى البنفسج
يسند رأسه الصغير الى اسباب من دفء / لا يحبذ المراجيح ـ ينتبذ فضاءً مريرا
ويتقدم الى جمرات الرحلة الخامدة ـ بذرائع من شغب
سينهكه النزق في كهولته / سيطعن السنوات بالزنبق وسالفين اخضرين / سيلم
خصر امرأة من غابة الاجراس. . لكن هل سينهشه افعوان النميمة / اذ لا احد
سيشعل ذراه بالذكريات / سوى القمر حيث خصلاته تنتحب في العتمة ـ كألف
كمان ـ

لانه منذ اكتماله داخل في زبد الآتي / ماض ليفك وشاح السيدة / تتعثر خطواته في غبار الذهب وتعيق اهدابه الواجهات الساطعة / لكن الشرفات المشرئبة مثل عناقيد الشوق تحتفي بخطواته الزرقاء / النمال لن تقضم افق رحيله / ستنفتح حقـائبه الى ثريات مطفأة ونهر... الى قدمين غافيتين.. الى زمن يتململ في حياده / لكن دماغه سيمتد الى المستقبل كأنه قطيع من نيازك / سيصحو من كسل وسوسن / ليمت الى دم نافر بألف مهجة وسبب / ليدعو الطاغية نحو مجاذبة متكافئة / رويدا.. رويداً يستعيد ايقاعه ويمضي الى السباق في الحلبة يرفرف دمُـه كأنّه برونز / كأن النواقيس تجهش بقصيدة جديدة / كأن الوقت شارة من نعاس كأنك تخطو الينا / خصلاتك تنتحب في الريح ودمعك يضيء العاصفة.

عامودا ـ اواخر آب ـ ١٩٨٨

ذات مساء... كل مساء

نجم والي

دخل علي إلى المقهى، واتجه مباشرة إلى الزاوية المجاورة للزجاج، جلس هناك وكأنه يعرف المكان منذ زمن بعيد. خلع بيريته بوهن ليضعها بجانب كيس النايلون الصغير الذي ألقى به جانباً والذي احتوى على منشفة كانت ما تزال رطبة بعض الشيء وادوات حلاقة ومعجون وفرشة اسنان. لم تغير الحرب عادته بحمل هذه الاشياء رغم انه وفي احايين كثيرة لم يجد الوقت الكافي لحلاقة ذقنه أو تنظيف اسنانه.

أخرج سيجارة من جيبه، اشعلها ونفث دخانها بهدوء، ثم رفع ببصره من خلال زجاج النافذة. تثاءبت شمس المساء أمامه، وبدت له حمرتها عالقة بالشجيرات القليلة المنتشرة في ساحة أم البروم. عاين ساعته وهتف في داخله «ما زال هناك الوقت الكثير» يعرف انهم معظم الاحيان يتأخرون في التسوق في سوق الخضّارة، ولكن مهما حدث فانهم سيظهرون في الساحة، فقد دأبوا على تناول الشاي في هذه المقهى قبل ان يتوجهوا إلى وحدتهم، يفضلون شاي هذه المقهى لأن صاحبها يعمله على الجمر. ومثلما هو دائماً يستطيع تمييز سيارتهم من بوقها الخاص الذي عمله سائقها محسن. والذي كما اباح لعلي يفرحه افزاع اولئك الصعيديين الذين كانوا يفترشون الساحة كل مساء، محيطين بجرائدهم

المفروشة على الثيل المحتوية على قطع من الخبز والبصل وفي مرات كثيرة على الفلفل الاخضر أيضاً. ولا يدري علي لماذا يفزع هؤلاء عند سماع البوق، اذ ربما اعتاد أصحاب المقاهي في الساحة على بوق محسن الذي يشبه هلهولة صارخة.

هذا المساء أيضاً لم تخل الساحة من الجنود المتواجدين هناك لهذا السبب أو ذاك. فمعظمهم ينتظر ـ كما هي الحال عند علي ـ قوافلهم العسكرية المارة من الساحة، فيما يكون القسم الآخر قد جاء للتو من وحدته في اجازته القصيرة. تمتليء الساحة أيضاً بالكثير من النساء التي بدا على وجوهن الانتظار «ربما ينتظرن ازواجهن أو ابناءهن» هكذا اعتقد علي. ورغم زجاج النافذة، فقد كان يصل سمعه ضجيج سيارات النقل وصياح شرطة المرور، وصراخ الباعة، ضجيج ربما كان اخف الآن عند هذه الساعات من المساء، عندما تبدأ الشمس بالانتفاخ ككرة من النار هابطة إلى الجزء الآخر من العالم، مثلما تفعل الآن، ومثلما تصورها علي الذي يفتح عينيه باتساعها كلما رآها تنخفض متجهة إلى جهة تختارها هي. كان قد علق النظر هناك، وكأنه يريد متابعتها. ليست هي المرة الأولى. يفعل ذلك في معظم المساءات. وأيضاً ليست هي المرة الأولى التي يغزو فيها اسى خفيف وشفيف يجعل تقاطيع وجهه العشريني الناعمة تتقلص بحزن، حافرتين خطين بين وجنتيه وأنفه، خطين ربما لا يصلحان إلا لرجل في الخمسين، وليس لشاب مثله، انتهى من دراسته قبل أشهر قليلة في معهد التكنولوجيا وحصل على اجازة للمرة الأولى. ترى لماذا تثير شمس المساء فيه هذا الشعور؟ في خندقه مثلاً، هناك في مكان ما على الجبهة، كثيراً ما كان يتخيل جندياً آخر في مكان ما، عند جبهة ما، يتأمل هو الآخر هذه البرتقالة المشتعلة (كما يطلق عليها في مرات أخرى)، ربما يسري الوجد فيه أيضاً أو الأسى ذاته، والذي يجعله يحس بشيء أشبه بالخوف يستحوذ عليه مرة واحدة، ويجعله ملتصقاً بالزجاج هناك غير شاعر بالسيجارة التي بدأت تحرق أصابعه وجعلته ينتفض قليلاً ليلقي بها تحت اقدامه.

لقد كان تعباً، تعباً حقاً، وذكريات يوم ممّل ما تزال تطن في داخله، تختلط مع ضجيج المقهى. لم يستطع تمييز ما يقولونه وسط تلك الزحمة. لقد ازدحمت المقهى بروادها، وأياً كان ما يقولونه يبدو لعلي عصياً على الفهم. كانوا يبدون له مجرد شفاه تتحرك، تتحرك وبطنطنة فقط تلقي بما تريده. من مكانه لمح شفاه صاحب المقهى الذي أراد يقيناً، ان يسأله عما يطلبه، والذي لم يجد غضاضة من اجابته، أو الصياح به «شاي، شاي». ربما هو الآخر كان مجرد شفتين، اذ انه لم يكلف نفسه عناء السؤال مرة أخرى. اكتفى صاحب المقهى بهز رأسه بـ «نعم» وحمل فنجان الشاي له بسرعة عجيبة وكأنه كان

مهيئاً له هناك منذ ساعات، ليضعه امامه على المنضدة، غير ناس ان يقول له بأن الدفع هنا مقدماً, وعلي دون ان يعلق بأيّما كلمة يسحب درهماً من جيبه ويدفع به إلى الرجل الذي ما ان يأخذه بين يديه حتى يختفي بين تلك الزحمة مرة أخرى، زحمة عجيبة من القرويين، والجنود والباعة المجاورين للمقهى.

حرك علي ملعقة الشاي وبدا له صوت ارتطام الملعقة مضحكاً مقارنة بذلك الضجيج، رفع الفنجان إلى شفتيه، عاين الساحة، لم تصل سيارة محسن بعد، القى نظرة إلى ساعته. وهمس «ما زال هناك وقت»، ثم إلى داخل المقهى مرة أخرى. الضجيج ذاته. ولبرهة انتقلت عيناه إلى باب المقهى. وهناك توقفتا، عندما لمحتا صبياً صغيراً، يهم بالدخول. لا يدري لماذا بدا الصبي له غريباً، اذ من مكانه لمح دشداشته التي تهرأت عند اطرافها بعض الشيء، فيما بدا شعره كثيفاً وغير طبيعي لعمره الذي لم يتجاوز العاشرة ربما. ومع دخول الصبي إلى المقهى، دارت عيناه. رآه يتجه بالذات إلى الجنود المتواجدين في المقهى. ووسط تلك الزحمة والضجة لم يفهم ماذا كان يريده الصبي. يقيناً لم يكن شحاذاً اذ لم يفتح يديه طالباً شيئاً، انما اكتفى بالقاء اسئلة ما، ترى ما الذي يبحث عنه؟ لم يكتف الصبي بسؤال الجنديين اللذين التقاهما يخرجان من المقهى عند دخوله، بل تابع طريقه حيث جلس جنود آخرون في طرف المقهى. ومما أثار استغراب علي هو سخرية الجنود من الصبي، اذ لم يضحك منه الجنديان اللذان خرجا، انما أيضاً الآخرون، حتى ان احدهم والذي يبدو انه رجل من الانضباط العسكري مسكه من كوعه ودفعه بصورة لا تخلو من العنف مشيراً له بالخروج من المقهى.

لمح علي الصبي يتحرك من مكانه، جائلاً نظراته بين زوايا المقهى، ثم ليتوقف مسمراً النظرة باتجاهه. كان ينظر إلى علي وكأنه يعرفه منذ سنين، لقد بدت نظرة الصبي لعلي حزينة، منكسرة، أثارت فيه الاضطراب. هذه المرة شعر بشيء أكبر من الخوف يغزوه، يتوزع بين الاوردة والشرايين. شيء أقوى من ذلك الذي تحمله له شمس المساء التي لم تترك الآن سوى أشعة جمراء، تمد لسانها إلى داخل المقهى وتصل حتى الصبي الذي وان تردد في البداية بالتوجه صوب علي، إلا انه استجمع قواه ليسير حيث جلس علي، وبحزم.

اضطرب علي ولمس كيس النايلون المستقر بجانبه، ثم رفع بيرته وأخذ يداعب اطرافها. وصل الصبي اليه. ولبرهة حدق احدهما بالآخر، ثم فجأة اخرج الصبي صوت لم يخلُ من الانكسار أبداً:

ـ تسمح لي بسؤال؟

حدق به علي بعمق هذه المرة. ازداد اضطرابه. لقد بدا الصبي له وكأنه لم ينم منذ أيام، بل اسابيع. لمح كيف ان دشداشته لم تكن ممزقة فقط عند اطرافها، انما أيضاً عند الصدر، فيما انتشرت بين ثناياها الكثير من الثقوب. وبدت تقاطيع وجهه وكأنها لرجل في الثلاثين. كان بامكانه ان يدرك تعبه. وبدون ان يدري خرج صوته:

ـ أنت تعبان.

هز الصبي رأسه فأكمل علي.

ـ خذ مكانك.

تردد الصبي قليلاً، ثم تحرك وكأنه بدا يطمئن لعلي. جلس قبالته بعد ان القى نفسه بوهن هناك. وبصوت تعب:

ـ صار لي أيام كثيرة أتجول خارج البيت.

فسأله علي بفضول:

ـ أين بيتكم؟

لم يترك الصبي عينيه المصوبتين باتجاه علي. واكتفى باشارة من يده التي رفعها باتجاه الزجاج:

ـ هناك. بعيد. المهم اني أمشي منذ اسابيع. أدور. . .

وفجأة توقف الصبي. أشاح ببصره عن علي وكأنه خاف ان يكمل جملته.

لقد هجس علي تردده. ألم يكن هو الآخر متردداً في سؤاله للصبي؟ لا يدري لماذا اندفعت عيناه في تلك اللحظة إلى قدمي الطفل اللتين استقرتا حافيتين تحت المنضدة، فيما بانت الفطور المنتشرة بوضوح قوي. لقد ذكرته بارجل الفلاحين، أو بأولئك الذين يسيرون مسافات طويلة حفاةً. يقيناً ان الصبي أتى من مكان بعيد.

سأله:

ـ هل تريد شرب شيء؟

أجابه الطفل بسرعة:

ـ لا. أكلت اليوم. أنا أمر كل يوم بأمرأة. .

توقف وأشار بيده:

ـ هناك. انها طيبة مثل أمي. تطعمني كل يوم. وكل يوم تشجعني على ان أدور عن. . . .

مرة أخرى توقف، فسأله علي الذي لم يرد ان يتركه هذه المرة في صمته:

ـ هل انت منذ زمن طويل في البصرة؟

فأجابه الصبي :

ـ لا . نعم . منذ وقت . . . آخ لا يهم .

صمت وبـدا ساهمـاً هذه المرة . لا يدري علي لماذا كلما هم بسؤاله عن سبب تجوالـه ، يرتد لسانه كصمام ، ينغلق . ترى هل يخاف جوابه ، ولماذا؟ ما الذي يجعل اضطرابه يزداد كلما اراد ازاحة ذلك الصمام؟ بل ما الذي حصل لصمامات الرأس لتفتحا بهذا الاتساع ، وتجعلا اضطرابه يزداد وألمه يثقل ويثقل .

لم يتركه الصبي في اضطرابه ، انما هتف من مكانه :

ـ انك تشبه أخي . حرامات انك لست أخي .

لقد اختفى ضجيج المقهى تماماً من رأسه ، وكأن ما يدور هناك يحدث في عالم آخر . أو كأن ما يدور هناك يختفي في زوايا المكان ، لقد اختفى كل شيء ، ويبدو ان صوت هذا الصبي قد سيطر على كل جنبات رأسه . وبصعوبة بالغة أخرج صوته :

ـ ما أسم اخيك .

فأجابه الصبي بسرعة :

ـ علي .

هل أرسل احدهم هذا الصبي ليزيد اضطرابه؟ أم هي صدفة تستفزه الآن وتجعله يشك في كل شيء؟ بل يفكر فيما اذا كان هو اخوه بالفعل؟ وإلاّ فما الذي جعلهما عندما لمحا بعضهما ينظران احدهما للآخر وكأنهما يعرفان البعض منذ زمن؟ لم يشأ ان يقول له ان اسمه أيضاً علي . بل لم يشأ ان يسأل الصبي عن اسمه ، اذ ربما سيجن عندما يعرف ان اسمه وليد كما هو اسم اخيه ذي السن العاشرة كما هي حال الصبي؟ كلا . وإلا فانه مطب إلى الجنون لا غير . لقد اكتفى بالتحديق بعيداً عن الصبي ، لقد علقت عيناه بالساحة وكأنه يود ومن اعماقه ان تظهر سيارة الارزاق وتقله إلى وحدته . ولا يدري لماذا هتف محدثاً الصبي :

ـ لقد تأخروا كثيراً .

والصبي الذي ربما لاحظ ارتباك علي ، سأله :

ـ أين وحدتك .

فأجابه علي بصورة اوتوماتيكية ، وكأن شخصاً آخر يجيب عنه :

ـ في الفاو.

هز الصبي رأسه ، دون اعلان أية مفاجأة ، وكأنه يعرف المكان بدقة .

ازداد فضول علي فسأله بحذر:

- هل تعرف الفاو؟
هز الصبي رأسه بـ «لا». ثم اضاف:
- علي كان يحدثني دائماً عن الفاو. كانت وحدتهم على ما أعتقد هناك.
فسأله علي مقاطعاً:
- أين وحدتهم هذه الايام.
حدق الصبي به. وظلت نظراتهما هكذا معلقتين الواحدة بالأخرى. وللمرة الأولى يرى علي خوفاً في عيني الطفل. ترى ما الذي يخافه. هذه المرة لا يدري لماذا لم يتردد في سؤاله:
- هل تخاف؟
وبثقة رجل كبير أجابه الصبي:
- أخاف ان تقول لي لا.
ودون انتظار تعليقه بدأ الصبي بالحديث وبحماس:
- الكل يقولون انهم لا يعرفون، غير صحيح. لماذا الكذب، أين علي، كان في الفاو... و... لا أدري.

وعلي الذي لم يزدد اضطرابه فقط، انما فضوله أيضاً، وكأنه يريد الانتهاء من هذه القصة وبسرعة، عاين ساعته ثم الساحة ليس باضطراب فقط، وانما بخوف، خوف ازداد عند لمح ظلمة خفيفة بدأت تغزو الساحة ببطء، فيما بدأ الصعيديون ومنذ وقت ليس بقليل بمغادرة الساحة تاركين هذه المرة فقط الجنود الراحلين مع قوافلهم والجنود القادمين في اجازاتهم. «ترى متى يأتون، لماذا تأخروا كثيراً هذه المرة» هتف في داخله بخوف. وللحظة جاءه صوت الصبي:
- تعرف أخي علي؟
ظل علي محافظاً على صمته، فيما كان قد ترك بيريته تستقر فوق المنضدة، فيما ازداد حماس الصبي بشكل عجيب، وراح يلقي بجمله وكأنه لم يستطع التحدث منذ زمن طويل، أو كأنه فقد صبره، دون ان يخلو صوته من انكسار يائس أشاع الخوف في علي.
- أنت مثلهم. تقول لا تعرفه. كلكم كذابون، انت في الفاو ولا تعرفه. انه في الفاو. هذه المرة مفقود. كيف لا تعرفه، لا يمكن.

لم يجد علي الوقت الكافي لتهدأته، اذ نهض الصبي من مكانه فجأة، وانخرط في بكاء حاد، لا يدري ما الذي جعله يبقى منغرساً في مكانه، وكأنه قد شل منذ زمن طويل، لم يستطع فعل أية حركة تمنع الصبي من ان يندفع وبقوة خارج المقهى دون التوقف عن

بكائه وترديده.

ـ كذابون. كلكم كذابون. أين أخي؟

لبرهة بقي علي في مكانه دونما حراك. لم ينتبه في البداية إلى صاحب المقهى الذي أتى عنده ليحمل فنجان الشاي الفارغ والذي قال له:

ـ لا تهتم انـه طفـل مجنون، الكل يعرفه. يأتي كل يوم إلى هنا يسأل عن اخيه المفقود. مجنون، طفل، مجنون لا غير.

ولا يدري علي لمـاذا انتفض فجـأة، انتفض بفـزع وليصبح بسرعة عجيبة خارج المقهى، ماسكاً بيرته وكيس النايلون بقوة، فيما لم تبحث عيناه عن سيارة الارزاق التي وصلت السـاحـة الآن، والتي جعله بوقهـا ينتفض، انمـا يتجه وبسرعة إلى أحد الازقة المجاورة مصراً على ايجاد الصبي هذا المساء وبحماس كبير.

مدريد تشرين أول ١٩٨٨

الثقافة والقمع

في هذا العدد تنشر الثقافة الجديدة اسهامات ثلاث: اثنتان منها عن اعلام السلطة الدكتاتورية في العراق وأخرى مترجمة عن سقوط المثقفين في المانيا النازية. وهذه المساهمة الأخيرة وإن بدت أنها تتناول واقعاً آخر وزمناً مضى إلا انها تضيء جزءاً من واقعنا الثقافي أيضاً لنفاذ نظرتها إلى الظاهرة وقدرتها على تبيان اسبابها بل انها في حديثها عن ظاهرة «المشاهير» وكتاب «الصفوة الثانية» ما يقرّبها من تشخيص الزميل القاص شاكر الانباري في مقالته (السائد الثقافي) عند حديثه عن القصة والشعر في الثمانينات وتحولهما إلى مجرد إعلام «يساهم في تحطيم العقل والذاكرة الشعبيين» و«صرفهما عن دورهما النقدي الاستقرائي التحليلي».

وتأتي المقالة الثالثة عن (المسلسل التلفزيوني - غريب) تثبيتاً لما أكده الزميل الانباري عن التلفزيون الذي «صار الاداة المثلى لتحطيم العقل. يساهم المثقفون السلطويون، انصاف المبدعين، في اختيار افلامه وتوجيهه وصياغة اخباره الكاذبة وبرامجه المضللة عما يدور داخل العراق أو في العالم».

وليس أدلَ على صحة استنتاجات ما طرحته المقالة هذه، من الاحداث الأخيرة التي وقعت للعمال المصريين والتي باتت معروفة للجميع.

إن الثقافة الجديدة ابتداءً من هذا العدد تدعو جميع المثقفين العراقيين إلى المساهمة في تناول الوضع الثقافي الحالي في العراق ودراسة جوانبه المختلفة وبالاخص دراسة الجوانب التالية في ثقافة النظام: الاعلام، التراث، القصة، الشعر، المسرح، السينما، الفن التشكيلي، الاغنية، كتابة التاريخ... الخ. كما تدعو مثقفينا إلى ترجمة المقالات المهمة القادرة على اضاءة مشكلاتنا الثقافية.

وبدورنا نحدد بعض العلائم التي يمكن الاشارة اليها دون ان يعني ذلك البقاء في حدودها من أجل الاسهامات القادمة التي سيتضمنها محور (الثقافة والقمع) في مجلتنا.

ومن أبرز العلائم التي نرى ضروروة معالجتها:

١ ـ تحديد ثقافة النظام.

٢ ـ هل ثقافة النظام هي الثقافة السائدة؟ أم ان هناك عناصر يمكن اعتبارها خارج النمط الثقافي السائد؟

٣ ـ ما الركائز التي يعتمدها إعلام النظام.

٤ ـ هل هناك فاعلية لاعلام السلطة في الاوساط الشعبية والفنية والادبية؟ أين تتلمس ذلك؟

٥ ـ ما المهام المطلوبة لفضح التظاهرات الاعلامية العديدة التي عبّرت عنها مهرجانات النظام الأخيرة؟

٦ ـ هل يمكن لأجهزة السلطة التحكم بالمؤسسات التربوية والثقافية أم ان هناك هامشاً خارج إطار هذه الأجهزة؟ أين نجد ذلك الهامش؟

٧ ـ هل استطاعت بعض الأعمال الفكرية أو الادبية أو الفنية الافلات من سلطة الرقيب عبر الرمز؟

٨ ـ ما العناصر التراثية التي استعارتها السلطة لتبرير سياستها القمعية والعرقية الحالية؟ ما السبل الكفيلة بفضح هذه السياسة؟

٩ ـ هل هناك جيلٌ جديد من الادباء والفنانين؟ ما ملامحه؟ ما تأثيرات الحرب عليه؟ وأين موضعه من الوضع الثقافي السائد الآن؟

١٠ ـ ما دلالة التجريد في (أدب وفن الحرب)؟ البطل القائد؟ البطل النموذجي واختلافه عما يسمى بالبطل الايجابي المطروح في بعض الادبيات الماركسية؟ العلاقات الاجتماعية المفترضة؟ العدوّ الغائب الملامح؟... الخ.

١١ ـ للشعر العراقي تاريخه الحافل بالابداع.. هل ان ما يكتب الآن تحت ظل الدكتاتورية الفاشية في العراق يشكل انعطافاً عاماً واذا كان ثمة تواصل فاين نجد هذا التواصل؟

١٢ ـ أين يتجسد نضال الثقافة العراقية التقدمية في داخل الوطن ضد النظام وأجهزته.

هذا وندعو الزملاء من الاكراد والاقليات القومية لتغطية الفقرات اعلاه بتناول ما يكتب ويبث بلغاتهم وما يخص ثقافاتهم القومية.

«أدب وفن»



الثقافة والقمع

مارك خاريتونوف **ترجمة : عارف ولي**

لقد قيل الكثير عن ممهدات الانقلاب النازي : السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية . لكن ما قيل عن الممهدات الروحية ، والدور الذي لعبته رموز ثقافية المانية بارزة في قيام الطغيان الهتلري ، هو اقل من ذلك بكثير.

وانا لا اتحدث ، هنا ، عن المنظرين النازيين المحترفين ، او عن العاملين في وسائل الاعلام ، او بعض الكتاب الهامشيين الذين اصبحوا موظفين كبار بعد الانقلاب . فلا احد ، داخل المانيا أو خارجها ، يأخذهم مأخذ جد ، من الناحية الروحية ، بالرغم من كل نفوذهم الرسمي ، والفرصة التي مُنِحوها لتلقين الوعي الجماهيري . ان اسماءهم لا تكاد تثير اهتمام احد هذه الايام . انني اخص بالذكر ممثلي الصفوة من اهل الفكر والثقافة : الكتاب ، والشعراء ، والعلماء ، والادباء ، الذين ثبت ان تأييدهم كان ذا نفع كبير للنازيين ، حتى وان كان ضمنياً ، اي بامتناعهم عن الاحتجاج . لقد منح هذا التأييد «الثورة» النازية ، وبخاصة في مرحلتها الاولى ، شيئاً يقرب من المصداقية الفكرية امام الملأ . «لو ان المفكرين الالمان ، لو ان المشاهير منهم . . والمشاهير عالمياً ، قد تصدوا جميعاً لهذه الهجمة . . لاتخذ الكثير من الامور مجرىً يختلف عما اتخذه في الواقع . » ، هكذا تحدث ، بمرارة ، توماس مان ، بعد اندلاع الحرب ، حين اصبح تأييدهم للنظام غير ذي بال ، بالنسبة للنازيين . فبعد ان ثبتوا سلطانهم ، آثروا ان يعززوا دكتاتوريتهم الارهابية

بافكار اكثر بدائية، واكثر ثقة بالنفس، في المدى البعيد. ساعتها، لم تعد بهم حاجة الى امثال غوتفريد بن، ومارتن هيدغر، واميل نولدا.

ان تاريخ «سقوط» قطاع واسع، نسبياً، من الانتلجنسيا الالمانية، شأنه شأن اي تاريخ آخر، يتكون من حكايات فردية تمتزج فيها، بنسب متفاوتة، القناعة الصادقة والانتهازية الخفية؛ الضلال المأساوي والوضاعة؛ الانحياز الساذج والتبصر الفكري؛ الاستهتار المتغطرس والخوف العام. وبالرغم من كل هذا التنوع، بوسع المرء ان يشخص مجموعة محددة من الافكار التي جعلت، ولو الى حين، عدداً من رموز الثقافة يتعاطف، طوعاً أو كرهاً، مع النازيين. وبلا ادنى ريب، فان هؤلاء، وان لم يشاطروا المؤسسة النازية آراءها، على نحو كامل، قد كانوا من المسوغين لها، ورفاق الطريق.

من هذه الافكار عبادة اللاعقلاني، التي تطورت الى درجة الكراهية العدوانية للعقل بما هو عقل. فالثقافة وقد اعتبروا الثقافة فكرة غريبة شريرة، من اصل غربي، او يهودي - مسيحي، سببت ضياع ما هو اعظم اهمية، اي: الجذور القومية الروحية، لانها تطرح البديل: اقامة الحياة الاجتماعية على المبادىء العقلانية للعدالة والديمقراطية والمساواة. كتب الشاعر الشهير غوتفريد بن «العقل هو سبيل الظلال، نحن نريد الاحلام. نريد ان ننتشي». وفي مؤلفه الرئيس عام ١٩٣٣ (الدولة الجديدة والمثقفون)، اعلن صراحة «ان الدولة الجديدة قد نهضت ضد المثقفين»، ودعا الالمان الى صهر «الانا في الكلي، في الدولة، في النرس»، في «الجماعة الاسطورية». بالطبع، ان المعني بالجماعة الاسطورية، هو الشعب الالماني، لا باعتباره تشكيلة اجتماعية - تاريخية، وانما بصفته «جماعة روحية». بهذه الصورة، خلقوا تعارضاً بين القيم الوطنية والقيم الانسانية.

مع ذلك، لا يمكن اعتبار هذه الافكار، اذا ما اخذت على انفراد، افكاراً فاشية محضاً انها تعبر عن تراث مديد من المعارضة للحضارة العصرية (اي البرجوازية) التي وقعت في حبائل مشاكلها الخاصة. وقد كان الكثيرون مستعدين للتخلي عن ارثهم الثقافي، وللترحيب بوصول «البرابرة الجدد»، القادرين على نبذ الاخلاقية البالية، ومفاهيم الانسانية والحرية والديمقراطية.

ثمة رأي مفاده ان اية فكرة، مهما تسامت، يمكن ان يُساء استعمالها. والامثلة على ذلك لا تحصى. عندئذ، تتعاظم المسؤولية الملقاة على عاتق الايديولوجيّ الذي يضع نظرياته للجماهير (الناس الذين يختلفون عنه كثيراً: ثقافياً واخلاقياً) اكثر مما يضعها لاستهلاكه الثقافي الخاص، او للسجال الادبي، او الاكاديمي.

ان الواقع يمتحن، مع الايام، مصداقية ونوعية هذه الافكار. فهل من المبرر النظر باستهانة الى الديمقراطية، والتنظير لمحاسن الحاكم القوي، المقترن بتجاهل السؤال عن

طراز الشخصية المرشحة للقبض على مقاليد السلطة؟ ايستطيع احد ان ينكر العقل، فيؤكد على تفوق النشوة الروحية الجماعية،، وان يتنصل من مسؤولية العواقب عندما تبسط هذه النشوة سلطانها على الجماهير؟ ايقدر احد ان يسوّغ العنف والارهاب دون ان يأخذ بالحسبان منطقهما وآليتهما اللذين يجعلانهما تلقائيين؟ هل بوسع احد ان يتحدث عن النقاء العرقي، عن اساطير «الهوية القومية»، وعن اعداء الامة، دون ان يدرك ان هذه ليست محض مفاهيم مجردة، بل مفاهيم تنبعث منها رائحة الدم والنار والمذبحة؟

تعتبر حالة ارنست يونغر عميقة الدلالة. اصبح هذا الكاتب الموهوب، في مجاله الخاص، ذائع الصيت منذ العشرينات، حين صدرت كتبه. حسبنا عناوينها، فهي تشي بامور كثيرة: (العواصف الحديدية)، (الصراع كتجربة داخلية)، (النار والدم)، (القلب المغامر)، وغيرها. ان هذه الكتب، التي تمجد البسالة العسكرية، وتصور الحرب مشروعاً محفوفاً بالمخاطر، لكنه مفعم بالمغامرة وبالرجولة، قد استغلها النازيون لترويج افكارهم. لم ينتسب يونغر للحزب القومي الاشتراكي، لانه اعتبر نفسه ارستقراطياً من عشاق الجمال، اما النازيون فليسوا الا من سواد الناس. فاستنكف عن قبول عضوية (الاكاديمية الادبية)، ورفض الكتابة في الصحافة النازية. ومهما كانت الاسباب التي دعت يونغر الى الترفع على عشاقه المتحمسين، فالاهم من ذلك انهم قد قبلوه، وغضوا الطرف عن غطرسته، واعادوا نشر كتبه، مرات ومرات، فهي تخدم اغراضهم، ومؤلفها لم يمانع في ذلك، البتة. بعد هزيمة النازيين، حوكم يونغر باعتباره شريكاً فعلياً لهم، بيد انه لم يغير اراءه قط، ولم يعبر عن اي قدر من الندم بسبب افعاله.

ويمكن ان يقال الشيء نفسه، تقريباً، عن الشاعر، والعالم المبرز بفقه اللغة، صديق توماس مان، ارنست برترام. حاول برترام ان يزاوج «الفكرة الالمانية» وتراث العصور القديمة، وان يضع هذا الخليط الرّنان في تعارض مع الحضارة الحديثة التي وجدت نفسها مستعمَرة من قبل «الناس النمل»، حسب تعبيره.

لقد بدا ان برترام، في انشائه هذه الاسطورة القومية الجديدة، ودعوته لها، قد احتال للامر بحيث لم يعد يبصر الواقع المتجهم، وجرائم القادة النازيين، والكوارث التي تلوح في الافق. لذلك، دعا توماس مان، المقيم في المهجر، آنذاك، الى العودة كي يشارك في بناء المانيا «قومية»، «جديدة»، ويتعرف على عظمة هتلر الذي يقود الشعب صوب «الانبعاث القومي»، مجسِّداً «رفعة المانيا». فما كان من توماس مان الا ان ردّ، بمرارة وانكار، قائلا: «ان قدرتك على الخلط بين رفعة المانيا، وبين التعبير الاشد ابتذالاً عنها؛ وعلى اعتبار ابغض المهرجين في التاريخ «منقِذاً»... لامر يبعث في نفسي الاسى الدائم... ولو اني عملت بمَشورتك الملحة لي، لكان الاحتمال الاكبر اني اكف عن

العيش. اما بدأت الغشاوة تنجلي عن عينيك؟ كلا! فان ايدٍ تقطر دماً قد غطت عينيك، واني لاراك مسروراً بهذه «الحماية». ان المثقفين الالمان سيتأخرون عن غيرهم في رؤية ما يجري، لانهم قد انغمروا، انغماراً عميقاً، في هذا العار».

لقد استثمر ايديولوجيو النازية، استثماراً ناجحاً، امراض المجتمع الحقيقية: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. الا انهم قدموا حلولاً خدّاعة لهذه المشاكل، فاستبدلوا التحليل البناء بالديماغوجيا القومية، وعارضوا التاريخي والاجتماعي بالبايولوجي و«العضوي» والعرقي. وبدلاً من مصطلح «المجتمع» اشاعوا استخدام مفهوم «الجماعة القومية» التي تقوم على رابطة «الدم» الطبيعية. وعوضاً عن البحث عن حلول صعبة، لكن واقعية وبناءة، من اجل تجاوز ازمة خطيرة حقاً، لجأوا الى تبسيط مغرٍ في تشخيص من يتحمل المسؤولية عن هذه الازمة. فالمسؤولون عنها هم: اعداء «الاصل القومي»؛ المثقفون والليبراليون؛ اليهود والماسونيون؛ الماركسيون واليسوعيون؛ الديمقراطيون الغربيون والبلاشفة الشرقيون.

بوسع المرء ان يتخيل كم اثّر التبسيط على الاعداد الغفيرة من الناس الهائجين، الغاضبين، المضللين. والسؤال الآخر هو: ما مقدار الصدق والجد في نظرة نفر من ذوي المكانة الثقافية الى هذا الهذيان الجماعي؟ فعلى سبيل المثال، هل كان الكاتب، واللاهوتي، والفيلسوف آرثر دنتر صادقاً حين كتب مجلده الضخم ليثبت ان المسيح كان آرياً؟ ترى ماذا دهاهم: أحُمْقٌ فاضح، ام مكر ثقافي نصف واع، ام خداع واع لبلوغ غايات انانية مثيرة للسخرية؟

احياناً، من العسير التمييز بين اقوال الذين نعتبرهم عقل الامة، وبين الشعارات البدائية التي حركت اولئك الذين شاركوا في المذبحة. . .

ولنضرب امثلة اخرى: فالعالمان الشهيران، الحائزان على جائزة نوبل في الفيزياء، فيليب لينارد، ويوهانس ستارك، قد نالا الحظوة والمكانة لدى النازيين لاشتراكهما في اضطهاد البرت اينشتاين، ودعوتهما الى تأسيس علم «الفيزياء الآرية» الخالص. ووافق كارل غوستاف يونغ، عالم النفس السويسري الشهير، عام ١٩٣٣ على تولي منصب «رئيس جمعية العلاج النفسي» بعد ان ارغم النازيون رئيسها السابق، زميله الالماني ارنست كرتشمر، على الاستقالة. ومن خلال مجلة الجمعية، التي رأس تحريرها، شرع يونغ ينظّر لعلم نفس «جرماني»، ويُصفّي الحساب مع استاذه السابق، سيجموند فرويد، باسلوب لا يمت للعلم بصلة. وحدث الشيء عينه مع مارتن هيدغر، الفيلسوف الوجودي، الذي قبل كرسي الاستاذية في جامعة فرايبرغ عام ١٩٣٣. لقد خذل هيدغر عدداً من اصدقائه وتلاميذه عندما تحدث «عن القائد كمبدأ وجودي». ولما سأله كارل ياسبرز، ذات

مرة، «كيف تؤمن ان شخصاً غير مثقف كهتلر يقدر على حكم المانيا؟»، اجاب: «الثقافة ليست هي المعنية هنا. انظر، فقط، الى يديه المقدستين.». بعد عشرة اشهر اضطر هيدغر الى الاستقالة.

كما رحب باستيلاء النازيين على السلطة الشاعر غوتفريد بن، الذي كتب لهم عدداً من مقالات المديح والتمجيد. فراح بعض محبي شعره، الذين اضطروا الى مغادرة المانيا، يتساءلون مستغربين: كيف استطاع شاعر شهير مثله ان يتعاون مع اعداء الفكر الحر؟ في مقالته (جواب الى الادباء المهاجرين) ردّ بن على هذا التساؤل: «من المستحيل الحديث الى اناس هربوا لانهم قد اضاعوا فرصة الشعور بفكرة الشعب، الغريبة تماماً عنهم... لقد اضاعوا فرصة ادراك مفهوم القومي، بتجلياته الكليّة...». لكن الامر لم يطل بغوتفريد بن، هو الآخر ايضاً. ففي عام ١٩٣٤ نفض النازيون ايديهم منه، ومنعوه من الكتابة بسبب الايقاع «السامي» لاسم عائلته. ولاقى المصير ذاته الرسام التعبيري، اميل نولدا، الذي رحب بالفاشية نظراً لتأثره بأفكار «الريف» السائدة في ارياف المانيا الشمالية، حيث يعيش. بيد ان ولاءه هذا لم يجده فتيلاً. فالنازيون اعتبروا التعبيرية مدرسةً منحطة، فلم يعجبهم بقاء نولدا، الرسام، اميناً لتقاليدها. فكان ذلك سبباً كافياً، في المانيا الفاشية، لمنعه من مزاولة الرسم.

ان التعاون مع الفاشية، بالنسبة للفنان الحقيقي، دراما روحية تفضي الى انحطاط الموهبة، لانها، في الواقع، تنطوي على خيانة للقيم الثقافية الاصيلة. بهذا لا اقصد اولئك الكتاب الذين ظلوا في المانيا، وتوقفوا عن الكتابة حول مواضيع اجتماعية هامة رغبة منهم في تجنب التعاون مع النظام. فامتناعهم عن الكتابة يمكن اعتباره ضرباً من الهجرة الداخلية. انني اقصد المثقفين الذين استمالهم النازيون، واستفادوا منهم... الذين لم يقاوموا الاغراء للتحول الى «مقربين» الى النظام... الذين ما تساءلوا يوماً: لِمَ اصبحوا من اصدقاء النظام، وهل ان هنالك شيئاً ما خاطئاً أو مريباً، في موقفهم، أو في فنّهم؟

وينطبق هذا، بالاخص، على ممثلي الادب «الفلاحي». فليس صدفة ان يعمد النازيون الى تشجيع ورعاية هذا الاتجاه في التنظير للتعارض المزعوم بين «ادب الارض» و«ادب الاسفلت». فصوروا المدينة، وبرلين خاصة، مثابة تجسيد للشيطان بعينه، والانحطاط، والتحلل، والتقاليد العالمية، وموطن المؤثرات الغربية، واصل الحضارة اللاروحية، الميكانيكية، العقلانية. وبسبب ذلك، شنوا عليها الحرب ابتغاء الدفاع عن القيم الجذرية، المعافاة، القومية. وحامل هذه القيم هم الفلاحون، الذين اصبحوا موضوعاً لتمارين ادبية اجبارية ذات طابع تجريدي خالص، لا يجمعها جامع مع تحليل مشاكل الريف الخقة.

غني عن القول ان اختيار مواضيع ذات طابع ريفي لا يقرر الرسالة الايديولوجية التي ينطوي عليها المؤلف. فالكاتب البافاري الشهير، اوسكار ماريا غراف، الذي يود النازيون، كثيراً، ان يربطوا اسمه باسمهم، يرد عن نفسه هذه التهمة، قائلاً: «.. ما الذي فعلته كي استحق كل هذا العار!».

بيد ان عدداً من كتاب الدرجة الثانية لم يتوان عن كتابة هذه «التمارين» بالصورة التي ارادها النازيون. وكلما مضوا قدماً في هذا المسعى، ازداد اتقانهم لهذه المهمة، وكبرت، بالتالي، اسماؤهم. اما الآن، فلا احد، باستثناء مؤرخي الادب، يكاد يتذكر كتاب هذا اللون، الذي يمثل ادب المشاكل البديلة، والشخصيات الزائفة المرسومة باسلوب روح «الاسطورة الجرمانية». لقد تحولوا الى هذا البديل حين اخذوا يتعاملون مع مظاهر الحياة المعقدة، المتناقضة، المتطورة، تعاملاً مؤطراً بالدوغما التبسيطية، والصيغ الجاهزة، المتكررة، المضللة. وافضى هذا المسعى الى تنميط الوعي، وتلقين الناس ما يريده النازيون لهم، واثارة احطّ المشاعر والغرائز. وبالنسبة للمثقف، فان خيانة الاستقامة الثقافية، والمعايير الاخلاقية، قد أديا به الى فقدان الاحساس بالمسؤولية، والى الانهيار الاخلاقي.

اما العواقب فهي معروفة جيداً. لقد كانت مرعبة ليس لاولئك المنظّرين فحسب، وليس للشعب الالماني وحده فحسب، بل كذلك للعالم برمته، وهذا هو الدرس الذي علينا ان نوليه الاهتمام.

باختصار عن الاسبوعية السوفييتية
(NEW TIMES ـ الأزمة الحديثة)



السائد الثقافي في العراق

نموذج الطليعة الادبية العدد آذار/ نيسان ١٩٨٩

شاكر الأنباري

نظرة عامة

شكّلت الحرب، دون شك، خلفية رئيسية للأدب العراقي في الداخل، ومنذ ابتدائها أوائل عقد الثمانينات، رغم أن تأثيرها لم يقتصر على الأدب لوحده، كما هو معلوم، إنما تعدّى إلى كافة المجالات الحياتية من، اقتصاد، سياسة، قيم اجتماعية، عادات، علاقات انسانية. . . الخ.

وقد ألغتْ وجهة النظر السلطوية كل المرادفات المأساوية للحرب واختصرتها إلى مغزى واحد لاغير: عدو واقف على حدود الوطن يبغي احتلاله وتدمير حضارته والغاء هويته القومية. وعلى هذا الأساس ينبغي توظيف امكانات العراق كلها لردّه على أعقابه وافشال مخططه الشعوبي الطائفي، وينبغي توظيف الموارد الاقتصادية والطاقة البشرية والاعلام، وكل ما توصلت إليه البشرية من صناعات متطورة ومناهج اعلامية ونظريات فكرية، انسانية ولا انسانية، لأن المعركة معركة وجود بشري وتاريخي وقومي، معركة العراق كله ضد العدو. لافرق بين الفلاح والمليونير، العامل والعسكري ذي المنصب الرفيع، رجل الأمن والمواطن البسيط، المثقف والأمي، فـ «أن حربنا ملحمة حياتنا الحاضرة، لاتخضع للمنافسة، ليست مشكلة في تجريب الصح والخطأ، الانسان يعرف انه الوطن/ الصح . :

وان العدوان/ هو الخطأ». (محمد الجزائري، نقد رواية الحرب، بنائية المشهد... والرؤيا. نقد تطبيقي على رواية، النخل يا مدينة المدن، مجلة الأقلام العدد تشرين الأول ١٩٨٨).

ان ثماني سنوات من الديماغوجيا الشاملة والقمع الموجّه، ثماني سنوات من الدمار الشامل، صناعياً وزراعياً وبشرياً، وما جرّته وستجرّه من خراب روحي على أفراد المجتمع، لايمكن لها ان تمر دون أثر على الكتّاب والمفكرين والفنانين، رغم ما لذلك التأثير من تباين. فثمة فرق شاسع بين كاتب شاب في أول خطاه الفنية، مستهلك للثقافة والاعلام، غير مشارك في صياغة السائد الثقافي والفني والأعلامي، وبين المافيا الثقافية التي تسيطر على المؤسسات الثقافية من ادارات للتحرير ومستشارين ومنتديات ثقافية. الفرق شاسع بين الكاتب المستهلك لما يُقدّم في السوق الثقافي، وبين المافيا الثقافية التي أعطت الوجه السلطوي لونه المقبول، وجعلت من نفسها، أو على الأصح، جعلوا منها سيفاً مسلّطاً على الدوام على جيل كامل من المثقفين المتواجدين في الداخل غير الخاضعين لمقياس الثقافة السلطوية.

وهكذا صار المثقف، عموماً يُقرب من فرص النشر والوظائف الادارية والجرايات الحكومية، كلما اقترب من مفهوم السلطة للحرب وحاول تجسيد ذلك المفهوم ابداعياً. كلما كان وفيا للمقولات والخطوط العريضة المرسومة من قبل السائد، ثقافياً وسلطوياً واجتماعياً، كلما زاد حظه في أن يتبوأ كرسي مدير أو رئيس أو سكرتير تحرير، أو على الأقل ان يصير عضواً في لجنة نشر أو تحكيم. وبإمكان تحقيق ذلك بقصة طويلة أو رواية أو قصيدة عصماء. أما إذا هيأ الكاتب لفنه حشداً هائلاً من الفلكلور والتراث والأساطير، وحاول ابتكار أساليب جديدة ومضامين غير مستهلكة، فسيكون أقرب الى سُلّم الامتيازات ويسير بثبات على طريق الابداع، المُوجّه سلطوياً طبعاً.

لكن الاخفاق الأول الذي عانت منه مؤسسة الثقافة السلطوية هو محدودية وعقم الخطوط المرسومة لمسار المجتمع وأنشطته المختلفة. صحيح أنها، وبوسائل دعايتها الضخمة، نجحت في اشاعة الانسان المسطح، الضيق الأفق، الانسان ذي الرأي الشائع، المفرغ من خصوصيته الفردية، لكنها فشلت ان تضمن ولاءه ارادوياً، فشلت ان تنقل الفرد العراقي خارج أجواء غربته اليومية مع وجوده داخل وطنه. لقد خلقت ثقافة عسكرية فاشية مُنمّطة، ذات لون واحد، غير انها اخفقت في ادامة ثقافتها وقيمها وطروحاتها إلا بالقمع، ولايمكن لقمع ان يُسيّر الحياة الى أبد الآبدين.

ان السائد الثقافي لم يشمل محاولة تدجين المثقف أو تأطير الانسان على العموم، فقط، بل تعداه الى البناء، رسم الشوارع، الأغاني، تعابير الوجه والعيون، وليس غريباً ما

قاله صدام حسين ذات يوم، انه استطاع تمييز المجرم محمد عايش من تعابير عينيه، فعلى ما يبدو، كانت نظرات محمد عايش لاتحمل تعبير الذل والخوف والدونية، الذي كان صدام يرغب بطغيانه، لا على المحيطين به فحسب، لكن على كل انسان يعيش داخل العراق.

في تحقيق عن حياة بغداد اليومية، كتب الصحفي محمد أبي سمرا في جريدة «الحياة» الصادرة في لندن، شهر حزيران، قائلاً: (يظهر مشهد الحياة اليومية ودورتها في بغداد على نسق أو حال واحد لا أثر فيها للتنوع والاختلاف. العابرون فوق أرصفة الاوتوسترادات المستقيمة الطويلة، سواء كانوا قلة أو كثرة، يبدون، في مشيتهم وانتقالهم، متباعدين مثل ظلال شديدة البطء والصغر فوق المنبسطات والمسافات. كأنهم ليسوا غير هنيهة خاطفة وعلى أهبة الزوال وسط ضخامة المنشآت وثباتها، يمشون في صمت وعلى نحو مستقيم ومن غير التفات ولا تبدل في وتيرة المشي والسرعة. والوجوه منهم سادرة أو خالية أو مقنّعة، وأبصار ثابتة على نقطة واحدة أمامهم في الأفق البعيد المترامي، كما لو أنهم لن يصلوا الى الهدف الذي إليه يسعون ويغذون السير.).

القص

كان للقص في حقبة الثمانينات، وقت الحرب خاصة، قصة ورواية، دور استثنائي لتأهيل الفرد العراقي لتقبل موته في جبهات القتال، بشعور هادىء وضمير نظيف. كان له دور تعبوي لا يوازيه ويبزّه سوى دور الاعلام اليومي من صحافة وتلفزيون وسينما وراديو. ودخول الثقافة في هذا المضمار، والقص على وجه الخصوص، مضمار تسويغ الطروحات السياسية وتبرير القمع والاضطهاد والاستغلال الاقتصادي، أمر بديهي، في ظل فهم السلطة واستغلالها لدور الثقافة وأهميتها للسيطرة على الفرد. ولا أحد يمكنه تصور ثقافة من نوع آخر تحت ظل سلطة قمعية ديماغوجية التوجه. الا أن ثمة أمر لايقل أهمية من ذلك انتبهت له المؤسسة السلطوية واستخدمته بكل ذكاء هو تخريب الكاتب نفسه. اذا لم تكتب للحرب وتمجيد النظام، فما عليك إلا ان تظهر بمقابلة تلفزيونية أو صحفية لتأدية ذلك الدور. وإذا تعذر ذلك فتوجيه ابداعك نحو اشكالات غير مؤذية للسلطة، بعيدة عن الجذور الحقيقية للظواهر. هذا هو التكتيك المتبع في حقبة الثمانينات، على الخصوص، برمتها.

فتدجين المثقف وتحويله الى كائن غير مؤذ يتم بالدرجة الرئيسية حين تنجح السلطة

في تجريده من سلاح المعرفة والنقد.

من هذا البـاب يمكننـا القول ان المثقف العراقي في الداخل، والقاص، روائياً وقـاصـاً، أستخـدم مرتين. مرة لتزييف الواقع وقراءته قراءة خاطئة، لانقدية، خالية من الصـراع، ممـا يخلق وعياً مضللا للشعب المستهلك القـارىء، ومـرة حين ادخلوه في المعمعة السلطوية كشرطي على معرفته وثقافته، لكي يقضي بالتالي، على نفسه كانسان ذي عمق معرفي، انسان متعلم يرى الواقع وحركته السرّية وسيرورته التاريخية اكثر من غيره.

إن خصوصية القاص تنبع من أن آلية عمله الفني، ابداعه شكلا ومضمونا، لصيق، مباشرة أو لا مباشرة، بالواقع اكثر من الفنان أو الشاعر. وهذا ليس بالأمر الغريب، فبُعد القص الجماهيري أوسع وأعمق من بعد الفنون الاخرى، لأن القصة والرواية حدث داخل النص، «تيمته» الانسان ونشاطه، حياة لشخوص من لحم ودم، محكومة بصراع وتناقض، وذات وشـائج جدلية متينة بين الانسان الشخصية، والمحيط الذي يتواجد فيه. ويمكن القول ان الخصوصية تلك هي التي حملت السلطة على اعطاء هذا الفن الخطر دوره الكبير والاستثنائي في الحرب، وحمّلته عصارة رؤيتها للحياة عموماً، عبر كتّابها المحترفين لهذا الفن.

(أدب القصة في الثمانينات، أدب الحرب كمـا يقول القاص الشاب حميد مختار في ندوة الكتّاب الشباب المنشورة في الطليعة الأدبية، عدد آذار نيسان ١٩٨٩.

أما القاص عبد الستار البيضاني فيجسد في كلامه بجلاء وجهة النظر السلطوية حين يقول في نفس الندوة: (لا أعتقد ان هناك شيئاً أثّر وترك بصماته على القصة الثمانينية اكثر ممـا أثـرت موضـوعـة الحـرب... ان قصة الحرب تركت الجانب الابداعي والتحقت بالجـانب الاعلامي حسب متطلبات المرحلة واستطاعت ان تؤدي دورها الكبير في هذا الجـانب وكانت بحق قصة مقابلة ساهمت في بناء الجهد المعنوي للمقاتل إلى جانب القنـوات الاعلامية والثقافية الأخرى.. أما إذا كانت هناك اخفاقات في الجانب الفني فالذي يتحمل هذا الاخفاق هو القاص وحده وليس الحرب.. فعندما تكون الحرب بحاجة الى شيء، يجب ان نعطيها أفضل شيء).

والحقيقـة ان القص قد استخدم، مباشرة، وبأجلى ما يكون، كأعلام، واستبعد الجانب الفني تماماً، ولا عجب أن تُرسل بعد سنين، آلاف الأطنان من تلك القصص إلى أفران الخبز، لأنها لاتمتلك المؤهل الفني كأعمال ابداعية. ولعل بعض الكتّاب الشباب يدرك هذه الحقيقة بوضوح، فها هو القاص الشاب عبد الستار البيضاني يقول في الندوة: (عدم تمكن الرواية الشابة من خلق تأثير في واقع الرواية العراقية رغم ان مرحلتهم شهدت

أسهالاً روائياً لم يشهده تاريخ الأدب العراقي من قبل. . . خاصة وان جميع الروايات الشابة هي روايات حرب .) .

نعم استطاع القص أن يقوم بدور اعلامي ، استطاع ان يساهم في تحطيم العقل والذاكرة الشعبيتين ، بشكل من الاشكال ، لكن القضية الأرأس التي ابتهج لها المثقفون الساسة هي : صرف الرواية والقصة عن دورهما النقدي الاستقرائي التحليلي ، قتل روح الفضح ، روح الكشف ، روح الخلق في القص المبدع الجاد . صحيح أن المؤسسة الثقافية والسلطوية استخدمت القص كدعاية للحرب ، حطمت من خلاله منطقية الذهن وشوهت الحس السليم للمواطن البسيط وخلقتْ قيماً وهمية ، إلى آخر القائمة ، الا ان اسدال الستار ، ذي اللون الواحد عادة ، على عين كاتب النص لكي يرى ماحوله بأحادية يتيمة ، ولكي لايتفاعل مع هموم وغربة المواطن البسيط ، المقموع ، المصادر جسداً وعقلاً ، لهو أعظم انتصار حققته السلطة على هذا الصعيد .

الأعلام دور ثانوي . لأن القاص اذا أخذ دوره المعرفي والنقدي والتحليلي باعتباره مشخص أمراض المجتمع ، وساحر الروح ، سيجعله بالموقع المضاد من السلطة ورموزها . فالقاص الوفي لفنه وابداعه يكتب عن الانسان المُسطّح الُضيق الأفق ، الذي خلقته السلطة وتحلم بسيادته ، ويتحدث الأعلام ، اعتباراً من وزير الثقافة والاعلام وانتهاء بأصغر صحفي مأجور ، عن «عظمة الانسان العراقي المعاصر» . يشخّص القاص تهاوي القيم الجميلة والخيّرة أمام الغزوة الاستهلاكية وقيم الشركات الاجنبية وتجار السلاح ، ويلهج النظام ، صباحاً مساءاً . «باللاصالة العربية والاخلاق السماوية الحميدة» . يكتب القاص عن الفرد المهزوم تحت سطوة اجهزة المخابرات وبيروقراطية الدولة وعنف أمراء المعسكرات ، بينما تتبجح الصحف والشاشات والأبواق بتكرار نشاز عن «بطولة وشموخ وعزة الانسان» .

إنها متناقضات لايمكن حلها ، أو التوفيق بينها ، لكن يمكن تجاوزها بطرق كثيرة طُبقت منها الاكثر الحاحاً والأكثر نعومة . فمن هذه الطرق ، القضاء على القاص ابداعياً ان لم يستقم مع ايقاع القطيع ، عن طريق محاصرته في وسائل النشر واغلاق أبواب توصيل نتاجه في وجهه . وهذا ما رشح بوضوح من مداخلة القاص عبد الرضا الحميد في ندوة الطليعة الأدبية : (اعطني ناشر أدب بلا لاءات سخيفة واعطني دوريات أدب تنشر ما يكتبه المبدعون مرمياً على مسؤلياتهم الشخصية ابداعاً وغاية واعطني محرراً لامشرط لديه غير مشرط الابداع ، واعطني رأيك واعطيك رأيي فُتضحّي من أجل رأيي كما يقول فولتير لأنني مؤمن به ، وأضحي من أجل رأيك لأنك مؤمن به . . . أقول لك ان القصة الشابة بخير .) .

والطريقة الأخرى في التعامل مع القاص هي ، احتواؤه، امتصاصه ضمن آليات النظام ومسلماته ، تأطيره بخطوط حمر لايمكنه القفز عليها أو تجاوزها . اذا لم تكن القصة قصة

حرب ذات بعد واحد منسجم مع نفسه، خالية من التناقض والتنوع، فليس من الضير ان تتناول بعض الظواهر السلبية، والمساوىء الاجتماعية التي افرزتها الحرب، كالخيانات الزوجية والغلاء والقيم العتيقة من أمثال تعدد الزيجات وارتفاع المهر ومغامرات الحب. لا ضير في أجواء قصصية كتلك، على شرط ألّا تغوص إلى الجذور، لاتتناول الحالات السابقة كنماذج اجتماعية لعبت الظروف الموضوعية دوراً كبيراً في بلورتها واظهارها الى السطح. ان اكبر غش واعظم تزوير وأبعد وقاحة، عرض نصف الحقيقة ومعالجة نصف العلاج؛ وقول نصف الحق، لأن ذلك، خلط الأوراق بعينه، واستغفال المقابل بأتمّ ما يكون الذكاء والوعي. فعن طريق عرض سطحي للحدث أو الموضوع، وهو مايجري عادة، ويسمح به عادة، لايمكن للقارىء ان يجد خصوصية أو تفردا عما يُطرح، وبالتالي تتحول النصوص إلى نصوص ميتة فارغة من النكهة وهاجس الابداع. من هنا نجد ان القص العراقي، وعلى امتداد الثمانينات قد أُفرغ تماماً من أية خصوصية أو لون. بقي متفرداً بتسجيل فترة الحرب لاغير، وخصوصيته متأتية من هذا الجانب فقط، وبما ان نصوص الحرب لاتكتب عن معاناة حقيقية للفرد، ولا تنضج مشروعاً اجتماعياً يستلهم حياة أفضل أو بعداً مستقبليا، لذا فان القص بالتالي، تشابه مع البيان العسكري والمنشور السياسي، ليس إلا. (لذة قراءة النص، في رواية الحرب، تدنو من لذة بيان النصر. واعلانه... فالبيان العسكري، هو نص آخر مكثف لروي احداث.). هكذا يكتب الناقد «الكبير» محمد الجزائري في مجلة الأقلام، العدد العاشر، تشرين الأول ١٩٨٨.

إن حشر الكاتب في الزاوية الضيقة من المجتمع، هو المبدأ والمبتغى اللذان دأبت المؤسسة الثقافية السلطوية على تكريسهما في مجالات النشر من صحف ومجلات ومطبوعات.

ولا عجب ان تدور اغلب قصص الطليعة الأدبية، عدد آذار ونيسان ١٩٨٩، عن هموم ثانوية لاتتناسب البتة مع حجم المعاناة داخل المجتمع العراقي في حقبة الحرب. لاتلامس ألم الفرد البسيط، ذلك الألم الهائل الذي لايجد له متنفساً لكثافة الغطاء السلطوي وانعدام فرص التعبير انعداماً شبه كامل.

القاص ينبغي له ان لايكون مؤذياً، لايكون مشاغباً، ذو وجود كمالي اذا لم يكن من ضرورات السلطة. جزمة الجندي اثمن بكثير من قصة جيدة.

الشعر

-تراجع الشعر، ولاعجب، الى الدرجة الثانية من حيث دوره الحربي، من حيث

تسخيره لفرض القيم السلطوية وتحطيم العقل الشعبي. فالشعر بالمحصلة، اكثر صعوبة من القص، وأقل تقبلاً من الذهن البسيط، ومهما انخفض الشعر الى المستوى الاعلامي والتعبوي، فانه يبقى قاصراً امام القص من وجهة نظر ان القص بامكانه تزييف الوعي وخلق قيم كاذبة وتضليل الحقائق وخلط الأوراق، لقدرته على تسخير الفولكلور والتقاليد والتاريخ والاساطير. أي بامكانه قيادة الذاكرة الشعبية بسهولة لأنه يخاطبها من موقع أقرب إليها.

إن شعر الثمانينات في العراق، يكاد يتوزع على ثلاثة نصوص، تتباين فيما بينها تبايناً واضحاً، وترتبط فيما بينها بوشائج تسهّل للمتتبع استقراء ميزات ونكهة كل واحد منهما. النص الأول هو، نص الحرب. قصيدة الحرب المتغنية بشاعرية الدم وعبق البارود وجماليات الابادة والقتل والتنكيل. النص البطولي الذي يتناول الفرد العراقي كنموذج بروميثوسي، قدره أن يكون بطلاً، ان يدافع عن قيم العروبة والأجداد. انه نص يبارك الموت، ويشيد بالقائد التاريخي على غرار:

نحن هذا الشعب من صدام..
عرقاً عربياً قد خلقنا...
لغة عمرا نقيا... صافياً حراً أصيل...]

قصيدة (كرم الروح)، مهداة الى أبطال قادسية صدام، فتح الله محمد صديق. الطليعة الأدبية المصدر السابق.

أو كما يقول حميد سعيد في ديوانه (مملكة عبد الله)، قصيدة عباس شلب:

في كل بيوت الناسْ
سكن عباسْ

وعباس، هو المواطن البسيط الذي مات في كل بيت من بيوت العراق، هو المواطن الطيب الذي لم يُدلِ مطلقاً برأيه، عندما أعلنوا الحرب، لم يسأله عن رأيه أحد. فعباس، ما عليه إلا الموت، حسب قصيدة حميد سعيد، وجماله في موته، وشاعريته في انتمائه الى كل بيت عراقي. ولعل الغريب في الأمر، ان الشاعر حميد سعيد، لم يمجد عباس العامل وكاتب الطابعة والفلاح المشقق الأقدام أثناء حياته. لم يكتب عن همومه وآلامه اليومية، فقد كان مشغولاً بتدبيج قصائد المديح للسلطة. لم يكن عباس شاعرياً آنذاك، لأنه يمثل الحياة غير المؤطرة، وبالتالي فهو المشروع المضاد لأوهام ومشاريع الوسط السلطوي ورجاله الجوف. كان عباس ببساطة ضد نمطيتهم، ضد تحويل الناس الى ارقام، كان اللاتشابه واللاقطيع، لذلك لم يمجده حميد سعيد وشعراء هذا النص. والنص الآخر، هو اللانص. رص كلمات بعضها جوار بعض، الغاء تام لأية لمحة معرفية داخل الجملة الشعرية، فوضى مطبقة تتبعثر فيها الجمل بلا مغزى، وجمل حرة، طافية يمكن تحريكها

داخل القصيدة دون أن تختل، وهو استلهام ممسوخ للنص السريالي، وتسخير غير موفق لنظرية اللاشعور، وافتعال لنظرة ليست لها ضرورة. فيه، يجد الشاعر نفسه أمام نقيضين: جماهير عريضة تطالبه بأداء شعري ترى فيه روحها ويكشف عن عذابات الواقع اليومي، فضلاً عن الجميل والقيّم والأصيل، وعثرة الشاعر أنه لايمكنه التعبير عن موقف كذلك، لضيق الأفق الشعري المُصرَّح به من مافيا الثقافة. وجيل عجوز مشترى مُسيطرٌ على المؤسسات الاعلامية وكراسي الثقافة دون أن يكون مؤهلاً لها، يطالبه دائماً ان يكون وفيّاً للسائد، وفياً لدور الكتابة في المعركة باعتبارها بلاغاً حربياً. انه نوع من أنواع الاحتجاجات المنحوتة على هيئة بسطال أو تابوت جميل، القصيدة التي أريد منها أن تجعل عباس شلب، كما في قصيدة حميد سعيد، ان يموت بشجاعة وشاعرية، وفُصّلت على قدر الذهن البسيط وغريزة القبيلة والعشيرة. لكن الشاعر الشاب يمارسه باتجاه خاطىء وردة فعل متهورة، انه يتبنى الموقف الضد، أي تحطيم المنطق اللغوي والشعري السائد تحطيماً لاغائياً، لايوظّف في كشف معرفي أو رفض ثقافي وايديولوجي على الصعيد الواقعي. ثورة شعرية في الذهن. نص شعري مُجهض لانعدام حرية التعبير.

(تاريخ ولا تاريخ كأنه لاشيء لمحة حالمة، ونسيان موغل في نسيان. الحدود المتصلة رغم الهوة الفاصلة، نرى فواصل السكون. أشياء غير ممتلئة، وفعل الرؤيا الذي يحقق ذاته فينا كانت عملية خادعة... الخ). وعلى هذه الشاكلة يمضي لانص الشاعر الشاب نجم عبد علي محسن وعلى مدار ثلاث صفحات من الطليعة الأدبية، العدد آذار ونيسان ١٩٨٩.

وتشجيع الوسط الثقافي السائد لمثل ذلك النص، لكونه لايقدم البديل الشعري لما هو سائد، وهو يتلاقى تماماً مع اتجاه القاص/غير المؤذي، باتجاه واحد.

والنص الثالث، هو النص الموحي، الرامز، الهامس بدون جعجعة. النص الحامل لشاعرية واعدة صورها تقدس ما هو جميل وترثي لما تحول الى خراب. النص الذي نشم من رائحة كهوفه، فاجعة الموت والدم والحريق والرفض احياناً، ولا عجب ان نقرأ السيل الآتي من رموز الموت، في قصيدة زيارة مهدي المعنونة، نصوص. لا... فصوص حكم، المنشورة في عدد الطليعة الأدبية التي أشرنا اليها:

هذا هلاكي أم انني مقعد في حصار حر

....

شموع الأرامل تنهار حولي وأنا
راسخ بفضائحي، لي عطاءات

ارتبها على رفوف خائبة

. . . .

ثمانية اعمدة من رخام مصقول تنغرز بي
وثمة مليون صف أرامل من ذهب
يحطن بي

وكـانت كلمات مثل، السواد، الأضحرة، شموع الميت، المآتم، نواح، بكاء، العـزاء، جثث، مزارات، عكـاكيز، مقابر، نقّالة، سخام، مبضع، كلمات بُنيت عليها قصيدة بصفحتين. لكن هذا النص، نص الرمز والايحاء، فقد أو كاد، خطورته وخطورة حضـوره باعتبـاره نص يقـود الانسـان إلى سماوات الفن ودنيا الجمال الشعري الملتزم بالانسان. فقارئه مقموع حيناً ومسطّح محدود لم يعد يطلب من مجتمعه الا البقاء حياً، أغلب الاحيان. لافرق عنده بين المُسدّس والصليب، التابوت والوردة.

ويظل هذا النص في حيرة من أمره، بين وسط ثقافي مريض لايسمح للشاعر بتجاوز الخطوط الحمر، وآخر اجتماعي لايفقهه إلا اذا سمّى الأشياء باسمائها وأشار بأصبع واضح الى عُرى الامبراطور.

الغربة

في خضم حياة كتلك، مطلوب من المـرء فيها أن يصير أداة الحكم، جسداً بلا عقل، بوقاً يُزمّر بما توحيه دوائر الساسة، من المنطقي والمتوقع ان تسيطر الغربة على عموم الشباب، والأدباء خاصة، وقد تجلّت في قصيدة الشاعر الشاب جبار الكواز واضحة للعيان:

ملك للحزن أنا. . . ودربي خطوات النملة
وأنيني حد السيف

. . . .

حلمي هذا الآتي

«امنيات التحول» الطليعة الأدبية.

فبالاضافة الى موقعهم ككتاب ومثقفين، هم بشر في الوقت نفسه يعيشون خراب الحرب ومصادرة الحريات والغاء الرأي المخالف. هم مثقفون من باب الالتفاف حول السائد الثقافي لايجاد فرصة للنشر أو البحث عن وظيفة، يفترض بهم، الاشادة ببطولة الفرد العراقي، على الصعيد القصصي الروائي، وتمجيد الفرد الجديد الوارث لقيم الاجداد على الصعيد الشعري والفنون الأخرى. أي الانضواء بشكل مطلق تحت خيمة الأدب السلطوي.

والأدب السلطوي، يفترض بالعراقيين الحضارة وبعدوهم الهمجية، هم الكمال والعدو حالة النقص، هم الشخصية المتكاملة فنياً وواقعياً ويفترض غيرهم الهلام. وفي كل ماسبق، الغاء لحالة الصراع والتناقض داخل الفرد والمجتمع، وبالتالي صياغة الواقع نفسه صياغة نصّية، منسجمة مع نفسها، ولا وجود للتناقض داخل النص إلا مع العدو.

(اما الصراع، فهو داخل النص كما هو داخل بنية الحياة، فهو ضد العدو، ضد الغزو، ضد القصف، وضد الموت. . .) محمد الجزائري، مجلة الاقلام.

لكن وكما ان الحياة أوسع دائماً من النصوص والنظريات، أوسع من الآفاق السلطوية وقوانينها ومثلها، أوسع من ذهنية السياسي وخيال الفنان وأفق المثقف، لذلك كان التناقض بين ما نتجه الكاتب من نصوص، وبين الواقع الحياتي المعاش، تناقضاً صارخاً لاسبيل إلى حجبه أو الهروب منه. المجتمع الواحد، المتراص، الذي يسير خلف قيادة حكيمة، لاتخطىء، سرعان ما تبدّتْ تبايناته الطبقية والحياتية عموماً، بارزة لعيان، يراها الأديب والرسام والصحفي والسياسي، مثلما يراها ويتحسسها أيُ رجل أميّ. فالخوف من فقدان الأبن والزوج والأقرباء مستشر في الحياة ولايستطيع النص حجبه. الجبن حالة موجودة وطبيعة لأنها ملازمة لبني البشر، وفي الجندي والقائد على السواء. الذين لايجدون نقوداً كافية لشراء دواء أو قطعة لحم موجودون، وفي جوارهم اغنياء وأصحاب ملايين وذو مناصب رفيعة لم يخسروا من الحرب سوى بقية شرفهم وقيمهم التي تشدقوا بها ورقصوا على انغامها طوال السنين.

كلا لم يكن المجتمع كُلاً واحداً، لا اليوم ولا الأمس، والفارق بين النص المكتوب في الجريدة، في المجلة، في بيان الحرب، في رواية المعركة، وبين تيار الحياة بكل غناه وتنويعاته، فارق هائل. وليس في وسع المثقف القفز عليه أو تجاوزه. ولأنحدار غالبية الكتاب الشباب، من أوساط فقيرة، لذا فان الخيوط التي تشدهم إلى ذلك الوسط، قوية ومتينة حتى لو حاولوا تجاهلها. من هنا كان احساس الغربة طاغياً على شريحة واسعة من الكتاب داخل العراق. الغربة لاكتشافهم ان اللعبة تمّت على حسابهم، كتبوا للحرب اطناناً من النصوص، دبجوا المقالات لتزييف الواقع وحجبوا صراخات القاع البشري الذي

كوتبه الحرب بطناً وقفاً، ونظّروا لوهم ايديولوجي يعشش في أذهان كبار الصحفيين والسياسيين ومدراء المؤسسات ورؤساء التحرير الذين خدموا بنزاهة طبقة بليدة من المقاولين وتجار السلاح وقابضي عمولات النفط، وهؤلاء، نظرتهم إلى الثقافة تتشابه تماماً مع نظرة جدّهم غوبلز.

حالة الاغتراب تلك، يرويها الصحفي محمد أبي سمرا على لسان شاعر شاب هو كمال سبتي: (الذي رافقني لمرات في جولاتي عبر عديد من شوارع الرصافة، القديمة والأقرب زمناً، اقلع عن حديثه المعتاد والمتصل عن رغبته في السفر وجعل يروي لي بعضاً من ذكريات فتوته في شارع الرشيد. . . وفي مانحن نعبر الجسر عائدين الى الفندق اعدت كمال سبتي للحديث عن السفر، بان سألته عن أسباب رغبة معظم مَنْ التقيت من الكتاب والشعراء والمثقفين العراقيين الشبان في السفر، وهي رغبة بقدر ما تعصف بهم أهواؤهم، تلوح لهم استحالة تنفيذها.). جريدة الحياة اللندنية.

تحطيم العقل

الغريب في الأمر، ان أدباء المؤسسة السلطوية استلهموا لتحطيم عقل وذوق القارىء، كل الانجازات الفنية والأدبية، على صعيد القص والشعر والرسم والسينما والمسرح. فعلى الصعيد الروائي والقصصي كان لبورجس وجويس وماركيز واستورياس وسواهم من مبدعي امريكا اللاتينية، خاصة، حظور قوى وفاعل، ومباشر احياناً في ذهن الكاتب. تأثّر بأساليبهم الجذابة في معالجة الحدث وعرضهم الشيق فنياً لشخصيات اسطورية وفولكلورية ومثيولوجية، لها شبه كبير بالواقع العراقي. لكن كاتبنا الشاب الموجّه مباشرة أو عن طريق الايحاء الفوقاني، ايحاء الجو الهستيري الحربي المسيطر، ترجم كل ما رفده من بئر الأدب اللاتيني الى نص شوفيني مشبع بالايديولوجيا، تعصب وحقد على الشعوب وتسويغ للقتل وتضليل الحواس. في ندوة القصة الشابة المنشورة في الطليعة الأدبية العدد المشار إليه سابقاً، يؤكد القاص حميد المختار ذلك بوضوح حين يقول: (ان القصة العراقية في الثمانينات استطاعت ان تؤسس نموذجاً للقصة يطمح ان يكون عراقياً صرفاً رغم المؤثرات الآتية من أمريكا اللاتينية ورواد الرواية الجديدة واسلوب التداعي الحر.).

أما على الصعيد الشعري، فقد نشطت ترجمة أشعار المقاومة الفرنسية وأشعار الحقبة السوفييتية في نضالها ضد النازية وأشعار حركات التحرر عموماً التي كانت تشيد

بالنضال والدفاع عن الوطن، غير ان الوسط السلطوي الثقافي حاول ادخال روح ذلك النوع من الشعر، ديماغوجياً، الى النص الشعري الحربي أو التمجدي. والفارق بين التجربتين واسع جداً، فالنص الأول نص رافض لما هو سائد، والنص الثاني نص مُكرّس للسائد.

ومن المدهش حقاً، ان السلطة استثمرت، وعلى التوازي من ذلك، وربما خلفية له، كل المكتشفات العلمية والتطور التكنولوجي والكومبيوتر، لرصد حياة المواطن وقياس درجة موالاته لها. لم تطور قابليات الانسان أو تحميه من الأمراض والعوز والجهل، انما لأحصاء عدد المعارضين وقرابتهم حتى الدرجة الرابعة، لتطوير أجهزة التعذيب والذبح، لسحق الفرد جسدياً وذهنياً. انها مفارقة تستحق الوقوف حولها طويلاً.

من هذا الباب نرى حجم المساهمة التي قام بها المثقف السلطوي لأعداد الفرد ذلك الاعداد الظالم. أي، تهيئة الذهنية البسيطة، عمالا وفلاحين وطبقة وسطى، لتقبل وهضم ما تزجه السلطة في طريقها عبر التلفزيون والسينما.. الخ. فالتلفزيون والسينما، كانا على سبيل المثال، من اكثر الفنون تأثيراً وتقبّلاً داخل العراق، فهما ليسا بحاجة الى خلفية ثقافية ورؤية نقدية لفهم ما يدور على شاشتيهما. كان الفرد العراقي ولايزال، وكأنه يواجه قدرية لامفر منها لتحطيم منطقية ذهنه وفطرته السليمة. فان كان متعلماً، قارئاً، فلسوف يهاجم بالقص والشعر والمقالة واللوحة والجدارية. وان كان أمياً أو بين بين، فالتلفزيون، أبو هول عصرنا، ينتظره عند الباب. والتلفزيون الذي دخل كل بيت عراقي، صار الأداة المثلى لتحطيم العقل، ساهم المثقفون السلطويون، انصاف المبدعين في اختيار أفلامه وتوجيهه وصياغة اخباره الكاذبة وبرامجه المضللة عما يدور داخل العراق أو في العالم.

أما الأداة الثانية المشاركة في التحطيم، فقد كانت السينما. ولهذا الفن سحر على الشباب واغراء كبيران. فالأفلام الهندية والمصرية الرخيصة والجاسوسية والمغامرات الفردية، هي الأفلام الغالبة على شاشات السينما. وهي التي قدمتها مؤسسات الثقافة والاعلام للمواطن البسيط.(عباس شلب حميد سعيد) لكي يستسيغ الطعم المرّ ويرضى بموته دون أن تخطر له فكرة السؤال لماذا أموت ولأجل من ومن هو المسؤول عن ادخالي إلى متاهة حرب أكلت عقد الثمانينات برُمته؟ كانت مساهمة المثقف السلطوي ذات وجهين. كان المرشد والدليل والمفبرك لذلك التحطيم، وجدارته الثقافية والمعرفية وسعة اطلاعه على النظريات السلوكية والنفسية والاعلامية، هي التي مكنته اكثر من غيره من رموز الحكم، بالقيام بالدور.

والوجه الآخر، سكوته التام، تقريباً، عما يراه من مآس تجري حوله. وسكوته دلالة على مسخ شامل وجذري لانسانيته وقيمه الثقافية.

في سؤال وجهه الصحفي محمد أبي سمرا لقاص الحرب العراقي عبد الستار ناصر (عن أنواع الأفلام السينمائية التي تكثر عروضها عادة في صالات بغداد، وعن تلك التي شاهدها مؤخراً، أطرق (القاص) قليلاً قبل أن يقول، بنبرة تمتزج الحَسرة فيها بالاعتراف، انه منذ عديد من السنين لم يدخل صالة للسينما في بغداد، وان آخر فلم شاهده انما شاهده في احدى صالات الحمراء في بيروت التي زارها آخر مرة لمدة أسبوع من العام ١٩٨١. ثم أضاف محدثي أن استنكافه وغيره من أقرانه وأصدقائه عن متابعة العروض السينمائية في صالات بغداد، ليس سببه انعدام الرغبة بالسينما أو غياب الهوى السينمائي، بل بسبب نوعية الأفلام التي تعرض عادة وبسبب اقتصار معظم جمهور السينما في بغداد على فئة من الحضيض الاجتماعي) جريدة الحياة اللندنية، المصدر السابق.

والحضيض الاجتماعي، طبعاً، هو نفسه الذي تغنّى ببطولته عبد الستار ناصر في رواياته الحربية وقصصه، وهو نفسه الذي تغنى حميد سعيد بشاعرية موته على الجبهات.

اشكالية الابداع

الابداع يفترض مثقفاً حراً مع نفسه، وفياً لقيمه الروحية والفنية، يكون عامل تجاوز السائد هو العامل الأول والأخير في اشكالية الابداع.

المثقف الذي يقود انتاجه الفني، الكذبُ والتضليلُ والغرضيّة المسبقة لايعَبرُ برزخ الابداع مطلقاً، انما هو فرد يعي مصلحته الطبقية لاغير.

المثقف غير الممتلك لضمير فني وجمالي نظيف يصعب عليه تقديم شيء ذي بال، اذ هو لايلامس إلا القشرة، السطح، الثانوي، العرضي، والابداع جوهري دائماً.

داخل العراق، أُدخل المثقف إلى آلية الحرب بضغط السلطة ووسائلها المغرية، فكان لذلك نتائج وخيمة على عملية الابداع. فارتداء معطف الحاكم، جعل المثقف معزولاً عن هموم الشعب، جعله يتعامى في كثير من الاحيان عن المعاناة السائدة والمآسي التي ما عادت تُطاق. وحصيلة هذه العزلة، حصيلة هذه الرؤية المسطحة، نتاج معلّب، ميت، تابع لايديولوجيا شوفينية متعصبة منغلقة على ذاتها. اما ما نظّر له النقاد السلطويون كمحمد الجزائري من أن (الحرب تجعل القا[illegible]ء النص من أبنائها، منحازاً لها من وجهة العاطفة العراقية والانتماء العراقي، والتاريخية العراقية. الأقلام)، فما هو الا تنظير رخيص إنْ للحرب وان للنص. فلا القارىء الحقيقي، غير المحطم العقل، انحاز للحرب، ولا العاطفة العراقية انحازت للنص، لانه ببساطة، نص طائف الجذور، وهمي، مريض،

مؤدلج ليسوّغ الموت لا اكثر.

ان نص الحرب، الذي ساد حقبة الثمانينات في العراق، نص غير مبدع، عموماً، محلي الهم، سلطوي المضامين، وهذا ما أدى إلى عزلته الكبيرة عن تيار الابداع العربي فعلى مستوى الثقافة العربية المعاصرة، كان الانحياز الى صف الانسان الكادح المقموع، يتعمق يومـاً اثـر يوم، وحركة الثقافة التقدمية تتأصل في نفوس الكتاب والمثقفين وتزداد جاذبيتها كلما اشتدت هجمة القوى الظلامية. والكاتب الشاب لمس ظاهرة عزلة النص العراقي، لكنه لم يستطع الربط جدلياً بين عزلة النص وخنق الحريات وتهميش الثقافة ودور السلطة وراء ذلك التهميش. وهذا ما انعكس في قول الشاعر الشاب عبد الرزاق الربيعي في مقابلة معه نشرتها الطليعة الأدبية، آذار ١٩٨٩ : (أما عن أدب الشباب من زملائي فقد أراد بعضهم ان يحدث انقلاباً في الأدب العربي مستفيداً من ثقافته ووعيه الحضاري ولكن حجم الطموح أوقعهم في الكثير من الأخطاء الفنية فحدثت هوة بين أدبهم والجمهور وهذا نتيجة للأيغال في التغريب والاعتماد على الشكل واللغة واهمال المحتوى).



تلفزيون بغداد

المسلسل التلفزيوني - «الغريب»

منير كريم بدر

انـه اللا - معقول بعينه، من وجهة نظر الانسان المتحضر، ان تخلص إلى فكرة يتعـادل فيهـا الوطن بكائن بشري واحد فيه - ولكن عراقنا الواقعي هو الذي يملي علينا الافكار. هو هكذا!! والأكثر ان الفكرة ذاتها يجب ان تطبع نفسها على كل مجال، وفي كل آن.

والـ «لمـاذا»، لا تبحث عن سبب لنتيجـة - فهنـا السبب هو النتيجة - فعندنا في العراق، كما يراد له ان يكون، اندغم الكل في الواحد، لأن الروح، والتي بلغها الجميع، كما يحلو لهم ان يصوروا، تهيمن على العقل، وعلى الاشياء، وتصنعها!! فحركة الروح تعني حركة الكلياني. وحيث هذا الأخير يرعى الوطن، فعلى الوطن كله ان يرعاه!

وهذه المهمة، مهمة رعاية الوطن لأوحده البشري، هي، بالنسبة لهم، قضية تاريخ مديد. فالانحدار للماضي أو الامتداد في المستقبل لا يعني شيئاً آخر غير انتاج الأوحد: «من نبوخذ نصر إلى صدام حسين». هكذا يكررون ليل نهار - وما ا ن وصل التاريخ إلى هذا الحد، حتى امتلك صانعوه: الحق، والسيف، ومباركة الآلهة.

فالناس عندنا لا يغنون، أو يرقصون، أو يحتفلون، أو يطربون، أو يتعزون إلا لكي يروا انفسهم الكلية في الواحد - وليس الـواحد للكل - اذ لا تجوز العودة هنا؛ لا يجوز التقهقر، إلا بما اجازته ارادة الواحد نتاج اندغام الكل فيه. «فالقائد» حينما يريد - ينتصب

الوطن! ، ولكن حين يريد الوطن ، فلا ضرورة ، دائماً ، لأن ينتصب «القائد» . فلا املاء على العارف بكل الاشياء ، الـ «هو» الذي لا سواه .

وهكذا يفقد تنوع الجوانب في الظاهرة اهميته في فلسفة الحكم هذه . اذ ان الجانب المفقود يكمله الحق باستخدام السيف . وهذا ، أيضاً ، له فلسفته الخاصة*، غير ان هذا التعويض عما ينقص الفلسفة ما هو إلا الاسلوب في الحكم وحسب .

والحق ، ان الأدب والفن لا يقهرهما الاسلوب التعسفي في حكم البلاد ، قدر انقهار الروح ، أو الفلسفة . ونعني هنا ، بالفلسفة ، على وجه التحديد ، فلسفة الأديب أو الفنان ذاته . ففي كل عمل ابداعي توجد روح الانسان المبدع ! فلسفته هو ذاته دون غيره ، فلسفته عن الحياة والوجود ، وعن علاقات الناس ، والكيفية التي يكونون عليها وصلاحيتها له وللآخرين .

ولهذا فان تغيب ، أو تضليل ، أو التشويش ، . . . ، على فلسفة التراث المبدعة ، أو ممارسة الاضطهاد ، والقمع المادي ، عليها جراء الاسلوب المتبع في الحكم ، يقضي إلى الضغط سلبياً على احساسات الأديب والفنان ، وبالتالي حجبه عن تكوين رؤية ، حرة وواعية لما هي كائنة عليه محسوسات العالم ، وحيث يختفي هذا الأخير ، يتغيب الابداع الذاتي . ويصبح الأديب والفنان انساناً آخر ، انساناً يراد له ان يكونه ، وليس ما يريده هو ان يكون ـ وبالمعنى الأول يصبح الأدب أو الفن صنعة ، أو حرفة ، أو مهنة ، وليس ابداعاً ـ وكلا الأمرين لهما وجود في واقعنا العراقي .

فنمط الحياة الاجتماعية في مرحلة معينة من التاريخ لا يمكن له ان يلغي التفاعل والتعارض حتى وان «أحكم» غلق المجتمع عبر ما يسمونه عندنا «بتأطير المجتمع» .

عند الحديث عن تطور العملية الابداعية للأدب والفن في العراق ، تتداخل حدود التقييم . فواقعنا العراقي ينطوي على آلية «منسجمة» تهدف إلى وضع الحجرْ على عقل الأديب أو الفنان ، وتدفع به في ممر واحد لا يرى كل من يمر فيه غير فلسفة الحكم ذاتها . فنمطية الحكم ، واسلوبه الارهابي ، مادياً وروحياً ، والطلب من الأدب والفن التعبير عن فلسفة النظام ، واحتكار الوسائل الاعلامية بتنوعها ، تعمل كلها ، وبصورة حثيثة ، للضغط على العقل والاحساس بهدف التطبيع أولاً ، والتسخير ثانياً ، والاندفاع للتعبير عما يراد ثالثاً واخيراً . انها كآلية ، بعناصرها ، تعمل بترابطها ، لكبح عامل الاحتجاج في ذات الأديب والفنان . وتحاول ان تنتجه وتعيد انتاجه وفق هذه الآلية في مناخ روحي محدود .

وأغلب الظن ، فان هذا يكفي لاعدام العملية الابداعية وانحسار عامل الاحتجاج ، الذي نعني به الرفض للسائد من الفكر ، ومحاولات الوقوف ضد الهيمنة على العقل بطابع نضالي . وبموت العملية الابداعية فان التحول للأدب والفن من حيث وظيفتهما

الاجتماعية إلى حرفة، وصنعة، . . ، لا يحتاج، كما اعتقد، إلى أية اثباتات أو براهين.

ومن غير اللائق، الآن، الحديث عن حياء، أو خجل؛ صدق، أو كذب، . . . الخ من المفردات الاخلاقية، فقد حصلت تغييرات شملت هذا الحقل أيضاً. فقد كان في زمن التقاليد العراقية الأصيلة، يتشكل موقف عام، محدود أو واسع، ضد السلوك الشائن. فلم يكن يمر التزلف، أو الحذلقة، أو النفاق، أو الكذب، على صعيد ما نتحدث فيه، دون ان يتعرض فاعله إلى ما من شأنه ان يحسسه بفعلته المتدنية، وباختصار، كان هناك ما يمكن ان نسميه بالعقاب الاجتماعي. انه نمط من العقاب يتلاءم واصالة عصره، يُعبر عنه لا بالهراوة وانما دائماً بالعقاب الاجتماعي.

وحيث يتبدل الوضع، وتصبح الهراوة هي الاساس تتغير أيضاً المفاهيم والاعتبارات والتقاليد. فالآن، وبعد حجز الوعي في ممر واحد، شوفيني متطرف مقيت ولسنوات طويلة، مثلما هو معلوم، كما اعتقد، والطرْق المتواصل على هذا الوعي بمختلف الوسائل الاعلامية ـ السمعية والبصرية، والمترافق مع التطورات المقنونة في حياة الناس، اضافة إلى استخدام اساليب أخرى، كالرشوة الاجتماعية، وفلسفة الترهيب، . . ، وغيرهما، امكن المساس بمبدأ العقاب الاجتماعي والاقلال من فاعليته، إلى جانب تفعيل وتنشيط السلوكية وفق مفاهيم أخرى بديلة. فالاتهام بالوصولية، مثلاً، ما هو إلا نكتة. ذلك لأن النزوع نحو «الارتقاء»، والتسلق، . . ، وما يستتبع ذلك من تزلف، وحذلقة، ورياء، . . . ، انما هي تعبيرات عن ذكاء؛ عن «مشطارة»!

وحيث تصبح الانطوائية سمة عامة، تكون لازمتها قد ظهرت إلى السطح: قلة آثار المحبة، والود، وحسن المعاشرة، . . ، وضعف تأثيرات التداخل والترابط العائلي.

وازاء ذلك وغيره قلت. ضعفت تأثيرات الروابط الصداقية والعائلية والاجتماعية في خلق آلية اجتماعية كابحة لأعمال تدخل في مضمار الشر. ولكن الشر والخير أيضاً ينظر اليهما بمنظور آخر. فالفعل الخير، عند اوساط في مجتمعنا العراقي، يوصف هكذا بمقدار مردوداته؛ والفعل الشرير أيضاً، يوصف هكذا بمقدار نكوصاته.

ومع ذلك، فمن يفهم هذا الطابع البراغماتي الممتد إلى السلوك الاجتماعي؟ لا أحد! لأنه لا يمتلك أية أهمية، فالمهم، اليوم، ان توفر كل طاقاتك في الطريق المقنون، الذي رسمته، أو ترسمه فلسفة الحكم. وهذا لا يستثني، طبعاً، الأديب والفنان، وبشكل خاص، ذلك الذي حجزت وعيه السلطة ومنذ زمان. أما الذين غيروا اصطفافاتهم لصالح السلطة، فقد اعيد انتاجهم وفق هذه الآلية. **كل ما قيل لحد الان هو عن حرفية الادب و الفن في العراق و لكن ماذا؟** عن مضمون هذه الحرفة، التأليه؟ في قضية، كهذه، من الافضل، كما اعتقد، ان نتعامل مع الملموس، ذلك لأن

استلهام فلسفة وأسلوب الحكم ستكون لها تظاهرات في التاجات الادبية والفنية، والتي من بينها النموذج الذي سأحاول نقله اليكم، وهو عمل فني تلفزيوني ليس قصيراً. فهو مسلسل تلفزيوني، بثماني حلقات، اسمه «الغريب».

وسلفاً، لابد من القول، ان هذا النقل، كتابةً، لبعض من تفاصيل الاحداث سيفقده الكثير من الايحاءات. هذا صحيح. ولكن هناك ما هو أهم. وأعني الصورة التي ينطوي عليها هذا النقل عن تصورات، وتفسيرات، . . ، من مشاهد هذا المسلسل. وكيف فهم الناس الغرض من العمل ذاته. هذا اذا كان المسلسل قد استطاع ان يوصلهم إلى فهم معين.

أما لماذا نتحدث عن هذا المسلسل بالذات دون غيره: وغيره الكثير الكثير. فالسبب ليس على درجة من التعقيد. فهذا العمل يعبر على نحو ساطع، عن حرفية التأليه التي آل اليها الأدب والفن عندنا. وعدم الحياء في قلب الوقائع والتوظيف المعكوس للاتجاهات السائدة في السينما العربية، وبخاصة المصرية، كما سنرى الآن.

●

يبدو ان المعنيين والقيميين على ادارة شؤون تلفزيون الجمهورية العراقية كانوا يتهيئون، وباهتمام، لاستقبال يوم ٢٠/ آب/ ١٩٨٩. اذ ان الدورة التلفزيونية الجديدة لصيف هذا العام، كانت قد تضمنت اتجاهاً واضحاً يهدف إلى خلق سيكولوجية معادية وكارهة «للاجنبي» و«الغريب» عند المواطن.

فبعد المسلسل التلفزيوني المصري «ليالي الحلمية»، والذي كان يعرض على القناة الثانية ثم نقل إلى القناة الاولى، عرض مسلسل تلفزيوني آخر، وهو مصري ايضاً، اسمه «في سبيل الحرية».

وبالمناسبة، ففي حديث تلفزيوني لبرنامج يهتم بالثقافة، جرى، وبحق، تشخيص الطبيعة السياسية التي تنطوي عليها الاعمال الفنية المصرية في السنوات الأخيرة. وقد شاهدنا هذا الاتجاه في «ليالي الحلمية» وغيره. ففي «ليالي الحلمية» نرى كيف تنعكس التبدلات، والتغييرات السياسية على الحياة الاجتماعية. أي كيف يقود التبدل السياسي إلى تأثيرات فعالة على مصائر الشخصيات، والعوائل، . . ، وانبعاث الاخلاقيات الجديدة، والخ. وعلى امتداد فترة ليست بالقصيرة. وكانت النسبة العالية لمصداقية هذا العمل من الناحيتين الادبية (لاسامة انور عكاشة) والفنية (لمخرجه اسماعيل عبد الحافظ) سبباً يكمن وراء روعته.

أما مسلسل «في سبيل الحرية» فقد تعرف مشاهدو تلفزيون بغداد على التاريخ النضالي العريق للشعب المصري ـ «رشيد عام ١٨٠٧». فقد انطوى مضمون هذا العمل

الفني على ابراز الروح الوطنية المصرية، وتأكيده على موضوعة مهمة، وهي ان «الدفاع عن الوطن» شأن من شؤون ابنائه وحسب. معلناً الكراهية، كراهية الشعب المصري «للاجنبي» و«الغريب». ومع ان هذا العمل يحمل في طياته متناقضاته الخاصة. ولكن، هذا هو ما كتبه المرحوم جمال عبد الناصر.

أما نهاراً، حيث يواصل تلفزيون بغداد البث بسبب بدء العطلة الصيفية للمدارس، فقد ابتدأ عرض المسلسل المصري: «الأقوى من الحب». كتبه عبد القادر نجيب، واخرجه اسماعيل عبد الحافظ، ومثل فيه مديحة كامل، سمية الألفي، أحمد مرعي وآخرون وفيه، أيضاً نجد ان الظالم «قدوره» (قام بتمثيل الدور انور اسماعيل) والذي يحكم فعلياً الحاضرة البحرية المعروفة باسم «المنشلين» ويضطهد، ويقتل، اهلها وابناءها هو «غريب» عن «المنشلين». ولهذا نجد في استكانة اهل «المنشلين» ميلاً للنضال ضده.

وهكذا، فان التركيز على موضوعة «الاجنبي» و«الغريب»، كما ظهر لاحقاً، كان بمثابة تأكيد وتمهيد. فهو تأكيد على ان الشعوب تكره «الاجنبي»، طبعاً بغض النظر عن المرحلة التاريخية والموجبات المفضية إلى ذلك، وتمهيد للعمل التلفزيوني الذي فاجأ به تلفزيون بغداد مشاهديه، واعني به مسلسل «الغريب» الذي كتبه الدكتور ماجد أحمد السامرائي واخرجه صلاح كرم، وانتجته، وتقوم بتوزيعه، شركة بابل للانتاج السينمائي والتلفزيوني.

وفي «الغريب»، كعمل فني عراقي، نجد محاولة لتوضيح سيرورة وصيرورة الاحداث السياسية الكبيرة الاهمية والدوي في العراق عبر استلهام وتوظيف العلاقات والروابط الاجتماعية، وحياة المجتمع لهذا الغرض، أي العكس تماماً للاتجاه السائد في السينما المصرية.

ولتكوين عمل أدبي - فني على أساس هذه الفكرة، اعتمدت في البنية الداخلية له عملية ايحائية قائمة على الرمزية والتداعي. اذ جعل لكل شيء في الواقع رمزاً: دولة، حزب سياسي، منظمة سياسية، . . ، شخصية ذات دور محدد في العمل. وبالاعتماد على التداعيات، التي يتوجب ان يخلقها اداء الممثلين لادوارهم، لربط الشخصية بما ترمز له في الواقع، يكون الحدث السياسي قد توضح على أحسن ما يكون حتى بالنسبة للأميين!! ولكن جاءت النتائج عكسية حقاً. فالرمزية المفرطة كانت مبتذلة، والتداعيات كانت تميل بالمشاهد نحو استثارة مشاعر القرف. اذ كانت التداعيات تتجه أيضاً نحو المقارنة بالاعمال الفنية المصرية، وليس فقط إلى ربط الشخصيات بما ترمز له في الواقع، ناهيك عن الأثر السلبي لذلك في نفسية المواطن العراقي ازاء العمالة الاجنبية، وخصوصاً ازاء المصريين بالذات.

ان الانقلاب الذي احدثه حرفيو الأدب والفن، عبدة الآلهة البشرية، للاتجاه السائد في السينما المصرية، المنوه عنه، انما هم، بالوجه الآخر للقضية يعلنون عن تحذير من استخدام الوظيفة الاجتماعية للأدب والفن في العكس الصادق للواقع الاجتماعي العراقي الذي هزته بعنف الاحداث السياسية في العقد الحالي.

يضاف إلى ذلك، ان هذا الانقلاب انما هو، أيضاً، اعلان واعتراف بالتخلف والجهالة. ذلك لأن استيعاب السينما المصرية لاتجاهها الحالي هو قضية تاريخية، وهذا ما لا يمكن ان يفهمه الناظرون فقط إلى فم «القائد» وهو ينفث اللآلىء. فهم لا يفهمون ان المرحلة التاريخية التي بلغتها السينما المصرية في تطورها العتيد، هي ليست المرحلة التي تعيشها السينما العراقية في الوقت الحاضر. وان المهمة الثقافية والروحية، التي تأخذها السينما المصرية على عاتقها مرتبطة أوثق الارتباط بالتطورات الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية هناك. ولهذا فان موقف السلطة السياسية في مصر من الاعمال الادبية والفنية عامة والاعمال السينمائية خاصة هو ليس ذاته في العراق. والدليل على ذلك، هو النموذج الذي قدمه تلفزيون بغداد، نتاج هذا الانقلاب ـ «الغريب».

●

ان موضوعة «البيت» هي الموضوعة المحورية للمسلسل التلفزيوني «الغريب». وابو علاء (يقوم بتمثيل الدور بهجت الجبوري)، الذي يحاول جهده ان يتقمص شخصية صدام حسين في حركاته، وكلامه، وضحكاته، وسلوكه بين الناس، ومع تلامذته (فهو معلم)، هو رب هذا البيت. وعلى هذا النحو يحاول ماجد السامرائي والمخرج صلاح كرم ان يظهرا ان هذا البيت ما هو إلا الوطن وربه صدام.

وعند ابي علاء امرأة في خريف عمرها، كما ظهرت على الشاشة.. انها أم علاء (فاطمة الربيعي) الورعة، ذات الأصول والتقاليد. انها لم تظهر في الشارع ولم تجلس في كازينو. انها امرأة خلقت لبيتها واولادها الثلاثة: علاء (فارس خليل)، صلاح، وليلى. ولم يكن في مقدور تداعياتنا ان تكشف عما يرمز اليه هذا العدد (٣)، ولماذا عند ابي علاء ولدان وبنت واحدة؟

في هذا البيت (الوطن) كانت أيضاً تعيش فتاة في ربيع العمر اسمها «وفيقة» (أميرة جواد). توفي ابواها بعد ان تهدم البيت عليهما فتكفل ابو علاء بتربيتها ذلك لأنه، أي ابو علاء شهم «لمام الشمل»، مثلما تقول الاغنية في مقدمة كل حلقة من حلقات المسلسل. وكانت علاقة أهل البيت معها طيبة، ونزيهة، وشريفة. وكان طريق نموها في هذا البيت الشريف طبعاً طبيعياً جداً. ولكن، في بعض الاحيان، كان استيقاظ مشاعرها واهتزاز احساساتها يقض عليها مضاجعها. فيضغط عليها روحياً ليجعلها تطلق في حوارها مع ليلى

بنت ابي علاء بعض العبارات التي تنم عن الضيق : انني لست اختك. انني لست منكم.

أما إلى ماذا ترمز ليلى، ووفيقة، فهذا ما يوجب علينا ان نأخذ منظوراً ايديولوجياً. ان الدول الاسلامية، بالنسبة إلى فلسفة الحكم، هي نتاج «الفكرة القومية». ففي زمن الجاهلية كان ظهور الاسلام تعبيراً وتجلياً عن انبعاث الروح القومية العربية. ولكن، فيما بعد ذلك، انهارت الدولة الاسلامية بعد وفاة محمد، وانهارت «الوحدة الاسلامية». وتوزع المسلمون في «كانتونات»، أو «بيوت»، أي في اوطان. ثم شكلوا في «بيوتهم» حركات سياسية اسلامية. وطبعاً، ذلك لم يستثن «بيت صدام» - العراق، كما أراد د. ماجد السامرائي، ان يقول. وهكذا فان (وفيقة) ما هي إلا هؤلاء المسلمون وحركاتهم.

وانفعالاتها، المشار اليها، مع ليلى تستثيرها عوامل الحضارة. اذ ان استحالة بعث الدولة الاسلامية، أو الوحدة الاسلامية، يعود إلى كون الفكرة القومية تريد ان تنبعث كما هي دونما حاجة إلى شكل آخر. تريد ان تنبعث كفكرة قومية سافرة. هذا الخلاف الذي لا تفهمه (وفيقة) بسبب الجهالة، والضلال، بالنسبة لفلسفة الحكم، هو الذي يجعلها تصد ليلى (القومية) عندما تعرض ودها، رغم التأكيد على انهن اخوات، وبسبب من كل ذلك تبقى (وفيقة) مترددة، يعوزها الثبات ويتنابها القلق باستمرار.

وفي يوم ما، ووفيقة في طريق عودتها إلى البيت تصدى لها وبشكل مفاجيء رجل لم تعرفه في البداية، ولكنها تذكرته بعد ان عرفها بنفسه: «اسمي الآن (سعد). وكنت أسمى سابقاً (غريب) (يقوم بتمثيل الدور مقداد عبد الرضا)».

و«غريب»، كما يظهره المسلسل، كان صبياً بلا أب أو أم، بلا جذور أو اصول: «ما أدري منين ما منين»!!، وجده والد وفيقة قبل ان ينهار البيت، وتركه يعيش معهم ويعمل لينتفع معه في الدكان. وبعد ان «تهدم» بيت (ابو وفيقة) اختفى هذا الصبي. ولم يعرف عنه أحد أي شيء. ونسيه الناس. ولكنه بعد عشر سنوات أو أكثر (ولعل هذه العشر سنوات حسب التساوق الرمزي تعادل عشرة قرون أو أكثر) ظهر فجأة أمام وفيقة. وقد وظف الكاتب شخصية «غريب» كرمز مزدوج عن الايرانيين الذين كانوا يعيشون في العراق؛ وعن ايران أيضاً.

ان لقاء «غريب» الأول مع «وفيقة»، واللقاءات التالية خلق: ميولاً عند وفيقة نحو «غريب». وهذا ما يتوجب النظر اليه بمستويين: الأول، وهو الظاهر من المشاهدة المباشرة للعمل هذا، أي المستوى الاجتماعي. ففي هذا المستوى من المنظور تظهر الميول عند «وفيقة» تحت تأثير الخوف من المستقبل؛ من اليتم؛ ونتيجة الميول الطبيعية الانسانية لدى المرأة بالزواج، وتكوين بيت الزوجية المستقل، والخ.. أما المستوى الثاني فهو قائم على أساس المشاعر الدينية التي تربط بين الاثنين والتي يمكن توظيفها سياسياً. وهذا ما

حصل: كما سنرى فيما بعد.

وعلى عكس «غريب»، المنقطع الجذور، يظهر الكاتب السامرائي، ان أبا علاء ذو جذور وطيدة واصول. فاعمامه في الريف. وابناء عشيرته كثار. والريف حيث يعيش اقرباء (ابو علاء) هي ضواحي لم يجر تشخيصها. هل هي ضواحي بغداد، أم ريف سامراء (لأن ازياءهم هي العقال والكوفية والدشداشة البيضاء)؟ - فلا أحد يدري!، ولكن، ربما، ان الكاتب تعامل رمزياً مع هذا الريف بوصفه تعبيراً عن مجموع العشائر والقبائل التي يهمها الحفاظ على «البيت». بيت (ابو علاء).

وابناء العمومة هؤلاء تربطهم بابي علاء وشائج قوية جداً. على الرغم من انه معلم يسكن في المدينة؛ وابناؤه في الكليات. فهو (الجعيده) الذي يحل بحكمته ورويته وعقله الكبير المشاكل العويصة التي تحصل بين ابناء العشائر المتجاورة بسبب الأرض والزراعة وتوزيع الماء، وما إلى ذلك.. فتراه بعد كل مشكلة تحصل في الريف يستدعى إلى هناك، يجلس في الديوان، ويحاور، ويحكم، ويفتي ويحل المعقد من الأمور. ويعود إلى بيته سعيداً، مرتاح البال، منتشياً بفعل الخير. ولكثرة ما كانوا يطلبونه لحل المشاكل في الريف كانت زوجته أم علاء تستاء، ويدخل إلى قلبها الضجر. ولكنه يحترمها، ويقنعها بحكمته وسعة صدره.

ولم يكن ابو علاء هذا، شخصية مرموقة في الريف وحسب. وانما أيضاً في المدينة. انه محبوب ومحترم. يلجأ اليه الناس في «الحارة» لحل بعض الأمور، أو يقدمون له الود والاحترام حين يلتقونه. وكان الرجل كيّساً، متزناً، محنكاً وذا قلب كبير. فحين بلغه خبر تعلق وفيقة بسعد: فرح! واستعد لتقديم ما يقدر عليه لاسعاد وفيقة التي هي بنته أيضاً. انها، تماماً، مثل ليلى. وحين طلبت منه وفيقة ان يأتي سعد إلى البيت لكي يلتقي به: وافق فوراً!

وجاء «سعد». وتعرف على العائلة. وابتدأ يدخل في خصوصياتها. ويتعرف على شخصياتهم، واهتماماتهم، وعواطفهم، وعلاقاتهم، ووظفها، لاحقاً، لصالح أعماله الخبيثة.

والأكثر من ذلك، ان ابا علاء حين طرحت عليه خطبة «وفيقة» إلى «سعد»: وافق فوراً! واقنع زوجته وابناءه على ان تتزوج «وفيقة» في بيته (لحين الله يفرجها ويرتبوا حالهم).

ولكن، مثلما ظهر على الشاشة، فان «غريب» كان قد هيأ «وفيقة» عند لقاءاته معها للتجسس على العائلة «في البيت». وطلب منها موافاته بالاخبار «أول بأول»، بعد ان اقنعها ان لأبيها نصف البيت. ولابد لها، من معاونته، لكي يتمكن، هما الاثنان، من تحطيم، وتدمير ابي علاء والاستيلاء على «نصف البيت»، أي «نصف الوطن»!!

وكانت «وفيقة» (الحركة الدينية الاسلامية العراقية)، تحت تأثير تهافت مشاعرها توافي «غريب» بكل ما رأت أو سمعت من شؤون عائلة ابي علاء. ويسبب من ذلك كانت تحصل من الاحداث في الريف والمدينة ما لا يوجد، أو يعرف له تفسير. فتحير الجميع، بما فيهم ابو علاء، ولكنه، رغم ذلك، كان يطمن كل من حواليه، ومن هم بعيدون عنه: ان الفاعل سينكشف!

لحد هذا الوقت، لم يأت في بال ابي علاء، ان «سعد» هذا، هو ذاته «غريب» الذي كان يعمل شغيلاً (صانعاً) عند ابي وفيقة في الدكان. ولكن حين جاء «سعد» ليلة زواجه، والتي وافق الجميع على ان تكون في بيت ابي علاء، قال الجميع بمن فيهم ابو علاء، إلى «سعد»: ان هذا البيت هو بيتكم، وبامكانكم ان تتزوجوا فيه، وتبقوا المدة التي تريدونها لحين «ان تلموا» انفسكم، وتكوّنوا بيتكم.

غير ان «سعد»، وبغباء، كما ظهر على الشاشة، تسرع في فضح نواياه. فامام كل العائلة قال: صحيح، انكم وافقتم على ان نسكن معكم، ولكن «وفيقة» لها نصف هذا البيت. انها حصة والدها.

تثور، ثائرة ابي علاء. ويحدس: انت «مو سعد»، انت «غريب». نعم. «انت غريب». تريد تبقى في بيتي، ثم تطردني منه. اخرج ايها «الحقير»!

وبعد ذلك تتتالى الاحداث، التي تعبر عن انتقام «غريب» مستهدفة «ابو علاء»، الذي بدا وكأنه في محنة. وقد أثر هذا الوضع سلبياً على ابناء العمومة في القرية. اذ ابتدأوا يشككون بقدرة (ابو علاء) على حل مشاكلهم، طالما هو ذاته لم يستطع ان يحل مشاكله الذاتية. وفي احدى الزيارات لهم في الريف قالوا له مواجهة: كيف يمكن ان تفتح ابواب بيتك للغريب. ثم انك تعاني من مشاكل، وغير قادر على حلها. فكيف يمكنك حل مشاكل الغير.

ولكنه، بحكمته، وكياسته، وسعة صدره المعهودة، طمنهم، وأبلغهم انه طرد «غريب» عديم الاصل والجذور من «البيت». فاطرب ذلك الفلاحين، واراحهم أيما ارتياح، ونسوا قضية عدم مشورته!

ومنذ هذه اللحظة، وبعد ان تم تهجير، وطرد، آلاف الناس من أصل ايراني في العراق، يبدأ الكاتب، بالتعامل رمزياً، مع «غريب» على انه «الدولة الايرانية»!!

كانت الاعمال الاجرامية والانتقامية التي قام بها «غريب» كثيرة، وكبيرة، اقلقت أهل بيت أبي علاء. واجمالاً يمكن حصرها بالتتابع التالي :-

● كانت افعاله الاولى هي دق اسفين بين العشائر- الفلاحين. حيث ذهب عدة مرات للريف، بعد معرفة الاخبار من «وفيقة»، وفتح «الماي على الزرع وغرك الكاع»

و بسبب ذلك تندلع المشاكل بين «آل جدعان» و«آل خلف». ولكن، ابا علاء، حلال المشاكل، المعلم ـ كان يطمنهم بان: الفاعل سينكشف!

● حاول ان يدهس ليلى، ابنة المعلم ابي علاء بالسيارة حينما كانت ذاهبة إلى الكلية، وفيما هي تسير بجانب الرصيف (والله العظيم).

وحين علم «غريب» من «وفيقة» ان هناك شخصاً اسمه معيوف، يكره ابا علاء، لانه خطب ليلى إلى ابنه فرفض ابو علاء أشد الرفض، سارع إلى اللقاء به. وبعد حوار قصير تعرف (معيوف) على هذا المتخفي باسم «سعد»، وقال له «انت غريب!» وضحكوا ملء الاشداق وبهستيرية. انهم اتفقوا على الانتقام. وعلى ما يبدو ان (معيوف) قد وجد ضالته في «غريب» لأنه قال: لقد وجدت «الماشة» التي اريدها لاذلال ابي علاء وتدميره.

وعلى أية حال، فـ (معيوف) هذا، على ما يبدو، شخصية مهمة في العمل الفني. انه مضارب سيارات، طفيلي ميسور. ومن حديثي النعمة. اذ انه بعد ان تحسنت احواله ترك المحلة وسكن خارجها. وتحول إلى شخصية كارهة لاناسه القدامى وصحبه. وسلك طريق الادمان على السكر، ولعب القمار. فهو يلعب الروليت في نادٍ لم يُشخص مكانه.

وفي الحلقة الثامنة والأخيرة من المسلسل اياه، ظهر ان لمعيوف هذا علاقة بامرأة اجنبية. تبدو كبيرة في العمر تقريباً، شعرها ابيض كالقطن تماماً. تتكلم العربية ولكنها (عربية مكسرة). وظهرت مرة واحدة تلعب القمار في نادٍ ما. انها لا تلعب الروليت، مثلما ظهر معيوف، وانما تلعب الورق. وكانت هي التي تمد (معيوف) بالأموال.

جاءها معيوف مخموراً وهي في هذا النادي. كانت تلعب الورق. فطلب منها اموالاً. فرفضت. فتذلل هذا الثمل، واستصرخ ضميرها لكي تعطيه ولو فقط هذه المرة. ولكنها كانت قد عرفت بوضعه الحرج، والمأزق الذي هو فيه جراء تورطه مع «غريب». ولهذا أمرت بقذفه خارج النادي. وحيث تقطع مصادر التمويل تعاد الصكوك إلى معيوف لانه اصبح بلا رصيد. فيجن!

والآن، من وجهة نظر الرمزية عند الدكتور ماجد السامرائي، يمثل من معيوف هذا؟ فاسمه المذكر لا يدلل على انه: سورياً، أو ليبياً. أهو الكويت، أو أحد بلدان الخليج؟ لا أحد يدري. وهذه المرأة الاجنبية تمثل من؟ هل هي اسرائيل أم امريكا، أم رمز لكليهما؟ أيضاً، لا أحد يدري، لأنه لا يوجد ما يؤكد الهوية الواقعية للمرموز له.

عموماً، فان ما فعله معيوف لـ «غريب» هو ان عرفه بشخص يعمل عنده اسمه «حسون» وبعد لقاء «غريب» معه، اتفقا على ان يقوما بسرقة سيارة و«تفصيخها» ثم بيعها في المعرض كادوات احتياطية ـ وبهذه الطريقة ـ كان يتعامل «غريب» مع «حسون» باذلال متناهٍ، واحتقار، وازدراء. وكان «حسون» ذاته جباناً، رعديداً، مرتعباً، اظهروه مرة على

الشاشة، قزماً حقيقياً. تافهاً.

وبقي ان نعرف ان «حسون» هذا هو عامل ميكانيكي. أما لمن يرمز؟ فهذا لك ايها القارىء اللبيب. مثلما تركوه لنا نحن المشاهدين.

سرق «غريب» بمعاونة حسون سيارة تعود لصلاح ابن ابي علاء. و «فصّخوها» ثم قاموا ببيع ادواتها. وكانت هذه «الجريمة» بمثابة واحد من الخيوط التي أدت إلى كشف «غريب».

● علاء، الابن الأكبر، كان يدرس في كلية الزراعة. ويحب فتاة اسمها سلوى تسكن عائلتها في الموصل (الموصل رمز مهم). وهذه العائلة من اقرباء ابي علاء. كانوا متحابين، الأب، وهو القريب إلى ابي علاء، كان يميل إلى اعطاء ابنته إلى علاء. أما الأم فكانت تريد ان تعطيها إلى قريبها. كان التزاور بين العائلتين متواصلاً. وابو سلوى صديق ابي علاء.

ذات يوم اتصل ابو سلوى تلفونياً بعلاء ودعاه ان يأتي إلى الموصل. فذهب. وحين كان يتنزه في ازقة الموصل تعرض إلى اعتداء جعله يعود فوراً إلى بغداد. ومنذ ذلك الحين ترك علاء سلوى، ووقع في حب (دكتورة) تَم تعيينها حديثاً في القرية التي عين فيها هو أيضاً كمهندس زراعي.

وبمرور الايام أراد «خلف» (عبد الجبار كاظم) ان يتزوج حبيبته من (آل جدعان). وبعد صراعات وافقوا على الزواج. وعندما علم «غريب» بالخبر من «وفيقة» عزم على توجيا ضربة «تجوي كلب أبو علاء» (سبق لوفيقة ان قالت له بعلاقة علاء بالدكتورة).

فذهب ليلة الزفاف إلى القرية بالسيارة مع «حسون». وتربص هناك حاملاً بندقية (كسرية). وعندما أرادت الدكتورة ان تذهب إلى بيتها ارسلوا معها ثلاثة فلاحين، وفي الطريق تعرضوا إلى عمل عدواني من «غريب». فقد اطلق النار بهدف اغتيال الدكتورة إلا انها اصابت أحد الفلاحين فمات.

وبعد أن عرفت الجريمة في اليوم التالي قال ابو علاء: سينكشف الفاعل!

● أما صلاح، وهو الابن الاصغر لابي علاء، فكان يحب فتاة كانت معه في الجامعة اسمها مديحة (عواطف ابراهيم). وقد تعرضت علاقتهما إلى التصدع نتيجة خلاف حول الزواج، أو بالاحرى مكانه. فقد غضب صلاح أشد الغضب لانها قالت له تزوج في بيتنا. فكيف يوافق وهو الابن المتربي على الاصول والتقاليد. كيف يوافق ان يكون «كعيدي».

وأثناء هذا الخلاف دخلت احلام (داليا شكري العقيدي) على الخط. فهي طالبة

في الكلية. صديقة (مديحة). وتحب (صلاح) من طرف واحد. ولكن ذلك لم ينفع. اذ عادت المياه إلى مجاريها. وتزوج صلاح من (مديحة). (في الواقع، ان دور احلام زائد عن اللزوم تمام، ولكن لابد من غبار). وقرروا الذهاب إلى الموصل لقضاء شهر العسل.

و «غريب» من خلال علاقته بصلاح في بداية الايام. ومعرفته بسوء علاقته مع (مديحة) حاول جهده لأن يكرس هذا الخلاف ويعمقه بتحريض (صلاح) ضد مديحة. وحين عرف انهما سيتزوجان في الموصل نظم لهم «لعبة» صغيرة. ولكنها لم تفلح. اذ ان صلاح كشفها.

وخلال كل هذه الاستفزازات لابي علاء، واعمال «غريب» الاجرامية، ان لم أكن نسيت منها شيئاً، كان رابط الجأش، عقله يعمل بشكل جيد جداً؛ (يجمع) خيوط الاحداث، ويحلل، ويربط، ويذهب به احساسه وحدسه إلى «غريب»!

الناس، حتى (ابو سلوى) جاء خصيصاً من الموصل إلى ابي علاء، ليقدم التضامن، ويعلن الولاء، للقضاء على الشر، للقضاء على «غريب». ترى هل عرفت ماذا يعنون بالموصل؟ ومن هو (ابو سلوى)؟

ولكن، ابا علاء، كان يرفض ان يقف أحد أمام هذا الشر إلّا هو.

نصل الآن إلى الحلقة الثامنة والاخيرة، التي انتهت يوم ١٩٨٩/٨/٢٠. هذه الحلقة مصممة للضربة. بعد ان تكشفت اعمال «غريب» للعيان. فـ «وفيقة»، المسكينة، بدت تتململ، وتضجر، وتخاف، انها مرعوبة من اعمال زوجها «غريب». تتحدث معه ليتوقف، ليمتهن العمل الحلال ويترك علاقته بـ «حسون». وهو رغم تذمره من خوف «حسون» وعدم رجولته الا انه يحاول ان يقمع وفيقة ويعتدي عليها. ويضرب رأسها بالحائط واضافة لذلك يطلب منها ان تذهب إلى «حسون» لتجلب له بعض المال. وفي طريقها إلى «حسون» تسقط مغشياً عليها في الشارع. تتجمع حولها النساء. وتمر بالصدفة مديحة زوجة صلاح بسيارتها (الفوكس واكن). وتتعرف عليها. وتأخذها إلى البيت. ولكن «وفيقة» بعد ان استراحت في البيت. رأت صورة صلاح ومديحة. وعرفت في أي بيت هي!. فهربت. وقد قرع صلاح، ومن ثم ابيه ـ ابو علاء، مديحة على غفلتها، وكان عليها ان لا تجعل «وفيقة» تهرب.

غير ان «وفيقة» (المصطورة) من الضربة (بالحائط). سقطت في الشارع مرة أخرى مغشياً عليها. فنقلوها إلى المستشفى. وطلبت الاتصال بابي علاء، دون ان تود الاتصال بزوجها «غريب»، الذي كان قلقاً أشد القلق عليها. فطمنها «لمام الشمل» ابو علاء. وقال لها: تعالي إلى بيتنا. وفعلاً، فقد ذهبت إلى بيت (ابي علاء) بعد خروجها من المستشفى. وأكدت له مجدداً انها لا تريد العودة إلى «غريب». وطلبت منه ان يتجنبه لانه

مسلح ولـديه «كسرية». وبدهاء المعلم فهم ابو علاء ان «غريب» هو الذي قتل الفلاح عندما أراد اغتيال الدكتورة.

وقـال ابو علاء لها، انني أطلب منك ان تعودي إلى «غريب». وتعرفي سلاحه، وعتاده، وعلاقته، وعدد صحبه، وما يريد ان يفعل. . . وأنا سوف آتي واخلصك منه ـ ثم أخذ منها ـ عنوان بيت غريب.

وبعـد ذهـابهـا. وموافقتها على ذلك. واستمرار غريب باعماله. عقد (ابو علاء) اجتماعاً مع ولديه ـ صلاح، وعلاء، وابن عمه خلف. وبسط امامهم موضوع «غريب»، عديم الاصل، والجذور، وقال لهم انه وراء كل هذه المصائب. وقد آن الاوان للتخلص منـه. لابـد من الهجـوم عليه في داره. وقـد عرفت موقعهـا. وبحماس، واندفاع، أيد المجتمعون ابو علاء. ووضعت الخطة. واخرج ابو علاء سلاحاً كان قد تركه له ابوه، أو جده.

وفي الليل ذهبوا إلى بيت «غريب»، ومن وراء التل صاح ابو علاء:

اخرج ياغريب.

---

* في لقائه مع وزير الحكم المحلي ـ حسن علي المجيد ـ ومحافظي صلاح الدين والانبار، والمنقول على شاشة التلفزيون اوضح صدام حسين فلسفته في استخدام العنف وتوظيفاته الاجتماعية كترهيب. فقد اوضح انه لا يؤمن بعقوبة تتناسب وحجم الحرم المرتكب، وانما يؤمن بالعقوبة الكبيرة التي تروع أوسع عدد ممكن من الناس. ولهذه العاية الأحيرة، لابد من ان تكون العقوبة علانية حيثما أمكن، أو فسح المجال للاشاعة، بما يصاحبها من تضخيم للحدث، ان تأخذ مسراها، بهدف خلق نمط من الترهيب عند الجماعة عبر محاسبة الفرد الجاني بقوة. وبالتكرار يتكون ما يدعي بـ «حاجز الخوف»، وهو عامل كبح سيكولوجي للسلوك عند الانسان.

ونمعنى آخر، انه يميل إلى استخدام الضربة الثقيلة المدوية، والتي جرى الحديث عنها، سلباً أو ايجاباً، لتحقيق النتيجة ذاتها ـ اشاعة الرهبة في النفس. ولهذا فهو يقول: «الشعب غير المنضبط لا يرتجى منه خير وخـاصـة في عصـر اليوم (. . .) فاسبـاب تقدم اليابان الآن هو انضباطهم (. . .).الآن لا أؤمن بالعقوبات الكثيرة البسيطة دائماً. أؤمن بعقوبة واحدة تعفينا من عقوبة ٥٠٠ مخالف لاننا بدل ان نعاقب ٥٠٠ من شعبنا نعاقب واحداً يستحق هذا العقاب لكي نجعل البقية يمتنعون عن التصرف الخاطيء».

البلاغ الختامي للمؤتمر العاشر للحزب الديمقراطي الكردستاني - العراق

خلال الفترة ١٢/٢ حتى ١٩٨٩/١٢/١٢ وتحت شعار (تجديد النضال من اجل الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان) عقد المؤتمر العاشر لحزبنا الديمقراطي الكردستاني جلساته بحضور (٣٣٢) مندوباً وعددٍ كبيرٍ من الضيوف ممثلي الجمهورية الاسلامية الايرانية، الجبهة الكردستانية العراقية، المجلس الاسلامي الاعلى، الحزب الشيوعي العراقي، الاتحاد الوطني الكردستاني، حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني، الحزب الاشتراكي الكردي، الاتحاد الديمقراطي الآشوري، الحركة الاسلامية الكردية، راية الثورة، وحزب كادحي كردستان. اضافة الى عدد كبير من المنظمات الصديقة والجماهيرية. وافتتح المؤتمر بالوقوف دقيقة حداد على روح مؤسس الحزب الخالد مصطفى البارزاني والفقيد الغالي ادريس البارزاني وارواح شهداء الحركة التحررية الكردية وعموم الوطن العراقي. عقب ذلك ألقيت كلمة ترحيب من قبل رئيس حزبنا المناضل مسعود البارزاني، ثم تلا سكرتير الحزب الرفيق علي عبدالله التقرير السياسي للجنة المركزية الى المؤتمر الذي استعرض اوضاع كردستان والعراق والعالم، وركز على نتائج حرب الابادة الشاملة في كردستان العراق، وتناول تقييم مسيرة نضالنا خلال السنوات العشر الماضية منذ انعقاد المؤتمر التاسع عام ١٩٧٩، بما تضمن من ايجابيات وسلبيات، وانتقد التقرير الاخطاء والسلبيات البارزة التي ساعدت على وقوع الانتكاسة العسكرية في الحزب والحركة التحررية الكردية التي كان استخدام الاسلحة

الكيمياوية من قبل الحكم الدكتاتوري عاملاً موضوعياً مباشراً في وقوعها.

واستخلص التقرير دروس وعبر هذه السنين وطرح مقترحات حول سبل ادامة النضال في المرحلة اللاحقة.

وقد نوقش هذا التقرير من قبل لجنة خاصة به شكّلها المؤتمر وتم اقراره بعد اجراء التعديلات. كما طرحت اللجنة المركزية على المؤتمر مشروعاً جديداً لمنهاج الحزب الذي اقرّ بعد مناقشات مطوّلة واجراء بعض التعديلات عليه.

هذا والقى الضيوف كلمات تحية الى المؤتمر كما تليت في المؤتمر رسائل تحية وتضامن من اكثر من (١٣٠) حزباً ومنظمة وشخصية اجتماعية وثقافية، وتخلّلت جلسات المؤتمر مناقشة امور سياسية واجتماعية هامة اخرى، منها بصورة خاصة شؤون مئات آلاف اللاجئين في ايران وتركيا وباكستان والجاليات الكردية في اوربا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها.

واصدر المؤتمر قراراً خاصاً بمناسبة التجمّع الدولي بشمول اللاجئين للقوانين المرعية ورعايتهم من قبل لجنة شؤون اللاجئين في الامم المتحدة.

حضر المؤتمر مندوبات تناولنّ مشاكل المرأة الكردية وهمومها وزيادة الاهتمام بحقوقها الاجتماعية والديمقراطية.

واتخذ المؤتمر قرارات تنظيمية هامة لتطوير النضال اللاحق بما يتفق والاوضاع الجديدة في كردستان العراق وجملة من القرارات التنظيمية تتضمن زيادة فعالية الهيئات الحزبية العليا وسرعة اتخاذ القرارات وتقوية وحدة الحزب.

توصل المؤتمر الى قرارات سياسية هامة على كافة المستويات، وقرر مواصلة المقاومة وتشديد النضال وتنويعه بالاشكال الممكنة بما فيها حق الدفاع عن النفس بالكفاح المسلح وتطويره وفق الظروف الجديدة ضد الدكتاتورية والشوفينية، واكد على ايجاد منابر حرة تجتمع فيها كافة الاحزاب والشخصيات الكردية من ممثلي كافة الاتجاهات والقطاعات للتعبير عن الرأي العام الشعبي. وقرر تعزيز الجبهة الكردستانية العراقية وتوسيع العمل الوطني الكردستاني المشترك ترسيخاً لوحدة الحركة التحررية الكردية، والعمل لتوحيد المعارضة العراقية بكافة تياراتها الاساسية والسعي لتشكيل جبهة وطنية عراقية واسعة.

وفي قرار خاص اطلق المؤتمر دعوة من اجل تحقيق الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان على اساس مصالحة وطنية وفتح صفحة جديدة في تاريخ البلاد وذلك باجتثاث جذور الدكتاتورية والاستبداد والغاء كافة اجراءات تغيير الطابع القومي والتاريخي لكردستان وضمان الحقوق للاقليات القومية.

ودعـا المؤتمـر الى مشـاركـة بقية قوى المعارضة الكردستانية والعراقية في العمل لتحقيق مصالحة وطنية شاملة في العراق. ولاول مرة في تاريخ مؤتمرات الحزب شاع جوّ من النقاش الحرّ الواسع، حول مختلف القضايا بما فيها تقييم مسيرة الاعوام الماضية، ومناقشة مسائل جادة في كردستان والعراق والعالم.

واتخذ المؤتمر قراراً خاصاً باشاعة الديمقراطية في صفوف الحزب والعمل لاشاعتها في صفوف الحركة الكردية عامة وضرورة وحدة المعارضة العراقية، وتشكيل جبهة وطنية عراقية عريضة ضد الدكتاتورية والاستبداد ومن اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي.

اكـد المؤتمر على ضرورة تقوية وحدة الحركة الكردية لاسيما الجبهة الكردستانية وعلى حق الامة الكردية المجزأة في تقرير مصيرها بنفسها. وأشار في الوقت ذاته الى ان الحزب يساعد اية خطوات على طريق الحل السلمي الديمقراطي للقضية الكردية في أي جزء من كردستان وأية مطاليب يحصـل عليها الشعب الكردي هناك وفق ظروفه الذاتية والموضوعية وامكاناته المتاحة.

ناقش المؤتمر نتائج الحرب العراقية ـ الايرانية وانعكاسها على المجتمع الكردي خاصة والمجتمع العراقي عامة، وتوصل الى ان حالة اللاحرب واللاسلم هي حالة قلقة تثير المخاوف لدى ابناء شعبنا، وان حكماً ديمقراطياً عراقياً على اساس المصالحة العامة هو وحده القادر على حل هذه المسألة، وليس بمقدور نظام دكتاتوري الوصول الى حل عادل ونهائي.

ودعا المؤتمر الى انهاء هذه الحالة الهشّة من وقف اطلاق النار، للتوصل الى صلح عادل مع ايران على اساس الاحترام المتبادل للسيادة الوطنية، مع الاخذ بنظر الاعتبار ارادة الشعب العراقي وحرياته الاساسية بصورة عامة والمطاليب العادلة للشعب الكردي بصورة خاصة، وناشد المؤتمر المجتمع الدولي للمساهمة في صلح ديمقراطي عادل بين العراق وايران، والحيلولة دون نشوب حروب جديدة في الشرق الاوسط، وأشار الى ان أية حرب مقبلة قد تكون حرباً كيمياوياً وبايولوجياً. لذا اتخذ المؤتمر قراراً خاصاً حول العمل لابعاد الشرق الاوسط عن كوارث النزاعات والحروب، واقرار الاستقرار والعدالة والسلام، بحيث يشمل كافة شعوب المنطقة بما فيها الشعب الكردي.

حيّا المؤتمر الجمهورية الاسلامية الايرانية لتقديمها الدعم والعون لحزبنا والحركة التحـررية الكـردية والمعـارضة العراقية خلال السنوات العشر الماضية، وايوائها لآلاف اللاجئين الاكراد خصوصاً والعراقيين عموماً.

كما حيّا المؤتمر الجمهورية العربية السورية والجماهيرية الليبية لموقفهما التضامني

مع قضية الشعب الكردي التحررية والمعارضة العراقية عموماً.

وعلى الصعيد العربي حيّا المؤتمر الانتفاضة الشعبية الفلسطينية في الاراضي المحتلة وأيد تشكيل الدولة الفلسطينية وعقد مؤتمر دولي يضم كافة الاطراف للوصول الى تحقيق كافة الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني بمافيها تشكيل دولته الوطنية على ارضه.

وحيّا الخطوات والاجراءات الرامية الى تحقيق الديمقراطية في الجزائر وتونس والاردن والكويت وغيرها من الاقطار العربية، مثلما اعرب عن التضامن مع الشعب اللبناني الصديق وحركته الوطنية من اجل استقرار حكومته الشرعية واستتباب السلام ووحدة لبنان ارضاً وشعباً. وأعلن عن تأييد محاولات الحل السلمي العادل لقضايا الشعب الارتيري وجنوب السودان وشعب الصحراء الغربية والساقية الحمراء.

درس المؤتمر باهتمام بالغ تطورات الوضع الدولي لاسيما التغييرات الديمقراطية في البلدان الاشتراكية وانتشار تيّار التغيير الديمقراطي في العالم بصورة عامة وزوال أو تراجع العديد من الانظمة الدكتاتورية والعنصرية في بلدان العالم الثالث، وتعميق الاتجاه الدولي العام نحو اطلاق الحريات العامة واحترام حقوق الانسان وتزايد الضغط على الانظمة المنتهكة للقوانين والمواثيق المتعلقة بهذه الحقوق والحريات، وتوصل المؤتمر الى ان جوّ الانفتاح العالمي هو لصالح قضايا الانسان والشعوب، لاسيما الشعوب المغبونة تاريخياً كما هو شأن الشعب الكردستاني.

وتبنّى المؤتمر الاعلان العالمي لحقوق الانسان. كما حيّا المؤتمر الجهود الدولية من اجل تعزيز الانفتاح الدولي وازالة الاسلحة النووية وابعاد خطر حرب نووية عالمية وتعزيز التعاون بين الحكومات والشعوب لتعزيز السلام على كوكبنا وانقاذه من مخاطر تلوث البيئة والفقر والتخلف.

ناشد المؤتمر المجتمع الدولي لتوسيع التضامن مع شعب كردستان وقضيته العادلة، وحقه في تمثيله كمراقب في هيئة الامم المتحدة وبقية الهيئات الدولية، والاقرار بالوضع القانوني للاجئين في تركيا وايران وغيرها وتحسين اوضاعهم ومراعاتهم انسانياً بما يتلاءم والمواثيق والاعراف الدولية.

عبّر المؤتمر عن الشكر والامتنان للحكومات والمنظمات والاوساط الدولية والانسانية والاحزاب والشخصيات الثقافية والاجتماعية في العالم التي تضامنت مع شعبنا في محنته لاسيما اثر استخدام الاسلحة الكيميائية في حلبجة وبقية مناطق كردستان في العراق.

وكرر الدعوة لاعلان يوم ١٦/ آذار من كل عام يوماً عالمياً باسم «حلبجة» تخليداً

لشهدائها وتعبيراً عن الكفاح العالمي من اجل تحريم الاسلحة الكيميائية واتلاف مخزوناتها.

واعرب المؤتمر عن استيائه لموقف الصمت واللامبالاة من قبل قطاع من الرأي العام لعالمي ازاء جرائم الابادة الجماعية من قبل النظام الدكتاتوري العراقي ضد شعبنا.

واتخذ المؤتمر قراراً خاصاً حول ذكرى القائد الخالد مصطفى البارزاني، وعقب ذلك زيارة كافة المندوبين الى ضريحه الطاهر لتجديد العهد على الوفاء لقضية الشعب الكردي التحررية والمضي على درب الكفاح حتى النصر.

هذا وانتخب المؤتمر بالاجماع الرفيق المناضل مسعود البارزاني رئيساً للحزب، بعد اقرار النظام الداخلي الجديد والغاء منصب السكرتير، وبناء على اقتراح من رئيس الحزب تقديراً لنضال وجهود الرفيق علي عبدالله وافق المؤتمر على منحه صفة نائب الرئيس.

ثم انتخب المؤتمر لجنة مركزية جديدة من (٢١) عضواً، مثلما حيّا عدداً من الرفاق الاعضاء السابقين في اللجنة المركزية الذين اعلنوا عن انسحابهم من القيادة لاسباب صحية، وهم ممن كانوا يشكلون نواة القيادة لعقود من الزمن، وحلّت محلهم عناصر شابة.

ان انعقاد المؤتمر العاشر بهذا الحجم وبمثل هذه الاجواء الديمقراطية، جاء تأكيداً على ثقة الحزب العالية بنفسه وبجماهير الشعب، كما جاء تحدياً للظروف الصعبة الراهنة التي يمرّ بها شعبنا وحركته التحررية والحركة الوطنية الديمقراطية العراقية.

وجاءت نتائج المؤتمر تجسيداً للخط التقدمي والجوهر الديمقراطي لحزبنا منذ تأسيسه وحتى اليوم، وقد خرج المؤتمر بصفوف موحدة ممّا سيعزّز الحركة الكردية.

هذا واختتم المؤتمر بالنشيد الكردي

«ئه ى ره قيب هه ر ماوه قه ومى كورد زبان».

اللجنة المركزية

للحزب الديمقراطي الكردستاني ـ العراق

١٩٨٩/١٢/١٢

الاشتراك السنوي:

٢٥ دولار أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية
إلى رقم الحساب:
282243 - 54
Banque Libano - Francaise
Bar Elias - Libanon

المراسلات:

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص. ب ٧١٩٢









من معرض الفنان كاردوكامو

السعر دينار ونصف